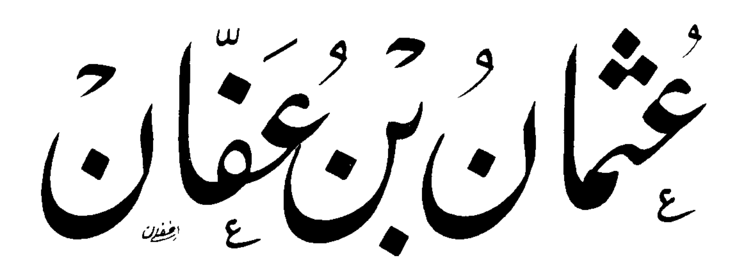
عُثمانُ بنُ عَفّان

صادق إبراهيم عرجون



الدار السعودية

الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ - ١٩٨١م



جدة : الإدارة ـ البغدادية عمارة الجوهرة الدور الثاني شقة رقم ٧ و١٢
تليفون ٦٤٢٤٠٤٣/٦٤٣٢٨٢١ ص. ب. : ٢٠٤٣ برقياً: نشر دار
الرياض : السليمانية، شارع الأربعين تليفون ٤٦٤٧٥١٥ ص. ب. : ٩٤٧٣
الدمام : الشارع العام، عمارة المنصور والعبدلي ص. ب. : ٨٩٩ تليفون
٢٣٥١٥ برقياً: نشر دار الدمام.
الطائف : حي السلامة بالبرقاوية أمام مسجد الحلواني تليفون ٦٢٤٩٠.

«لا يكن أَحدُكم إِمَّعة[1]؛ يقـول: أنا مـع الناس، إن أَحْسَنَ أَحسنتُ، وإن أساءُوا أسأتُ؛ ولكن وطِّنوا أنفسكم إنْ أَحْسَنَ النـاسُ أن تُحْسِنُـوا، وإن أَسـاءَ النـاس أن تَجْتَنِبُـوا إساءَتهم».

(حديث شريف)

***

ذكر عليٌّ عثمان فقال:

«ذاك امرؤ يُدْعىَ في السماء ذا النورين».

(١) الإمعة: الرجل يتابع كل أحد على رأيه، لا يثبت على شيء؛ ومن يقول: أنا مع الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كِفَاء نعمه، ولا كفاء لها إلا بالغ شكره؛ وأعوذ بالله من شطط الفكر، وجموح العقل، وأستغفره حَيْد[1] القلم عن مهيع[2] الحق، وزلل اللسان عن شِرْعة الصدق، وأستخلصه نيتي فيما إليه قصدت؛ له العتبى [3] ربنا وله الحمد.

وأسألك . اللهم أن تصلي وتسلم على محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد، فهذا طِراز[4] من البحث في سيرة ثالث الراشدين «عثمان بن عفَّان» رضي الله عنه، صوّرتُ به حياته صورة لا أعيذها من إجمال غير مجحف بحق، ولا أغضُّها عن تفصيل يظهر حجة أو يدفع شبهة.

وقد احتفلت فيه بتحقيق ما احتف بهذه السيرة الأسيفة من عوامل اجتماعية وسياسية، دفعت المجتمع الاسلامي دفعاً عاصفاً إلى أخطر انقلاب عرفه التاريخ في الإسلام.

وسيرة «عثمان» رضي الله عنه حريَّة بالبحث الممحص الهادىء، ليكشف منها ما سترته الأقاصيص العابثة من فضائل، وما شوهته الروايات الغالطة من محاسن، ويصحح ما غالطت فيه من حقائق، ويزيف[5] ما

---

(١) الحيد كالحيدان: مصدر حاد إذا مال.

(٢) المهيع بوزن مقعد: الطريق البين.

(٣) العتبى بضم العين: الرضا.

(٤) الطراز بوزن كتاب: النمط، والطريقة.

(٥) التزييف: إظهار الزيف، أي الرداءة، وفي القاموس: البهرجة: أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها.

بهْرجه المتقولون من أكاذيب مزوّرة، وحكايات باطلة.

وقد حاولت جهدي أن أتتبع الخطوط الأصيلة في حياة «عثمان» رضي الله عنه، فلاءمت بينها حتى ارتسمت منها هذه الصورة التي أرجو أن تكون لبِنة بين لبنات متساندة في دراسة حياة رجالات الإسلام، وسيَر أبطاله الغر الميامين، تبصرة وذكرى للمؤمنين. والله ولي التوفيق.

تمهيد

منهج البحث ـ غموض التاريخ وأسبابه ـ تضارب الروايات التاريخية ـ قداسة العهد الأول من تاريخ الإسلام ـ عوامل الانقلاب العثماني ـ التنافس بين بني هاشم وأمية في الجاهلية والإسلام ـ حدثاء العهد بالإسلام ـ نشوء المذاهب والفرق ـ الشيعة وعبدالله بن سبأ اليهودي ـ الخوارج ـ اشتراكية أبي ذر الغفاري ـ رأي في هذه الاشتراكية ـ التغالب على الدنيا ـ الكذب على سيدنا رسول الله ﷺ ـ تفرق كلمة المسلمين.

منهج البحث

اختلفت على الباحثين المعاصرين طرائق البحث في التاريخ الإسلامي؛ لأن الحياة العلمية المعاصرة اتخذت النقد والتحليل سبيلها اللاحبة[1] إلى غايتها الدراسية، ووسيلتها إلى فهم الحقائق، وتخليصها من مثاني الأقاصيص المحشوة بالمبالغات والأباطيل؛ تأييداً لمذهب سياسي، أو نحلة اعتقادية، أو هدفاً إلى غرض من الأغراض الاجتماعية التي دُوِّن التاريخ في ظلها، فلم ترض حياتنا العلمية بسرد الروايات، وسوق القصص دون تمحيص يرد النتائج إلى مقدماتها، ويعود بالمسببات إلى أسبابها: ولا سيما إذا كان الحديث في مرحلة معقدة تحامى الباحثون سبيل النقد فيها، لدوافع زمنية، أو إبقاء على قداسة شخصيات أجلَّها التاريخ، وسما بها عن النقد بغير التقريظ، أو خضوعاً لغموض يكتنف الحوادث وتغيب في مطاويه الحقائق.

غموض التاريخ وأسبابه

وليست في التاريخ الإسلامي مرحلة أشد تعقيداً، ولا أعظم

---

(١) اللاحبة: المستقيمة.

غموضاً، ولا أكثر التواء من المرحلة التي تبدأ بقتل الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب، واستخلاف عثمان رضي الله عنهما، وتنتهي بتسليم الحسن ابن علي الأمر إلى معاوية رحمهما الله تعالى.

فهي مرحلة معقدة ملتوية، لأن أمورها التبس على الناس فَهمُها، وتشابهت حوادثُها على العقول والأفكار، وعظمت أحداثها وقعاً على النفوس، حتى استبد بكثير منها الدهش والذهول، واستولت عليها الحيرة، فلم تدر إلى أي اتجاه تسير، ومن ثَم اعتزلت هذه الحياة الصاخبة المضللة المعالم طائفة من الأجلّاء ووجوه أصحاب رسول الله ﷺ ممن تشابهت عليهم جوانب الرأي وأشكل عليهم وجه اليقين، كسعد ابن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وسلمان الفارسي؛ وفي ذلك يقول الإمام النووي: «إن القضايا كانت مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيَّروا فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا، ولم يتيقنوا الصواب».

تضارب الروايات التاريخية

كانت هذه المرحلة من تاريخ الإسلام غامضة أشد الغموض؛ لأن التاريخ نفسه لم يستطع الفصل في شيء من أحداثها، ولم يحقق أمراً من أمورها التي أدت إلى ذلك الانقلاب الذي زلزل كيان المجتمع الإسلامي وغيَّر كل شيء في حياة المسلمين. فالتاريخ إذا حدثك في موضوع برواية سَرْع ما ينقضها برواية أخرى في الموضوع نفسه، وهو إذا أعطاك صورة لشخصية تاريخية فإنه لا يترك لك معالمها سوية لتستقر في ذهنك حتى تتعرف عواليها من سوافلها، وهو إذا وقف بك على سبب حادث من الأحداث استدرك عليه بسبب آخر يهدمه.

ويوشك أن يكون هذا عيباً عاماً في مصادر التاريخ الإسلامي التي بأيدي الناس، وحسب الناظر في هذا التاريخ أن يأخذ إليه ما يشاء من مصادره فيقرأ فيه ما يريد من الموضوعات، فإنه لا يخرج منه بنتيجة واحدة لمقدمات واحدة في الموضوع الواحد، ولكنه سيخرجَ من الموضوع الواحد بنتائج مختلفة لمقدمات مختلفة بروايات مختلفة.

وشواهد ذلك التضارب أكثر من أن يحيط بها الحصر، وإذا كان لا بد من التمثيل فاسمع إلى ما يرويه أبو جعفر بن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» وهو من أهم مصادر التاريخ الإسلامي وأقدمها، في ثلاثة موضوعات: واحد منها جاهلي، واثنان إسلاميان.

أ ـ (١) ذكر من رواية ابن حميد عن ابن إسحاق: أن هاشم بن عبد مناف خطب سلمى بنت زيد بن عمرو من بني عدي بن النجار، فاشترط عليه أبوها ألا تلد ولداً إلا في أهلها، فبنى بها هاشم في أهلها بيثرب، فحملت منه، ثم ارتحل إلى مكة وحملها معه، فلما أثقلت ردها إلى أهلها، ومضى إلى الشام فمات بها بغزة، فولدت له سلمى عبد المطلب فمكث بيثرب سبع سنين أو ثماني سنين.

ثم إن رجلا من بني الحارث بن عبد مناة مرّ بيثرب، فإذا غلمان ينتضلون[1] فجعل شيبة (عبد المطلب) إذا خسق[2] قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الحارثي: من أنت؟ قال: أنا شيبة ابن هاشم بن عبد مناف.

فلما أتى الحارثي مكة قال للمطلب وهو جالس في الحجر: يا أبا الحارث، تعلم أني وجدت غلماناً ينتضلون بيثرب، وفيهم غلام إذا خسق قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء؟ فقال المطلب: والله لا أرجع إلى أهلي حتى آتي به، فقال له الحارثي: هذه ناقتي بالفناء فاركبها، فجلس المطلب عليها، فورد يثرب عشاء حتى أتى بني النجار، فإذا غلمان يضربون كرة بين ظهري مجلس، فعرف ابن أخيه فقال للقوم: أهذا ابن هاشم؟ قالوا: نعم، هذا ابن أخيك، فإن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم أمه، فإنها إن علمت لم تدعه، وحلنا بينك وبينه، فدعاه، فقال: يا ابن أخي أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، وأناخ راحلته، فما كذب أن جلس على عجز الناقة فانطلق به ولم تعلم به أمُّه حتى كان

---

(١) انتضل القوم: تراموا للسبق.
(٢) خسق السهم: أصاب الهدف.

الليل، فقامت تدعو بحَرَبها[1] على ابنها، فأخبرت أن عمه ذهب به.

(٢) ثم ذكر أبو جعفر هذه القصة عينها من رواية علي بن حرب الموصلي فقال: تزوج هاشم بن عبد مناف امرأة من بني عدي بن النجار ذات شرف تشترط على من خطبها المقام بدار قومها، فتزوجت بهاشم فولدت له شيبة الحمد، فربا في أخواله مكرماً، فبينا هو يناضل فتيان الأنصار إذ أصاب خصلة[2] فقال: أنا ابن هاشم، وسمعه رجل مجتاز، فلما قدم مكة قال لعمه المطلب بن عبد مناف: قد مررت بدار بني قيلة، فرأيت فتى من صفته، ومن صفته، يناضل فتيانهم، فاعتزى إلى أخيك وما ينبغي ترك مثله في الغربة، فرحل المطلب حتى ورد المدينة فأراده على الرحلة، فقال: ذاك إلى الوالدة، فلم يزل بها حتى أذنت له، وأقبل به قد أردفه.

والاختلاف بين روايتي هذه القصة الواحدة في مقدماتها ونتائجها مما لا يحتاج إلى تنبيه فوق ما في حديث القصة في روايتها الثانية من بعض كلمات لم تكن قد عرفت يومئذ، مما يجعل الحديث أو شيئاً منه في مقام الظنة والاتهام بالتوليد.

ب ـ (١) ذكر أبو جعفر في حديث سقيفة بني ساعدة، وبيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أن سعد بن عبادة لما حُمل إلى داره بعد امتناعه عن بيعة أبي بكر تُرك أياماً، ثم بُعث إليه أنْ أقبِل فبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك؛ فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل

---

(١) في الأساس: وقد حرب ماله، أي سلبه، وفي الحديث: المحروب من حرب دينه، وحريته فحرب حرباً، ومنه واويلاه، وواحرباه؛ وفي القاموس: ولما مات حرب بن أمية قالوا: واحربا ثم ثقلوا فقالوا: واحرباً، أو هي من حربه سلبه.

(٢) في القاموس: الخصلة إصابة القرطاس ـ الهدف ـ أو أن يقع السهم بلزق القرطاس كالخصل، وخصلتان في النضال تحسب مقرطسة؛ وفيه: أحرز خصله وأصاب خصله إذا غلب. وفي الأساس: وإذا وقع السهم بلزق القرطاس سموا ذلك خصلة، فإذا تراهنوا حسبوا خصلتين بقرطسة، وأحرز فلان خصله إذا غلب.

بيتي، ومن أطاعني من قومي، فلا أفعل؛ وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي، وأعلم ما حسابي.

فلما أُتِي أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تَدَعْه حتى يبايع، فقال له بشير بن سعد: إنه لجَّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس تركه بضارّكم، وإنما هو رجل واحد، فتركوه، وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه؛ فكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر.

(٢) ثم ذكر أبو جعفر عقيب الرواية المتقدمة من رواية الضحاك ابن خليفة: أنه لما قام حباب بن المنذر انتضى سيفه، وقال: أنا جذيلها المحكك[١]، وعذيقها المرجب، أنا أبو شبل في عرينة الأسد، يعزى إلى الأسد، فحامله عمر بن الخطاب فضرب يده، فندر السيف فأخذه، ثم وثب على سعد، ووثبوا على سعد، وتتابع القوم على البيعة، وبايع سعد.

(٣) ثم قال أبو جعفر من رواية مبشر بن جابر: إن سعد بن عبادة قال لأبي بكر: إنكم معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقومي أجبرتموني على البيعة، فقالوا: إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة، ولكنا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها، لئن نزعت يداً من جماعة، أو فرقت جماعة لنضربنَّ الذي فيه عيناك.

وتضارب هذه الروايات الثلاث في مقدماتها ونتائجها واضح مشهود، فالرواية الأولى تقول إن سعد بن عبادة رضي الله عنه لجَّ وأبى أن يبايع لأبي بكر رضي الله عنه، وفارق جماعة المسلمين في صلاته وحجه وجمعته

(١) الجذيل: تصغير الجذل، وهو أصل الشجرة، والمحكك: عود ينصب في مبارك الإبل لتحتك به الجربى منها؛ والعذيق: تصغير العذق، وهو النخلة، والمرجب: الذي جعل له رجبة أي دعامة تبنى حوله لتسنده. والغرض من الكلام أنه صاحب رأي يكشف المعضلات فيشتفى به كما تشتفي الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل، وأنه راسخ موطد.

حتى هلك ابو بكر الصديق؛ وهذا هو المتعالم المشهور في التاريخ. بيدَ أن الرواية الثانية تقول إن سعداً رحمه الله تعالى بايع لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن بيعته كانت بيعة رضا وتسليم وقبول بعد التأبي والامتناع؛ وكذلك الرواية الثالثة توافق الرواية الثانية في أن سعداً لم يفارق جماعة المسلمين في شيء مما ذكر في الرواية الأولى، وأنه بايع لأبي بكر، وتختلف مع الرواية الثانية في أن سعداً أخبر أنه أكره على البيعة فلم يُقَل منها.

ج - (١) ذكر أبو جعفر في حديث السقيفة أيضاً من رواية حبيب ابن أبي ثابت قال: كان عليّ في بيته إذْ أُتِي فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه.

(٢) وذكر أبو جعفر من رواية أبي صالح الضراري في حديث طويل: أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ فقال لهما: أما إني سمعت رسول الله يقول: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال» وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته، فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت فدفنها عليّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر، وكان لعليّ وجه من الناس حياة فاطمة، فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن عليّ، فمكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله ﷺ ثم توفيت. قال معمر: قال رجل للزهري: أفلم يبايعه عليّ ستة أشهر؟ قال: لا، ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه عليّ.

وهاتان الروايتان بينهما أشد الاختلاف، فالرواية الأولى تقول: إن عليا رضي الله عنه عجل إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه حتى إنه لم يتلبث إذْ قيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، ليأخذ عليه إزاره أو رداءه، بل ذهب مسرعاً في قميص بغير إزار ولا رداء، كراهية أن يبطىء عن البيعة لحظات من الزمن بقدر ما يجمل نفسه بسابغ ثيابه، وإنه بايع أبا بكر في

السابقين إلى البيعة الأولين، وإنه جلس إلى الصديق ولزم مجلسه، وهذا غريب جداً في التاريخ.

والرواية الثانية تقول إن عليا رضي الله عنه تأبّى عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه وامتنع منها ستة أشهر، وهي حياة زوجه فاطمة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ وتابعه في ذلك جميع بني هاشم، وهذا هو المشهور المعروف.

ذلك شأن روايات التاريخ في كتاب واحد، فما بالنا بها إذا نظرنا إليها في كتب مختلفة عن طريق رواة مختلفين؟ هي بلا شك حينئذ أبعد مدى في الاختلاف، وأدخل في باب التضارب والاضطراب، وهذا مثل من أمثلة هذا النوع، وقد اخترناه من حوادث الدولة العباسية من كتابين دونا في ظلها وتقاربا في زمنهما.

د ـ (١) ذكر الطبري: أن هارون الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد يوم الخميس في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، وسماه الأمين، وضم إليه الشام والعراق سنة خمس وسبعين ومائة، ثم بايع لعبدالله المأمون في سنة ثلاث وثمانين ومائة وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق.

وفيه رواية أخرى تقول: إن البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين كانت سنة خمس وسبعين ومائة وله يومئذ خمس سنين، وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة عقد الرشيد لابنه عبد الله المأمون البيعة على أن يكون بعد محمد الأمين.

ثم قال الطبري: وحج هارون، ومحمد، وعبد الله معه، وقوّاده، ووزراؤه، وقضاته، في سنة ست وثمانين ومائة، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما: أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله المأمون من الأعمال، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله المأمون على محمد الأمين وعليهم.

ثم ذكر أبو جعفر نص الكتابين، ومما جاء في أولها «هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز أمره طائعاً غير مكره: إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضا مني وتسليم طائعاً غير مكره إلخ».

(٢) جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب إلى ابن قتيبة: «لما دخلت سنة أربع وتسعين ومائة اشتد ألم الرشيد، وتمادى به وجعه، فذكر البيعة لابنه المأمون؛ فلما سمعت بذلك زبيدة - وكان ابنها منه محمد الأمين - هجرته وتغاضت عنه... ثم دخلت عليه تعاتبه في ذلك أشد المعاتبة؛ فقال لها الرشيد: ويحك! إنما هي أمة محمد ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقاً بعنقي، وقد عرفت ما بين ابني وابنك؛ ليس ابنك أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعاية. قالت: ابني والله خير من ابنك، وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فهيه، أسخى من ابنك نفساً وأشجع قلباً؛ فقال هارون: ويحك إن ابنك قد زينه في عينيك ما يزين الولد في عين الأبوين؛ فاتق الله، فوالله إن ابنك لأحب إليّ إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً وبها مستحقاً، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم وننقلب إليه بإثمهم». ثم ذكر ابن قتيبة قصة تضمنت أن الرشيد أجرى لولديه امتحاناً ليكشف به عن فرق ما بينهما في الجدارة لولاية العهد من بعده، ففاز في ذلك الامتحان المأمون فوزاً اعترفت به أم الأمين؛ فقال هارون: فإذْ أقررت بالحق فأنا أعهد إلى ابني، ثم إلى ابنك بعده. فكتب عهد عبد الله المأمون ثم محمد الأمين بعده... فلما توفي الرشيد لظّ[1] بمحمد الأمين قوم من شرار أهل العراق فقيل له: معك الأموال والرجال والقصور فادفع في نحر أخيك المأمون فإنك أحق بهذا الأمر منه» الخ.

---

(١) في القاموس: اللظ: كاللظاظ: اللزوم والالحاح.

وأنت إذا أعرضت عن الاختلاف في روايات الطبري في عدة مواضع من هذا الحديث ـ رأيت البون البعيد بين ما ذكره أبو جعفر، وما ذكره صاحب الإمامة والسياسة في عدة مواضع أيضاً ننبه على أهمها: فروايات أبي جعفر كلها تدور حول تأكيد أن ولاية العهد من بعد الرشيد كانت لابنه محمد الأمين، ثم من بعد الأمين لعبد الله المأمون، فالأمين مقدم بلا شك عند الطبري، وأن الذي هاج ما بين الأخوين نكثُ الأمين عهد أبيه في ولاية عهد المأمون من بعده، وعزمه على البيعة لابنه موسى؛ وهذا هو المشهور في كتب التاريخ. ورواية صاحب الإمامة والسياسة تؤكد أن ولاية العهد من بعد الرشيد كانت لعبد الله المأمون. ثم من بعده لأخيه محمد الأمين، فالمأمون مقدم فيها بلا شك، وأن الذي عصف بما كان بين الأخوين من تراض وأثار بينهما الحروب دفعُ محمد الأمين في نحر المأمون ليغتصب منه حقه في الخلافة قبله بتسليط قوم من شرار أهل العراق؛ وهذا غريب جداً لا يعرفه المشهور من التاريخ، ويزيد في غرابته ـ إذا صحت نسبة الإمامة والسياسة لابن قتيبة ـ أن هذا الإمام أقدم زمناً من ابن جرير، واقرب عهداً إلى تلك الحوادث التي يتحدث عنها، وانفرد فيها بهذا الذي قال.

والعجيب في أمر هذه الروايات المتضاربة أن كل واحدة منها يرويها راويها جازماً بها جزماً لا يترك ظلا من الشك في صدقها.

ذلك التضارب العجيب في روايات التاريخ كان له أكبر الأثر في غموض التاريخ، ولا سيما تاريخ المشكلات الشائكة والانقلابات العاصفة، فقد غابت في طواياها الحقائق، وطمست معالمها، فشق على الطالبين الوصول إليها. ولا نظن أن كتاباً من كتب التاريخ القديمة القائمة على الرواية والقصّ سلم من هذا العيب الذي لا ترضى عنه قداسة العلم وحرمة الحق.

قداسة العهد الأول من تاريخ الإسلام

ومما ساعد على غموض التاريخ في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام،

أنها مرحلة أضفت عليها الحياة لوناً من القداسة جعل الباحثين يتهيبون النقد الصريح لشخصياتها، ويحذرون البحث في تحقيق حوادثها وبيان أسبابها وعللها؛ لأنها تتناول في أكثر جوانبها سيرة رجال لهم من شرف الصحبة لرسول الله ﷺ، والجهاد بأنفسهم وأموالهم، وإقامة بناء الإسلام، وفتح البلاد، ونشر لواء العدل بين الناس وتبليغ القرآن إلى الأسود والأحمر، وتأسيس الدولة الإسلامية، وبيان أحكام الشريعة، لهم من ذلك وغيره من المفاخر الخالدة، والمناقب الباقية ما يعصمهم في نظر المسلم التقيّ، عصمة إجلال واحترام، من النقد الصريح؛ فالمسلم المخلص يتمثل هذه المناقب الخوالد فلا يرضى له تقاه أن يُذكر إلى جانبها ما يشوّه جمالها البديع، ولعله إن رضي شيئاً من ذلك استجابة لداعي العلم، وأداء لحق البحث الحر - خشي أن يتذرع بذلك من لم يرج لله وقاراً فيهجم - في غير سمت العلماء، وأدب رواد الحقائق - على التاريخ وفيه السقيم من الروايات ولقاح الأهواء ما فيه، فيتشبث ببعض تلك الروايات الباطلة، والآراء الملقحة بالشهوات الفكرية والاعتقادية، ويتخذ منها مذهباً ينشره على الناس، كأنه حقيقة من الحقائق، فتتناقله الأقلام وينحدر إلى أودية الأفكار، وكثير منها خليّ، وكثير مدخول عميّ.

ومن ثم أوصد بعض علمائنا باب البحث فيما وقع في هذه المرحلة رحمة بالناس أن تزل بهم قدم الشبهات، أو ينفلت من يدهم معيار التقدير للحوادث وبواعثها، والأشخاص ومقاصدها؛ فلقنوا تلاميذهم، وأخذوا عليهم أن يلقنوا تلاميذهم جيلاً بعد جيل هذا المبدأ: * وأول التشاجر الذي ورد * تمكيناً لحسن الظن بأولئك الأسلاف الذين بنوا أضخم بناء فأحسنوا تشييده، ووطدوا تأسيسه، فعجز الخلائف عن حراسة هذا البناء العظيم بأعمالهم، ولم تبق لهم إلا ألسنة لو أطلقت من عُقلها بغير رقابة لقالت في السابقين الأولين.

ليقل الباحثون المعاصرون ممن يتعلقون بقداسة الفكر، وحرية الرأي ما يقولون في هذا المبدأ المسالم، فهكذا كان، وهكذا ساد عصور التاريخ الإسلامي واكتسب في أنفس عامة المسلمين قداسة لا تقل قدراً عن قداسة

حرية الرأي عند هؤلاء الباحثين.

ولئن كان هذا المبدأ مجافياً لحرية البحث فإن فيه سلامة الدين، وطهارة الباطن من دنس العصبيــة الحمقاء، وحبس ألسنـة الجهلة عن الخوض في سيَر الأبرار، حتى يكون في قلوب أنصار القداسة الفكريـة وحرية الرأي إيمان يحجزهم عن التقول للهوى، وحتى يكون لعقولهم غذاء من العلم المصفَّى يسمو بهم عن آفاق التقليد؛ عندئذ يقول أصحاب ذاك المبدأ من علمائنا: مرحى للنقد النزيه مصوغاً في نمط أهل الأدب من الباحثين، وليس أحد ـ حاشا النبيين ـ بمعصوم.

* * *

عوامل الانقلاب العثماني

تنوعت عوامل هذا الانقلاب العاصف بحسب زمنها وطبيعتها فكان منها القديم الذي يصعد إلى جاهلية الآباء والأجداد، ومنها الحديث الذي هيأته الدوافع القائمة بين الأقران والأنداد، ومنها ما كان في طبيعته منتزعاً من حوافز البيئة، ومسوقاً بسوط العصبية الموروثة، ومنها ما كان مصبوغاً بصبغة الدين والحمية له والغَيرة عليه.

ولا يستطيع باحث أن يغفل عاملا من هذه العوامل، فلا يحمل عليه نصيبه من نتائج ذلك الانقلاب الخطير، فعثمان بن عفان رضي الله عنه هو رجل بني أمية في الإسلام، والإسلام سما ببني هاشم إلى أعلى ذروة المجد، لأنهم عترة رسول الله ﷺ التي خرج منها، وبيضته التي تفقأت عنـه، ورسول الله ﷺ سيـد الخلق، انقطعت الأطمـاع دون سؤدده، وتبعثرت الأحلام والأماني دون شرف بيته، فلا سبيل إلى لحاق بني هاشم في شرف الإسلام المستمد من إشراق رسول الله ﷺ من أفقهم، وطلوعه شمساً لهداية العالمين في سمائهم.

وقد كان هاشم وعبد شمس ابنا عبد مناف كركبتي البعير في شرف النبعة ومجـد الأرومة، وكـان عبد شـمس أسنّ من هاشـم أو توأمه

فتنازعا شرف الفَعال، وتجاذبا رداء المكارم، ووقع بينهما ما يقع بين المتنافسين في جاهلية كان من أخص خصائصها تظالم ذوي القربى، وتعادي الإخوة والأتراب، فورث هذا الأبناءُ عن الآباء، وتلقاه الأحفادُ عن الأجداد، وقد تمثل في صور متعددة، وحوادث مختلفة، بعضها كان في الجاهلية، وبعضها كان في الإسلام، وقد أمكن قصاصَ التاريخ أن يجدوا بين قصصه تعليلاً روائياً لاستمرار هذا التنافس العدائي بين بيتي هاشم وعبد شمس، في قصة تقول: إن عبد شمس وهاشمًا كانا توأمين، وإن أحدهما وُلد قبل صاحبه وإصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحيت عنها فسال من ذلك دم، فتُطيِّر من ذلك، فقيل يكون بينهما دماء.

ومهما يكن من أمر هذه القصة فقد تموجت عن طريقها كلمةُ الدماء في آذان بني الأعمام، وتمثلت أمام أنظارهم صور العداوة والبغضاء، وكان تفسير هذه الأحلام التي تراءت للأخوين في منام الطفولة عداوة حمراء في يقظة الفتاء واستواء الرجولية، وأعظم مظاهرها التغالب على دويّ الصيت، وحسن الأحدوثة والتنافس في صنائع المعروف، وتقليد المنن أعناق الرجال. ولكنها على كل حال انتهت إلى ما اشتهر بين البيتين من تنافس في الجاهلية والإسلام.

بيد أن الرواية التاريخية تقول إن الذي انتهض لمنافسة هاشم هو ابن أخيه أمية بن عبد شمس لا أخوه وتوأمه عبد شمس، ولا حرج في عرف الجاهلية أن يقوم الابن مقام الأب في مغالبة أقران أبيه، وقد يسوق إلى ذلك الاغترار والبأو[1] فيدفع الرجل ابنه لمغالبة لِدَة أبيه، وقد تكون هذه النزعة أصيلة عند أمية بالنسبة لعمه هاشم، ويكون عبد شمس خليّاً عنها.

* * *

بين هاشم وأمية

وكيفما كان الحال فالرواية تعصب الأمر بأمية بن عبد شمس، روى

(١) البأو: رفع النفس فخراً.

الطبي: «أن قريشاً أصابتهم لزبة[1] وقحط، فرحل هاشم إلى فِلسطين، فاشترى منها الدقيق، فقدم به مكة، فأمر به فخبز له، ونحر جزوراً، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز، فمدحه ابن أخيه وهب بن عبد قصي ابن عبد مناف بقوله:

تحمل هاشم ما ضاق عنه وأعيا أن يقوم به ابن بيض[2]
أتاهم بالغرائر متأقات[3] من أرض الشام بالبر النقيض
فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات[4] من الشيزى[5] وحائرها يفيض

فحسد أمية بن عبد شمس عمه هاشمًا، وكان أمية ذا مال، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمِت به ناس من قريش، فغضب أمية ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، ولم تَدَعْه قريش، وأحفظوه، فقال: إني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق، تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي بذلك أمية، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، فنفَّر هاشما عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية».

بين عبد المطلب بن هاشم ونوفل بن عبد مناف

وهذه رواية أخرى تمثل صورة فيها أسس العداوة بين بني هاشم وعبد شمس. روي أن نوفل بن عبد مناف ـ وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ـ عرض لعبد المطلب بن هاشم في رُكْح[6] له فاغتصبه إياه، فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه، فسألهم النصرة على عمه، فقالوا:

---

(١) يقال: لزب الأمر لزوباً اشتد، واللزوبة: الشدة.
(٢) في القاموس: «ابن بيض: تاجر مكثر من عاد».
(٣) متأقات: مليئات، من قولهم: تئق السقاء يتأق فهو تئق: امتلأ.
(٤) يقال: روضة مكللة: محفوفة بالنور.
(٥) الشيزي كالشيز: خشب أسود تصنع من القصاع، أو هو الأبنوس.
(٦) الركح بالضم والسكون: ركن الجبل وناحيته، وساحة الدار.

لسنا بداخلين بينك وبين عمك، فلما رأى ذلك كتب إلى أخواله بيثرب ـ وكانت أمه سلمى بنت عمر من بني النجار ـ يستنصرهم فخرج لنصرته أبو سعد بن عُدَس النجاري في ثمانين راكباً حتى أتى الأبطح وبلغ عبد المطلب فخرج يتلقاه، فقال: المنزل يا خال، فقال: أما حتى ألقى نوفلا، فلا، قال: تركته جالساً في الحِجر في مشايخ قريش، فأقبل حتى وقف على رأسه، ثم استل سيفه، ثم قال: ورب هذه البَنِيَّة لتردَّن على ابن أختنا رُكْحه أو لأملأن منك السيف، قال: فإني ورب هذه البنية أرد ركحه، فأشهد عليه من حضر، فلما رأى ذلك نوفل حالف بني عبد شمس كلها على بني هاشم.

وكان إلى عبد المطلب بعد مهلك عمه المطلب بن عبد مناف ما كان إلى عمه من مراتب الشرف، فشرف في قومه وعظم فيهم خطره، فلم يكن يُعدل به أحد منهم، وقد دب ما كان بين هاشم وأمية من التغالب والعداوة إلى ولديهما عبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية فوقع بينهما ما كان قد وقع بين أبويهما.

بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أميّة

فقد روي أن عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية تنافرا إلى النجاشي الحبشي، فأبى أن ينفِّر بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزي، فقال نفيل لحرب بن أمية: يا أبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل منك صَفَدا[1]، وأطول منك مِزْودا[2]، فنفَّره عليه، فقال حرب: إن من انتكاث الزمان أن جعلناك حكمًا.

وإذا كان هذا هو شأن التغالب بين البيتين في الجاهلية، وهو واضح التسلسل في الوراثة والانتقال من الآباء إلى الأبناء، فإن مجيء الإسلام لم يخفف من غُلوائه ولم يكبح من جماحه؛ بل زاده في أول عهده فورة

---

(١) الصفد: العطاء.

(٢) مزود ـ كمنبر ـ: اللسان.

وغليانا، والسيرة النبوية وتاريخ الدعوة المحمدية مليئان بالشواهد المتواترة على أن قيادة مناهضة الدعوة الإسلامية إنما كانت في يد بني أمية، وأنهم هم الذين ألبَّوا قبائل قريش على معاداة بني هاشم ومقاطعتهم وإيذاء كل من ينضوي تحت لواء محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ ويستجيب لدعوته.

والذي يمعن النظر في الأشخاص الذين اشتدوا في مقاومة الدعوة الإسلامية أول أمرها، وفي مظاهر تلك المقاومة يعلم أثر المنافسة القَبَلِية في ذلك، ويدرك أثر بني أمية في توجيهها، وأظهر شاهد على ذلك قصة معاهدة قريش بمقاطعة بني هاشم، ثم القيام في نقض تلك المعاهدة، فقد ذكر الرواة أن قريشاً لما لم تجد من أبي طالب ما يوافق هواها في شأن النبي ﷺ اجتمعت فأتمرت أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا يَنكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم؛ فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لهذا الأمر على أنفسهم، فلما علمت بذلك بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلى أبي طالب الذي مالأ قريشاً على قومه، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا.

فأنت ترى أن القطيعة كانت من سائر قريش لبني هاشم وبني المطلب، وهما منذ الجاهلية شيء واحد، فلما أراد جماعة من أشراف قريش القيام في نقض هذه المعاهدة الجائرة لم يدفعهم إلى ذلك إلا نُعَرة قَبَلية وحمية نسبية.

قال الطبري: «ثم قام في نقض الصحيفة نفر من قريش؛ وكان أحسنهم بلاء فيه هشام بن عمرو بن الحارث العامري من عامر بن لؤي، وكان ابن أخي نضْلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وأنه مشى إلى زهير ابن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يبايعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون، ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله: لو كانوا

أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً.

قال زهير: ويحك يا هشام؛ فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال هشام: قد وجدت رَجلا، قال: فمن هو؟ قال: أنا؛ فقال زهير: ابغنا ثالثاً، فذهب هشام إلى المُطْعِم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سريعاً، قال مطعم: ويحك: فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً ،فذهب هشام إلى أبي البَخْتريّ بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال أبو البختري: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً، فذهب إلى زَمْعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له زمعة: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال هشام: نعم، ثم سمى له القوم، فاتعدوا له خَطْم الحجون[1] التي بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.

قال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أولكم يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية، عليه حُلة له، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، إنا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبايعون، ولا يبتاع منهم، والله لا

(١) الحجون: جبل بمعلاة مكة، والخطم: منقار الطائر، ومن الدابة مقدم الأنف والفم، واستعماله في مقدم الجبل مجاز معروف، والتأنيث في وصف الجبل ذهاباً إلى الأكمة لصغره.

أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حين كتبت، قال أبو البختريّ: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو ابن الحارث نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، وقام المطعم ابن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا ما كان من باسمك اللهم».

فالذين قاموا في نقض معاهدة قريش بقطيعة بني هاشم ليس فيهم أموي قط كما هو ظاهر من أسمائهم وأنسابهم، والذي حرك جميع هؤلاء إنما هو النعرة القبلية، والحمية الجاهلية كما يتضح من كلام هشام ابن عمرو، لزهير بن أبي أمية، ومطعم بن عدي، وأبي البختري، وزمعة، حتى استجابوا له بدافع العصبية، فبلغوا الذي أرادوا بصنع الله تعالى تكريماً لرسوله ﷺ.

ولما تجاوزت الدعوة الإسلامية مكة بلد قريش، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة مرتفعاً بدعوته عن هذا الحيز الضيق الذي كان يسيطر على مدارك قريش في مكة ـ ثابت قريش إلى بعض عقلها، وعلمت أن الأمر أقوى وأعظم مما تصورته في تنافس قبَلي بين الهاشميين والأمويين، فتجهزت لحرب النبي ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، وجمَّعت عليه من حالفها من القبائل والأحابيش وذؤبان العرب؛ وكان زعيمهم وقائد جموعهم أبا سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الذي انتقل إليه بالوراثة زمام السيادة الأموية، فأصبح بعد أبيه رئيسَ بني أمية، وصاحبَ رأيهم، وقائل كلمتهم، فقاد هو وبنو عمومته من العبشميين الناس في جميع الوقائع التي كانت قبل فتح مكة وإرغام قريش كلها على الدخول في دين الله بهذا الفتح المبين.

لم يكن الإسلام ليحفِل بما كانت تحفِل به الجاهلية من المفاخر القبلية، ولم يكن ليقيم وزناً لشرف البيوتات إذا لم يقارنه شرف السبق إلى الإسلام، ومفخرة الهجرة إلى دار الانتصار، فكان هؤلاء الذين تأخروا في دخول الإسلام حتى فتحت مكة آخر طبقات المسلمين فضلاً وشرفاً في الإسلام، وقُدِّم عليهم قومٌ كانوا دونهم في شرف البيوتات ومناقب الجاهلية، ووسدت إلى ذوي الرأي منهم مقاليد الحكم في الأمة، فرضي قوم وسخط آخرون، وكان الإسلام قاهراً مستعلياً، فلم يعبأ بسخط الساخطين الذين طووا أنفسهم على مستكنة تحينوا بها النُهَز، فلما رأوها حانت بقيام عثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة وهو رجل بني أمية، في الرعيل الأول من سادة المسلمين، لسبقه إلى الإسلام والهجرتين، ومؤاساته المسلمين بنفسه وماله، وكان ذا ثراء عريض ساعده على أنبل المواقف في الإسلام، وزاد في نبله إصهاره إلى رسول الله ﷺ، فعصبت به بنو أمية أمرها في الإسلام، وارتفعت رؤوسهم وعلت أصواتهم؛ وحكموا وسادوا، وغضب أقرانهم في شرف الأرومة الذين يرون لهم فضلاً عليهم في إسلامهم، وعادت المغالبة فيما بينهم إلى عهدها الأول.

* * *

حدثاء العهد بالإسلام

وقد دخلت إلى رواق الحياة الإسلامية في هذه المرحلة شخصيات لم تستضىء ساحات قلوبها بأنوار النبوة، ولم تستكمل حضانتها الإسلامية في ظل اليقين، وزاحمت بمناكبها أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أقصتهم عن مكانهم، وباعدتهم من أمرهم، وقبضت على أزمَّة كثير من مرافق الحياة في الأمة، وقضت في كثير من قضاياها، وتقدمت وتأخر أهل السبق في الإسلام، فكان لهذه الشخصيات الدخيلة أثر عظيم في هذا التحول الذي اتجه إليه التاريخ الإسلامي بعد الفتنة العثمانية. قال الأستاذ الإمام محمد عبده في رسالته التوحيدية: «كان الأمر على ذلك ـ اجتماع كلمة المسلمين ـ إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث، وأفضى إلى قتله. هوى

بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآن قائمًا على صراطه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وفتح على الناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي، وأشعر الأمرُ قُلوبَ العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون».

* * *

نشوء المذاهب والفرق

وكانت هذه المرحلة معقدة ملتوية لأنها ـ وهي لا تزال تزخر بأعلام الصحابة وتلاميذ النبي ﷺ الذين رباهم بأدبه العالي وهذبهم بروحه السامي، وصقل نفوسهم بنور الهداية ـ كانت مباءة لبدء ظهور الفرق والمذاهب التي مزقت وحدة المسلمين، وبددت شملهم، وجعلت القرآن بينهم عضين، تلجأ إليه كل فرقة وفي يدها سلاح التأويل ولو أدى إلى التحريف لتجعل منه سنداً لمذهبها وحجة على منتحلها ولو كان أشبه في سخفه بأساطير الأولين، وأدخل في الوهم إلى أعمق الأباطيل.

* * *

الشيعة وعبد الله بن سبأ اليهودي

ففي ظل هذه المرحلة ترعرع مذهب الشيعة وهو مذهب قام مستنداً على دعامتين:

الدعامة الأولى ـ موقف بني هاشم من الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، واعتقادهم أنهم أحق بها ممن صارت إليه، وأنهم غُصبوا حقهم فيها. وبقي هذا الأمل في أنفسهم لا يريمها، ولكنه كان يخف ويسلس حيناً، ويعنف ويشتد حيناً آخر، وقد مرّ عليه عهد خلافة أبي بكر

الصديق، وعهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما هادئاً راضياً مرضياً، ولعل ذلك ـ كما يقع في الخاطر ـ كان لسببين:

الأول: ما كانت عليه سياسة الأمة في هذين العهدين من شمول العدل والرحمة، وإشعار الرعية الحزم، إلى ما كان من قرب العهد بالنبي ﷺ، وإجماع الناس على عرفان حق آل البيت من المحبة والإيثار والتعظيم.

الثاني: أن الخلافة في هذين العهدين إنما كانت إلى رجلين يستمدان عظمتهما من الإسلام ومواقفهما في أيامه، ولم يكن بيتاهما من قريش حيث كان بيتا هاشم وأمية منها في الجاهلية، فلم تثر في عهدهما نُعَرة، ولا تحركت عصبية، ولم يطمع في عهدهما أحد من أهل بيتهما في مجد قَبَلي أو شرف بيتي، ولم يستطع أحد من أقربائهما ـ بله البعداء ـ أن يستغل إمامتيهما لجلب نفع خاص، فاستقامت بهما ولهما الأمور، ومشيا في طريق سوي ورضي الناس عنهما وعن أيامهما، فكان ذلك مما كفكف من غرب النزعة الهاشمية في ولاية الأمر، وسكَّن الأمل في أنفسهم إلى حين، وهذه الدعامة تمتزج عناصرها من أسباب إسلامية، وأخرى وراثية ولكنها متماسكة متساندة.

الدعامة الثانية ـ هي غصن من شجرة الدعامة الأولى، عنها تفرعت، ومنها استمدت، بيد أنها لُوِّنت بلون فارقت به أصلها، ونزعت إلى ماء لم يكن ماءَ فحلها، واستقت من جدول ليس من يَنْبوعها، وانحدرت إلى أفئدة تكذب في صدقها وتصدق في كذبها، وانزلقت إلى ألسنة طرفها في منبتها، ومنبتها نافقاء اليرابيع تدخل فلا يدري أين ذهبت، وتخرج فلا يعلم من أين جاءت، نفاق ماكر، ومكر منافق، تظهر الحب للآل من بيت النبوة، وتضمر الكيد لأهل الإسلام، وتعلن الوفاء للإمام، وتبطن الغدر بالإسلام، اتخذت من التشيع ستاراً لهدم هذا الدين المتين، فكايدته مكايدة ماكرة خبيثة، وتربصت به الدوائر حتى إذا لمعت لها

بارقة الخلاف بين المسلمين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه هبَّت واثبة إلى مكان القيادة تسوق الناس بعصا الفتنة العمياء، وتهمزهم إذا فتروا بمهمز المكر والدهاء، والتشيع الخالص المخلص من نزعها براء.

كان رأس هذا اللون المُعْتِم من التشيع ذلك الرجل اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وكان من يهود اليمن، انتحل الإسلام لأغراض كان يسترها، وقد كشفت عنها دعوته المارقة؛ يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام: «وقد ذكروا أن أول من دعا إلى تأليه عليّ عبد الله بن سبأ اليهودي وكان ذلك في حياة عليّ، وهو الذي حرك أبا ذرّ للدعوة الاشتراكية، وهو الذي كان من أكبر من ألَّب الأمصار على عثمان، والذي يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام، وألَّف جمعية سرية لبث تعاليمه، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته».

ويقول المقريزي في الخِطط: «وكان ابتداء التشيع في الإسلام أن رجلاً من اليهود في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أسلم فقيل له عبد الله بن سبأ، وعرف بابن السوداء، وصار يتنقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين، يريد إضلالهم، فلم يطق ذلك؛ فرجع إلى كيد الإسلام وأهله، ونزل البصرة في سنة ثلاث وثلاثين، فجعل يطرح على أهلها المسائل ولا يصرح؛ فأقبل عليه جماعة، ومالوا إليه وأعجبوا بقوله؛ فبلغ ذلك عبد الله بن عامر، وهو يومئذ على البصرة، فأرسل إليه، فلما حضر عنده سأله: ما أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب، رغبت في الإسلام ورغبت في جوارك؛ فقال: ما شيء بلغني عنك؟ اخرج عني؛ فخرج حتى نزل الكوفة، فأخرج منها، فسار إلى مصر، واستقر بها، وقال في الناس: العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع، وتحدث في الرجعة حتى قبلت منه؛ فقال بعد ذلك: إن لكل نبي وصياً، وعليّ بن أبي طالب وصي محمد ﷺ، فمن أظلم ممن لم يُجِز وصية رسول الله ﷺ في أن عليّ بن أبي طالب وصيه في الخلافة على أمته؟ واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر، وابدأوا بالطعن

على أمرائكم، فاظهروا الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر تستميلوا بـه الناس.

وبث دعاته، وكاتب من مال إليه من أهل الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم؛ وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها في عيب ولاتهم؛ فيكتب أهل كل مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملأوا بذلك الأرض إذاعة؛ وجاء إلى أهل المدينة من جميع الأمصار؛ فأتوا عثمان رضي الله عنه في سنة خمس وثلاثين؛ وأعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم؛ فبعث محمدَ بن مَسلمة إلى الكوفة؛ وأسامة بن زيد إلى البصرة؛ وعمارَ بن ياسر إلى مصر؛ وعبد الله بن عمر إلى الشام، لكشف سير العمال؛ فرجعوا إلى عثمان إلا عمار بن ياسر، وقالوا: ما أنكرنا شيئاً، وتأخر عمار، فورد الخبر إلى المدينـة بأنـه قد استماله عبد الله بن سبأ في جماعة.

ولم يكتف عبد الله بن سبأ بما أحدث من فتنة عاصفة، زلزلت عرش الخلافة وعصفت بأمن المسلمين وهدوئهم، وردتهم عن سمتهم، وفـرقتهم شيعاً وأحـزاباً، وأخـذت بهم في طريق شـديد الالتـواء كثير التعاريج، بل أعلن بمقالات وآراء منكرة مستخبثة؛ وانتحل مذهباً شنيعاً بشعاً، يهدم أصول الإسلام هدماً، وصار بهذا رأسَ طائفة، وزعيم فرقة من غلاة الروافض وكفار المتشيعين.

قال الشَّهْرَسْتاني في الملل والنحل: «السبائية أتباع عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي عليه السلام: أنت أنت، يعني الإله، فنفاه إلى المدائن، ومنه انشعبت أصناف الغلاة» وقال المقريزي في الخِطط: «وحدث في زمن الصحابة رضي الله عنهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والغلو فيه، فلما بلغه ذلك أنكره، وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه، وأنشد:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أججت ناري ودعوت قَنْبرا

وقام في زمانه رضي الله عنه عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن

السوداء السبائي، وأحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بالإمارة من بعده، فهو وصي رسـول الله ﷺ وخليفته عـلى أمته من بعـده بالنص وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً، وزعم أن علياً لم يقتل، وأنه حي، وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، ثم ذكر المقريزي أن ابن سبأ كان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه.

* * *

الخـوارج

وفي أعطاف هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي حبا مذهب الخوارج من مهده حتى نما، واشتد في عهد علي كرم الله وجهه. والخوارج فرقة تمتد جذورها إلى عهد النبي ﷺ ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: «بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذُهَيْبة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المُجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نَبْهان، وعَلقمة بن عُلاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا؟ قال: «إنما أتألفهم» فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتىء الجبين، كث اللحية، محلوق؛ فقال: إتق الله يا محمد؛ فقال: «من يطع[1] الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض؛ فلا تأمنوني؟» فسأله رجل قتْله، أحسبه خالد بن الوليد، فمنعـه، فلـما ولي قال: إن مـن ضِئْضِىء[2] هذا، أو في عقب هذا قـوم يقرؤون القـرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الـدين مروق السهم من الـرميَّة يقتلون أهـل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

وقد جاءت تسمية هذا الرجل الجافي ووصفه بأتم من ذلك في

(١) هكذا وقعت هذه الرواية في الصحيحين.
(٢) الضئضىء: الأصل والنسل.

حديث ذكره مجد الدين بن عبد السلام في كتابه «المنتقى»[١] عن أبي سعيد الخدري قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ، وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، قال: يارسول الله، أعدل فقال: ويلك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟ خبتُ وخسرتُ إذا لم أكن أعدل» فقال عمر: يا رسول الله أتأذن لي فأضرب عنقه؟ فقال: دعه: فإن له أصحاباً يحقِر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، يُنظر إلى نصله[٢] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافه[٣] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه ـ وهو قدحه[٤] ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذه[٥] فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسودْ، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعة تَدَرْدَر[٦] يخرجون على حين فرقة من الناس» قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس حتى نظرت إليه، فرأيته على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته.

فهذه الجفوة في مخاطبة النبي ﷺ إذا دلت على شيء، فإنما تدل على نفاق مُؤَثَّل أو جهالة موبقة؛ وقد اتفق العلماء والرواة على أن هذا الرجل الذي لم يقدُر النبي ﷺ حق قدره هو رأس الخوارج الذين وصفوا في الحديث بأنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرميَّة، وهم الذين كانوا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شيعة وخُلْصاناً، فغدوا له أعداء شر أعداء.

---

(١) ورواه البخاري، ومسلم بألفاظ مقاربة.

(٢) النصل: حديدة السهم والسيف.

(٣) الرصاف ـ بكسر الراء: عصب يشد على أصل النصل.

(٤) النضي: القدح، وهو السهم قبل أن ينصل ويريش.

(٥) القذذ جمع قذة: ريش السهم.

(٦) تدردر: تضطرب والحديث من بارع التمثيل، لأن المقصود تبيين خروجهم من الدين، لم يعلق بقلوبهم منه شيء.

ومن متقدميهم الذي اشتركوا في إشعال نار الفتنة العثمانية «ابن الكَوّاء» وهو من رؤوسهم، خرج على عثمان بن عفان رضي الله عنه في جماعة من أهل الكوفة، يوم أن كانت أحمسية في علويتها، وهو الذي حرك شيعة الكوفة وألَّبهم على عثمان، فسيَّرهم أمير الكوفة يومئذ سعيد ابن العاص بعد ما برِم بهم إلى معاوية بالشام؛ وفيهم مالك بن الحارث الأشتر النَخعي، وكميل بن زيد، وصعصعة بن صُوحان، وابن ذي الحبَكة، وعمير بن ضابىء البُرْجمُي، فأشجَوا معاوية، وأشجاهم وجرت له معهم مقاولات وجدل حتى ضاق بهم ذرعاً، وهو الحليم الأريب.

وكان ابن الكوّاء من أعلم الناس بأهل الأهواء والأحداث في أقطار الإسلام فقال له معاوية: أخبرني عن أهل الأحداث من أهل الأمصار، فإنك أعقل أصحابك، قال ابن الكواء: كاتبتهم وكاتبوني وعرفتهم وأنكروني: فأما أهل الأحداث من أهل المدينة فهم أحرص الناس على الشر وأعجزهم عنه، وأما أهل الأحداث من أهل الكوفة فإنهم أنظر الناس لصغير، وأركبهم لكبير، وأما أهل الأحداث من أهل البصرة فإنهم يردون جميعاً ويصدرون شتى، وأما أهل الأحداث من أهل مصر فهم أوفى الناس بشر، وأسرعهم ندامة، وأما أهل الأحداث من أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم.

ومما يؤيد أن هؤلاء الخوارج كانوا من نافخي كير الفتنة ومشعلي نارها في عهد عثمان رضي الله عنه قبل أن يعلنوا الخروج على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ما ذكره الشهرستاني في كتاب الملل والنحل حيث قال: «اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه جماعة ممن كانوا معه في حرب صِفِّين؛ وأشدهم خروجاً عليه الأشعث بن قيس، ومسعود بن فدكي التميمي، وزيد بن حصن الطائي حين قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف، حتى قال لهم: أنا أعلم بما في كتاب الله، انفروا إلى بقية الأحزاب، انفروا إلى من يقول: كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون: صدق

الله ورسوله، قالوا: لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان».

فهذا كلام صريح واضح فيما كان لهم من عظيم الخطر في الفتنة العثمانية، وأنهم كانوا ممن تولوا كبرها وذكّوا نارها وأنهم غمسوا أيديهم في دمائها: وهم يرون التبري من عثمان رضي الله عنه أصلاً لمذهبهم؛ فلما أعلن لهم علي رضي الله عنه، وأعلنوا له، وكشف كلاهما عن ناجذ الشر لصاحبه، أضافوا علياً إلى عثمان في التبري منهما ويقدمون ذلك - كما يقول الشَّهْرَسْتاني - على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك.

والخوارج من أقوى الفرق التي نبتت في ديار الإسلام شكيمة، وأقساها قلوباً، وأغلظها أكباداً وأصلبها عوداً، وأنطقها لساناً، وأعجبها تعبداً، وأغربها أعمالاً، وأسرعها تهمة لغيرها، وأضيقها ذرعاً بأخوانها، حتى لقي المسلمون منها شراً مستطيراً، وبلاءً عاصفاً، وبحسبك ما كان لهم أول أمرهم مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ثم ما كان لهم بعد زياد وابنه عبدالله، ومع آل المهلب بن أبي صُفرة في خلافة الوليد ابن عبد الملك، وولاية الحجاج على العراق. روي أن عروة بن أُديّة - وكان مقدماً فيهم - أُتي به إلى زياد بن أبي سفيان، فسأله عن الخلفاء فتولى أبا بكر وعمر وأثنى عليهما، ووقع في عثمان وعلي، وسبّ معاوية سباً قبيحاً، ثم سأله زياد عن نفسه، فقال: أوّلك لزنْية، وآخرك لدعوة، وأنت فيما بينهما بعدُ عاص لربك، فأمر زياد فضربتْ عنقه، ثم دعا مولاه، وقال له: صف لي أمره وأصدق، فقال: أُطنب أم أختصر؟ فقال: بل اختصر، فقال: ما أتيته بطعام في نهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط. قال الشهرستاني تعليقاً على ما ساقه من هذا الحديث: هذه معاملته واجتهاده، وذلك خبثه واعتقاده.

وفي الكامل لأبي العباس المبرّد عند الحديث عن الخوارج: ومنهم الذي طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله وهو يقول: «وعجلت إليك ربِّ لترضى». وقصة لعينهم عبد الرحمن بن مُلْجَم، ورباطة جأشه

ساعة قتله من أعجب العجب! فقد روي أن الحسن بن علي أحمى له ميلين وكحله بهما فجعل يقـول: ـ إنك يا ابن أخي لتكحل عمـك بُملْمُولـين مضّاضين، ثم قطع يديه ورجليه وهو في ذلك يذكر الله عز وجل، ثم عمَد إلى لسانه فشق ذلك عليه، فقيل له: لم تجزع من قطع يديك ورجليك ونراك قد جزِعت من قطع لسانك؟ فقال: أحببت ألا يزال فمي بذكر الله رطباً. وكان منهم من عرض عليه ابنه ليفُلّ من حدّه حنانُ الأبوة فقال: أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوقَ مني إلى ابني. وكان عبيد الله بن زياد ـ وكانوا شَجاً في ولايته كما كانوا رزءاً على أبيه من قبل ـ يقول: لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع.

قال أبو العباس المبرد: وذكروا أن عبد الملك بن مروان أُتي برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء فهمًا وعلمًا ـ ثم بحثه فرأى ما شاء إرَبا ودَهْيا، فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء، فقال له لِتغنِك الأولى عن الثانية، وقد قلتَ فسمعتُ، فاسمع أقل، قال له: قل، فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق، وألفاظ بينة ومعان قريبة، فقال عبد الملك بعد ذلك ـ على معرفته ـ لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم؛ ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق، فقلت له: لله الآخرة والدنيا، وقد سلطني الله في الدنيا ومكن لي فيها، وأراك لست بالقول، والله لأقتلنك إن لم تطع، قال عبد الملك فأنا في ذلك إذ دُخل عليَّ بابني مروان باكياً لضرب المؤدب إياه؛ فشق ذلك على عبد الملك فأقبل عليه الخارجي فقال له: دعه يبك فإنه أرحب لشدقه وأصح لدماغه وأذهب لصوته وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه، فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قولـه عبد الملك: فقـال له متعجباً: أما يشغلك ما أنت فيه وبعَرضه عن هذا؟ فقال: ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شـيء، فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله، وقال بعد معتذراً إليه: لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك. ثم قال عبدالملك: من شككني ووهَّمني حتى مالت بي عصمة الله

فغير بعيد أن يستهوي من بعدي. قال المبرِّد: وكان عبدالملك من الرأي والعلم بموضوع.

ومذهب الخوارج في الحكومة أشد ما عرف في معنى الديمقراطية تطرفاً وميلاً إلى الإشتراكية، فهم لا يعترفون بنظام ولاية العهد، ولا بوراثة المُلك ولا بأن يكون الحاكم من بيت معين أو طائفة خاصة، وإنما المدار عندهم على إقامة العدل بين الناس أيّاً ما كان الأمر. وقد جوَّزوا ـ كما حكى عنهم الشهرستاني ـ أن تكون الإمامة في غير قريش، وكلٌّ من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل، واجتناب الجور كان إماماً؛ ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه، فإن غيَّر السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله؛ وجوَّزوا ألا يكون في العالم إمام البتة، وإن احتيج إليه جاز أن يكون عبداً أو حراً أو نَبَطياً أو قرشياً.

وهذا الرأي في الحكومة والحاكم عندهم هو محور حياتهم السياسية الثائرة، ومصدر خروجهم على أئمة الهدى، وكل ما يذكر لهم من بدع وآراء من قضايا الدين والتعبد والاعتقاد فإنما هو متفرع عن هذا الأصل وسند له، إلى جانب ما شهر عنهم في حياتهم العملية من المبالغة في التقشف والزهادة ـ ولا سيما رؤساؤهم ـ وقلة الاكتراث بجمع المال، ومؤاساة بعضهم لبعض، وشيوع روح الثورة بينهم، حتى أصبحت الثورة على الدولة أخص خصائصهم، وأبين مميزاتهم، والثورة ربيبة الإشتراكية المتطرفة وحليفة التطرف في الديمقراطية، وفي التاريخ شواهد ومُثُل لا يأخذها العدّ.

* * *

إشتراكية أبي ذر الغفاري:

وفي ظل هذه المرحلة في تاريخ الإسلام شب نوع من الإشتراكية في المال، نادى به أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، صاحب رسول الله ﷺ، فكان أُثْفِيّة من الأثافي التي ارتفع عليها مرجل الفتنة العثمانية. وأبو ذر

رضي الله عنه من أخلص الناس سريرة وأصفاهم طوية وأصدقهم لهجة، وهو في الرعيل الأول من خاصة أصحاب رسول الله ﷺ، وقد ملكته عاطفة الرحمة بإخوانه المؤمنين، وكان يقيم وقتئذ بالشام حيث مظاهر الترف وغضارة العيش، يرتع فيها فريق من الناس، بينما يتجرع كأس البؤس والحرمان فريق آخر هو جمهرة المسلمين، وقد رأى هذا المال الذي أترف به قوم ليست لهم فضيلة السبق إلى الإسلام، أو منقبة الهجرة، أو مفخرة الجهاد أيام أزمات الدين وشدائد الدعوة يُحتجز دون فقراء المؤمنين وكثير منهم من السابقين الأولين، وهم يتضورون فاقة وسغبا، فما كان منه إلا أن فهم في آية من كتاب الله تعالى فهمًا كان فيه صادق العقيدة، قوي الإيمان، يصدر في دعوته عن يقين وإخلاص.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال: «مررت بالرَّبَذَة، فإذا أنا بأبي ذر، فقلت: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، وكان بيني وبينه في ذلك؛ فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان: أن اقدم، فقدمتها فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت».

وذكر في بعض الروايات التاريخية أن معاوية أراد أن يمتحن إخلاص أبي ذر في اشتراكيته التي يدعو إليها، فأرسل إليه في جوف الليل بألف دينار، فلما أصبح استرجعها منه بحجة قالها، فعاد إليه رسوله يخبره أنه لم يجد عند أبي ذر شيئاً منها.

وكان وراء إخلاص أبي ذر وصفاء نيته، وحسن طويته تدبيرٌ يكيد للإسلام وأهله؛ يفتل منه في الذّروة والغارب جماعة السبائيين؛ ومن اليقين أن أبا ذر لم يكن يشعر بذلك التدبير الخبيث، وإلا سمع له المسلمون صيحة أخرى تتشقق لها مرائر المنافقين. روى الطبري: أن ابن السوداء لما

ورد الشام لقي أبا ذر، فقال له: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية؟ يقول: المال مال الله؛ ألا إن كل شيء لله؛ كأنه يريد أن يَحْتَجِنه[1] دون المسلمين، ويمحو إسم المسلمين؛ فأتاه أبو ذر، فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ فقال: يرحمك الله يا أبا ذر!؟ ألسنا عباد الله؟ والمالُ ماله؟ والخلقُ خلقه؟ والأمرُ أمره؟ قال: فلا تَقله، قال: فإني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً، فأتى عُبادة بن الصامت فتعلق به، فأتى به معاوية، فقال، هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

وقام أبو ذر بالشام، وجعل يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، فما زال حتى أُولِع الفقراء بمثل مقالته، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقَوْن من الناس؛ فكتب معاوية إلى عثمان إن أبا ذر قد أعضل[1] بي، وكان من أمره كيت وكيت؛ فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها[2] وعينيها، فلم يبق إلا أن تثب فلا تَنْكأ[3] القَرْح؛ وجَهِّزْ أبا ذر إليّ، وابعث معه دليلاً، وزوِّدْه، وارفُق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت، فإنما تُمسك ما استمسكتَ.

* * *

رأي في هذه الإشتراكية:

وقد عرض بعض أعلام الأئمة لمذهب أبي ذر في المال؛ ورأى من نظر منهم إلى ظاهر الأمر أنه من شدائده التي انفرد بها، فلا تقوم به حجة على

---

(١) احتجن المال: ضمه واحتواه.

(١) أعضل به: اشتد.

(٢) الخطم بالفتح: منقار الطائر، ومن الدابة مقدم أنفها وفمها، والمراد هنا مقدمات الفتنة، على حد قولهم: أقبل خطم الليل وأنفه.

(٣) نكأ القرح: قشره قبل أن يبرأ.

الناس، ومن أبعد النظر منهم فَهم اشتراكية أبي ذر على نحو يغاير تمام المغايرة ما يفهمه الفَوْضوِيّون من كلمة اشتراكية بطريق الإنعكاس الواحي لما في أنفسهم من تشبع بمبادىء الهدم والتطرف الإجتماعي؛ فإشتراكية أبي ذر رضي اللهعنه التي نادى بها يوم أن كان الإسلام في عنفوانه، وكان المسلمون هم أصحاب السلطان في الأرض، إنما هي اشتراكية برّ وإرفاق، وتعاطف ومؤاساة منتزعة من صميم الإسلام، لا تعين عاطلاً عن العمل كسلان على بطالته، ولا تقتل في الأفراد والجماعات روحَ التنافس والجد في العمل، ولا تعطي كسب عمرو لزيد إلا عن رضاء طيب نفس، ولكنها اشتراكية تقوي الضعيف وتعينه حتى ينهض فيعمل وتبر العاجز فلا يُهمَل وتداوي المريض حتى يصحَّ.

قال الإمام القرطبي في تفسيره: «قيل الكنز ما فضل عن الحاجة؛ روي عن أبي ذر، وهما مما نقل من مذهبه، وهو من شدائده، ومما انفرد به رضي الله عنه» ثم قال: «ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يُخْرَج كله، وليس في الأمة من يُلزِم هذا، وحسبك حالُ الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم، وأما ما ذكر عن أبي ذر فهو مذهب له رضي الله عنه، وقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من جمع ديناراً أو درهماً، أو تِبْراً، أو فضة، ولا يُعِدُّه لغريم، ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة» قلت: هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه أن يقول به، وأن ما فضل عن الحاجة فليس بكنز إذا كان مُعَداً لسبيل الله».

وقال القرطبي أيضاً: «ويحتمل أن يكون مَحْمَل ما روي عن أبي ذر في هذا ما روي أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين، وقِصَر يد رسول الله ﷺ عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يشبعهم وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم؛ فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز ادِّخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت؛ فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أوجب ﷺ في مائتي درهم خمسة

دراهم، وفي عشرين ديناراً نصف دينار، ولم يوجب الكل؛ واعتبر مدة الإستنماء، فكان ذلك منه بياناً ﷺ؛ وقيل الكنز ما لم تؤد منه الحقوق العارضة كفك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك».

فاشتراكية أبي ذر رضي الله عنه بمعناها الإسلامي تَحض على ضبط المال، والتنافس في جمعه بشرط أن يكون صاحبه معده لغريم بهظ كاهله بتبعاته حتى أقعده عن السعي والاجتهاد، أو معده للإنفاق في سبيل الله؛ وسبيلُ الله يتسع معناه باتساع فنون الحياة الإسلامية ومطالبها، فيدخل فيه تقوية الدفاع عن حوزة الوطن الإسلامي وحماية الأمة والذود عنها، ويدخل فيه إعداد المشافي لمداواة المرضى وإقامة دور العلم والإنفاق عليها لتعليم الجاهلين، وإغاثة الضعفاء وإطعام الجائعين، ويدخل فيه إعانة المتعطلين على الأعمال بفتح المصانع حتى لا يكونوا كلاًّ على الأمة وعالة على الدولة، فهو باب لا يترك مسلمًا ينام ملء جفنيه، وقد أُتخمت المصارفُ بذهبه وورقِه، وإخوانهُ المسلمون يئنون تحت نِير البؤس والحرمان.

وقد يُستروح[1] لهذا الرأي من الإشتراكية البارّة بما نقل عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فقد ذكر الطبري عن أبي وائل قال: قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فُضُول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء المهاجرين.

وهذا كله يدل على أن روح الإسلام تتسع إلى أعمق ما يمكن أن يتصور من المؤاسات والتعاطف، وأن من حق الإمام ـ إذا تبلد الأغنياء، وشحّوا على أمتهم ومنعوها أن تنال منهم برّاً وإحساناً ـ أن يأخذ من فضول أموالهم ما يرى فيه صلاحَ الأمة بإطعام جائعها وتعليم جاهلها، وتطبيب مرضاها، وإراشة مملقها، وإعداد قوَّتها الدفاعية والجهادية إعداداً تُرهب به عدوّها ويتناسب مع حالة عصرها.

فما أحوج المسلمين في هذا العصر الآزم إلى مثل هذه الإشتراكية

---

(١) استروح: وجد الراحة.

النبيلة يفهمها أثرياؤهم على هذا التصوير الرحيم وما أحوجهم إلى مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيستقبل من أمره في شأنهم ما استدبر، ويأخذ فضول أموال أغنيائهم فينفقها على صوالح الأمة ومصالحها؟.

ومهما يكن من أمر مذهب أبي ذر رضي الله عنه في الأموال، فقد تلقته شياطين الفتنة محتمين بما لصاحبه من مكانة في الدين، وجعلوه دعامة من دعائم ثورتهم النكراء على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكذلك عواصف الفتنة إذا هبّت فإنها لا تعقل ولا ترحم.

* * *

التغالب على الدنيا

وفي هذه المرحلة فتحت على المسلمين أبواب الدنيا وكنوزها فتغالبوا عليها وتنافسوها، وجمعوا الأموال، وابتنوا القصور، وغرسوا الحدائق وأكثروا من الإماء والعبيد، واتخذوا الضياع، وتأنقوا في معيشتهم؛ وهجر كثير منهم حياة الزهادة والتقشف التي كانت طابعهم على عهد رسول الله ﷺ، وألفت نفوسهم الدعة والرفه، والتقلب بين أحضان النعيم، والأموال فائضة، والأرزاق مواتية، والدنيا مقبلة، والأعمال قليلة، ولم تمض سنة من إمارة عثمان رضي الله عنه حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار، وانقطع إليهم الناس، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حجر عليهم الخروج في البُلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه، فبلغه، فقال: «ألا إني قد سننت الإسلام سَنّ البعير؛ يبدأ فيكون جَذَعاً، ثم ثِنِّيا، ثم رَبَاعياً، ثم سَدِيساً، ثم بازلاً[1]؛ ألا فهل ينتظر من البازل إلا النقصان، ألا فإن الإسلام قد بَزَلَ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله مَعُونات

---

(١) يقال سن إبله أحسن القيام عليها، وسن الأمر بينه. والجذع بالتحريك ما كان قبل الثني، والثني من الإبل ما دخل في السنة السادسة، والرباعي وزن الثماني ما ألقى رباعيته؛ وهو من ذي الخف ما كان في السنة السابقة، والسديس ما ألقى سنة بعد الرباعية وذلك في السنة الثامنة والبازل ما طلع نابه بدخوله في السنة التاسعة، والمراد تمثيل أطوار الإسلام في بدء أمره، ثم في فتائه، ثم بلوغه الغاية.

دون عبادة؛ ألا فأمَّا وابن الخطاب حيّ فلا؛ إني قائم دون شِعب الحَرّة آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها[1] أن يتهافتوا في النار».

فلما تولى عثمان رضي الله عنه وسع لهم فتوسَّعوا واتسعوا؛ وتنافسوا فتغالبوا وشب بين أصحاب رسول الله ﷺ جيل جديد لم يأخذ نفسه بأدب الإسلام في فهم قيمة الدنيا، وقيمة الحرص وطرائق إنفاقها في الوجوه التي أَذِن الله تعالى بالإنفاق فيها، فأدى ذلك بهؤلاء إلى التكالب والمكايدة، وقذف بهم في جحيم الفتنة فخاضوها مع الخائضين.

* * *

الكذب على رسول الله

وفي هذه الحالة من تاريخ الإسلام بدأت أكاذيب الفِرَق والأحزاب فيما يكيد به بعضها لبعض، حتى أخذت تلك الأكاذيب صورة الحِجَاج بأحاديث يتقوَّلها زعماء الفرق ورؤساء الأحزاب على سيدنا رسول الله ﷺ؛ وقد كثر من هذه الأكاذيب ما زعموه كان في حق الأئمة والخلفاء؛ وقالت كل شيعة فيمن شايعته وفي منافسيه عندها ما شاء لها الهوى؛ وتجاذب هذا النوعُ طرفي الإفراط والتفريط مدحاً وذماً، واختلافاً وتقولاً حتى غشَّى سِيَرَ هؤلاء الأجلاء بغشاء من الغموض حجب الحقائق عن كثير من الناظرين.

وليس بأقل خطراً من ذلك ما اقترفوه في جنب القرآن الكريم من تأويلات محرِّفة لآيات الله تعالى عن مواضعها؛ ومن هنا وهناك تألفت سلسلة الموضوعات والخرافات والأساطير التي ابتلى بها المسلمون، وانتشرت بينهم التلبيسات الملتوية والشبه الغامضة، فشوَّهت جمال الشريعة المطهرة، وحُشيَ بها كثير من كتب المؤلفين المتقدمين والمتأخرين، حتى أصبحت وبالاً على الدين، وشراً على المسلمين وحائلاً دون نهضتهم وتقدمهم، وسلاحاً في أيدي خصوم الإسلام، وعائقاً عن الوصول إلى كثير من الحقائق التاريخية والعلمية والدينية، ولولا توفيق الله تعالى، رحمة بهذه

(١) الحُجز: جمع حجزة كغرفة وغرف، وهي معقد الأزار ومجمع شد السراويل.

الأمة، ورعاية لهذا الدين الكريم، لطائفة من أئمة المسلمين المصطفين الأخيار، انتهضوا لنقد الأسانيد، وتنقيح الروايات، وبهرجة الزائف منها، وحظر الرواية على كل صاحب بدعة في الإسلام - لما بقيت للإسلام صورته النيِّرة التي جاء بها القرآن الحكيم، وأداها رسول الله ﷺ إلى أصحابه نقية صافية.

* * *

تفرق المسلمين

ومن هذه المرحلة كان تفرق المسلمين إلى شيع وأحزاب وطوائف تفرقاً لم يجتمعوا بعده إلى يومهم هذا؛ وقد صوَّر لهم هذا التفرقُ أسباباً صنعها من عناصره ليطغي بها على عقولهم حتى لا تبصر النور والهدى؛ وصار لكل فرقة نحلة وعقيدة، ولكل طائفة مذهب واجتهاد، ولكل بلد من بلاد الإسلام مسلك في الحكم والسياسة، فتشعبت على المصلحين طرق الإصلاح.

والنظر في تاريخ الفرق والأحزاب في الإسلام يكفي لتصوير مدى التفرق الذي مُنِي به المسلمون مما يدمي الفؤاد ويذيب الأكباد؛ والنظرُ في تاريخ الأمة من الوجهة السياسية وتفرقها في القديم والحديث إلى دويلات كقطع «الشطرنج» في أيدي الغالبين المتسلطين، يطلعنا على مكمن الداء في جسمها مما يقطع نياط القلوب أسى وحسرة على وَحْدة الأمة الإسلامية التي كانت مصدر قوتها وسعادتها!

أمة تركها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليس في الأرض سلطان فوق سلطانها، تنعم بما أفاء الله عليها من تراث الأمم، وتسير في سبيل الدعوة إلى الحق والفتح سيراً حثيثاً، وهي في رغد من العيش ومأمَن من الظلم والاستبداد، يسوسها بعد ابن الخطاب إمامُها البَرُّ الرحيم، وخليفتُها الراشدُ الكريم «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، فيصيح بها صائح الفتنة ليقفها عن سيرها؛ ثم يقذف بها في خِضَم من التنازع

والتخاصم، لم تخرج منه إلا وهي ممزقة الأوصال متفرقة إلى شيع متباينة وأحزاب مختلفة، وقد تبدلت قوّتُها ضعفاً، ورخاؤها شدة، وعزها ذلاً، وحريتها عبودية، وإخاؤها تباغضاً، وباءت ساحة ملكها العظيم مباءة لأخطر انقلاب عرفه تاريخ الإسلام.

* * *

وبعد: فإن مرحلة ذلك شأنها، من العسير على باحث يقصد إلى رسم صورة لرجل من رجالات الإسلام أحاط بسيرته كثير من الغموض ـ أن يرتقب منه قارئوه صورة مفصلة للحوادث والأحداث جامعة للآراء والروايات، لأن هذا مكان المؤرخ العام الذي يتسع له المجال للرواية والتفصيل.

بيد أني ـ وأنا بصدد عرض صورة لحياة أمير المؤمنين ذي النورين «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وكان هو قطبَ الحوادث في هذه المرحلة، وقد قدمت بين يديها هذا التمهيد ليكون مناراً لتوجيه البحث ـ حاولت أن أجلوَ أبرز الأحداث التي كان لها أثر في حياته حتى تجيء الصورة في عناصرها وخصائصها حاكية لشخصيته أو مقاربة. والله المستعان.

الفصل الأول

نشأة عثمان - إسلامه - إصهاره إلى رسول الله وهجرته إلى الحبشة وتخليفه عن غزوة بدر - بعض خلائقه - سخاؤه وإنفاقه في سبيل الله - شخصية عثمان - مكانته في قريش - عثمان أول سفير في الإسلام - عثمان وبيعة الرضوان - مكانة عثمان في الإسلام - عثمان في خلافة الصديق - عثمان في خلافة عمر بن الخطاب.

نشأة عثمان

ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه بالطائف في السنة السادسة من عام الفيل؛ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين. والطائف التي ولد فيها عثمان، هي روضة الحجاز، وبستان مكة، عُرفت قديماً بجودة هوائها، وكثرة مائها، وتوافر فاكهتها؛ وقد اتخذها أهل الثراء منتجعهم ومُرادهم.

فهل كان لطبيعة الطائف الظليلة الفَيْنانة، وغضارتها ورقَّة هوائها، ولطف جوّها ورفه عيشها أثرٌ في حياة عثمان رضي الله عنه، وما عُرف عنه من لين العريكة، ووداعة الخليقة، ولطف الطبع، وسماحة النفس، وشدة الحياء ودماثة العشرة، وجمال البزّة؟ لِمَ لا؛ والبيئة لا ينكر أثرها في خَلْق الإنسان وخُلقه؟ ولنعتبر هذا فيما يظهر من فوارق في الأخلاق والشِّيَم، والعادات ومظاهر السلوك، وآداب الإجتماع، بين أهل البَدْو، وأهل الحضر؛ ولعل القرآن الكريم يلوّح إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ وفي السنة النبوية وآدابها ما يفسِّر إشارات الآية الكريمة.

وعثمان رضي الله عنه أموي عبشمي، والعبشميون أهل ثراء واسع، وأصحاب أموال منذ الجاهلية، وكان بيدهم بعض ما خوَّلهم بلدُهم الحرام من مقاليد الزعامة والسلطان على العرب؛ ومكة يومئذ ملتقى التجارات، ومحط رحال القوافل، غادية ورائحة، وكان عفان ابن أبي العاص بن أمية والد عثمان أحدَ أصحاب تلك التجارات الواسعة، وقد مات في إحدى خرجاته إلى الشام، وخلف لابنه عثمان مالاً نامياً، يَضْرب به في التجارة كما كان يصنع أبوه وأشرافُ قومه، فازدادت نعمة الله عنده، وكثر ماله، واتسع ثراؤه، فأحسن إلى قومه، وأغدق عليهم عطاءه، فأحبُّوه حباً ضربوا به المثل، حتى كانت المرأة من قريش ترقِّص ولدها وهي تقول:

أُحِبُّك والرحمن حب قريش عثمان

إسلامه

ولم يكد عثمان رضي الله عنه يبصر الهدى، ويسمع بقول الحق حتى انفلت من قريش وانخرط في سلك المؤمنين؛ وأصبح من دعائم الدعوة الإسلامية، وقد افتتح العقد الرابع من عُمره قبل أن يتخذ النبي ﷺ من دار الأرقم مثوىً لدعوته.

كان عثمان رضي الله عنه من أحكم قريش عقلاً وأفضلهم رأياً، وقد عرَف له ذلك أبو بكر رضي الله عنه يوم أن دعاه للإسلام فأقبل ولم يتلجلج، وهو في ذلك الوقت شاب مترف، يتقلب بين ألوان الغنى الواسع والثراء العريض، يعيش بين لِدَاته من شباب قريش عيشة المرموق المحبوب.

روى ابن حجر في الإصابة: «أن سُعْدى بنت كُرَيز خالة عثمان ـ وكانت تتكهن في الجاهلية ـ أخبرته بمبعث النبي ﷺ. قال عثمان: فوقع كلامُها من قلبي، فجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلس عند أبي بكر؛ فأصبته في مجلس ليس عنده أحد؛ فجلست إليه فرآني مُفكراً، فسألني عن

أمري وكان رجلاً متأنياً، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان!! إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل؛ ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صُمّ، لا تسمع ولا تبصر؟ قلت: بلى، إنها لكذلك؛ فقال والله لقد صَدَقْتك خالتُك؛ هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه لتسمع منه؟ قلت: بلى؛ فمر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب، فقام إليه أبو بكر؛ فسارَّه في أذنه بشيء؛ فأقبل عليٌّ رسول الله ﷺ، فقال: «يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه» فما تمالكت نفسي حين سمعت قوله أن أسلمت».

إصهاره إلى رسول الله وهجرته إلى الحبشة وتخليفه عن غزوة بدر

فرح المؤمنون بإسلام عثمان فرحاً شديداً، وتوثقت بينه وبينهم عُرا المحبة وأخوة الإيمان، وزادها توثيقاً أنه أصهر إلى رسول الله ﷺ، فتزوج ابنته رقية رضي الله عنها، وظهرت الدعوة الإسلامية، ووقفت لها قريش تصدها وتصد عنها بما تملك من قوة وبطش، فمدت يدها في عنف وغطرسة لإيذاء المؤمنين، واشتد حقدها على عثمان لمكانه بين رجالاتها؛ فاستأذن النبي ﷺ في أن يهاجر بزوجه بنت رسول الله إلى حيث يأمن على نفسه ودينه؛ فهاجر بها إلى الحبشة، وفي شأنهما يقول رسول الله ﷺ: «إنهما لأول من هاجر إلى الله عزّ وجل بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» ثم عاد من الحبشة مهاجراً إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إليها، وظهور الإسلام بقوة شوكة الأنصار.

ولما خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ مريضةً، فخلفه عليها لتمريضها، فماتت في مرضها ذلك؛ وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وعُد من البدريين باتفاق. وقد حزن عثمان أشد الحزن على زوجه لخشيته انقطاع صهره من رسول الله ﷺ، وقد عرض عليه عمر بن الخطاب يومئذ ابنته حفصة وكانت أيِّماً، فأبى واعتذر.

روى البخاري: «أن عمر بن الخطاب قال: لقيت عثمان فعرضتُ عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتُك بنت عمر؟ فقال: سأنظر في أمري؛ فلبثت ليالي، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا؛ قال عمر: فلقيت أبا بكر: فقلت إن شئت أنكحتك حفصةَ بنتَ عمر؟ فصمت أبو بكر، ولم يَرُد إليَّ شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان؛ فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه؛ فلقيني أبو بكر، فقال: لعلّك وَجَدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أَرْجع إليك؟ فقلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني سمعت رسول الله ﷺ قد ذكرها؛ فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها لقبلتها».

ويُروى أن عثمان رضي الله عنه لما اعتذر إلى عمر شكاه عُمر إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لعمر: «سيزوج الله ابنتك خيراً من عثمان ويزوج عثمان خيراً من ابنتك» فتزوج رسول الله حفصة، وزوج ابنته أم كلثوم من عثمان؛ وأخرج ابن عدي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما زَوج النبي ﷺ ابنته أم كلثوم لعثمان رضي الله عنه قال لها: « إن بعلك أشبهُ الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد» وعن سعيد بن المسيِّب قال: لما ماتت رقية جزع عثمان، وقال: يا رسول الله، انقطع صهري منك؛ فقال له النبي ﷺ: إن صهرك مني لا ينقطع، وقد أمرني جبريل أن أزوجك أختها بأمر الله، ولو كن يا عثمان عشراً لزوجتكهن واحدة بعد واحدة».

وهذه خصيصة لم تكن لغير عثمان من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أجلها كان يلقب بذي النورين؛ ذكر بدر الدين العيني في شرحه على صحيح البخاري: أنه قيل للمهلَّب بن أبي صُفرة: لِمَ قيل لعثمان «ذو النورين»؟ فقال: لأنا لا نعلم أحداً أرسل ستراً على بنتي نبي غيره.

بعض خلائقه

أشهر خلائق عثمان رضي الله عنه وأحلاها تلك الصفة النبيلة التي زينه الله بها، فكانت فيه منبع الخير والبركة، ومصدر العطف والرحمة؛ وهي خليقة الحياء، والحياءُ من الإيمان. ومن عجب أن هذه الصفة نفسها

يرد إليها بعض الناظرين بعضَ ما زُعِمَ على عثمان، وفيه يساق الحديث.

كان عثمان رضي الله عنه من أشد الناس حياء؛ فقد روي أنه كان يكون في البيت وحده والباب مغلق عليه فما يضع ثوبه عنه عند الغسل ليفيض الماء؛ ويمنعه الحياء أن يقيم صلبه. وقد عظَّم فيه رسول الله ﷺ هذه الخَلة، وأثنى عليه بها؛ روى مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين قالت: «كان رسول الله ﷺ مضجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه؛ فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ، وسوَّى ثيابه فدخل فتحدث؛ فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهْتَش له ولم تُبَالِه ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك؟ فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟».

وقد أوضحت رواية أخرى في صحيح مسلم أيضاً تعليل عمل النبي ﷺ حينما دخل عليه عثمان، فقد رَوَى عن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه، أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مِرْط[1] عائشة فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف؛ ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف. قال عثمان: ثم استأذنت عليه، فجلس وقال لعائشة؛ اجمعي عليك ثيابك فقضَيْتُ إليه حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، مالي لم أَرَك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حَيِّي. وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته».

وهذا تعليل حكيم يقرر حياء عثمان وبالِغَ أدبه مع رسول الله ﷺ أفضل تقرير. ولعل هذه القصة تكررت، لِمَا في ألفاظ رواياتها عند

(١) المرط: كساء من صوف أو خز، يؤتزر به، وتتلفع به المرأة.

الشيخين من الاختلاف؛ وكذلك لما في بعض الروايات من ذكر أحوال لم تذكر في سائرها.

وروى الطبراني أن النبي ﷺ قال: «أشد أمتي حياء عثمان بن عفان» وروى أبو نعيم أن رسول الله ﷺ قال: «عثمان أحيا أمتي وأكرمها». وروى ابن عساكر أن النبي ﷺ قال: «عثمان حَييٌّ تستحي منه الملائكة». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

سخاؤه وإنفاقه في سبيل الله

وكان عثمان رضي الله عنه أجود الأمة وأسخاها، وأعظمها في سبيل الله، وله في ذلك مآثر كانت ولا تزال غرة في جبين التاريخ الإسلامي، فمنها أنه جهَّز جيش العسرة في غزوة تبوك، وكان مؤلفاً من نحو ثلاثين ألف جندي؛ روى البخاري في صحيحه أن عثمان رضي الله عنه حيث حوصر أشرف عليهم وقال: أَنشُدكم[1] ـ ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ـ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر رُومَةَ فله الجنة فحفرتها؟ ألستم تعلمون أنه قال: من جَهَّز جيش العسرة فله الجنة فجهزتهم؟ قال فصدقوه بما قال. وزاد النسائي في روايته «فجهزتهم حتى لم يفقدوا عِقالاً ولا خِطاماً». وفي رواية الإمام أحمد: أن عثمان جاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ حين جهّز جيش العُسْرة، فقال النبي ﷺ: «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم» وقال الكرماني: جهّز عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً، وجاء إلى النبي ﷺ بألف دينار.

ولم يقف سخاء عثمان وجوده في سبيل الله عند هذا الحد في هذه الغزوة التي كانت تمحيصاً للإيمان، وامتحاناً للعزائم، فقد ورد أنه أصاب الناس فيها مجاعة فأوَوْا إلى كنف عثمان فوسعهم واشترى لهم طعاماً أشبع الجيش كله. ومن مآثر جوده أنه اشترى بئر رُومَة بعشرين ألف درهم،

(١) يقال: نشدت فلانا أنشده إذا قلت له: أنشدك الله أي أسألك بالله، كأنك ذكرته إياه.

وكانت رومة رَكِيَّة ليهودي يبيع ماءها للمسلمين: روى الترمذي عن ثُمامة ابن حَزْن القشَيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليها عثمان فقال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وليس بها ماء تُستعذب غير بئر رومة؛ فقال: «من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟» فاشتريتها من صُلب مالي؟ فقالوا: اللهم نعم؛ وروى البغوي أن المهاجرين لما قدموا المدينة استنكروا الماء؛ وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة؛ وكان يبيع القربة منها بمد؛ فقال له النبي ﷺ: «تبيعنيها بعين في الجنة؟» فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها، فبلغ ذلك عثمان رضي الله تعالى عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي ما جعلته له؟ قال: نعم، قال عثمان: قد جعلتها للمسلمين.

وعثمان رضي الله عنه أول من وسع مسجد رسول الله ﷺ اشترى مقدار خمس سَوارٍ إجابة لرغبة النبي ﷺ حين ضاق المسجد بأهله؛ جاء في رواية الترمذي: أن عثمان لما حوصر أشرف على الناس فقال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة» فاشتريتها من صلب مالي؛ وأنتم تمنعونني أن أصلي فيه ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم.

كان سخاء عثمان وجوده خليقة من خلائقه، لا يتعمَّل ولا يتكلف، ولا يستكثر في باب المروءة ومؤاساة الإخوان شيئاً، فقد روي أنه كان له على طلحة بن عبيد الله ـ وكان من أجواد الإسلام ـ خمسون ألفاً؛ فقال له طلحة يوماً: قد تهيَّأ مالك فاقبضه؛ فقال له عثمان: «هو لك معونة على مروءتك» وروي أن الناس في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أصابهم قحط؛ فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر، فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟ قال: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله ألا تُمسوا حتى يفرج الله عنكم؛ فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عِيراً لعثمان جاءت

من الشام وتصبح المدينة؛ فلما جاءت خرج الناس يتلقونها؛ فإذا هي ألف بعير موسوقة بُراً وزيتاً وزبيباً، فأناخت بباب عثمان رضي الله عنه فلما جعلها في داره جاءه التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد؛ بعنا من هذا الذي وصل إليك، تعلم ضرورة الناس، قال: حباً وكرامة، كم تربحوني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة؛ أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقه لله على المساكين وفقراء المسلمين.

فهل يفتح الله تعالى آذان عبَّاد المال، ومحتكري قوت العباد شحاً وجشعاً إلى صوت هذه العظمة العثمانية حتى تدلف إلى قلوبهم فتهزها هزة الأريحية والعطف وتوقظ فيها بواعث الرحمة والإحسان بالفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى وذوي الحاجات من أهل الفاقة والبؤس، الذين طحنتهم أزمة الحياة، واعتصرت دماءهم شراباً لذوي القلوب المستحجرة من الأثرياء؟ فما أحوج أمم الإسلام وأبناء الشرق في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحة من روح عثمان بن عفان رضي الله عنه تسري بينهم تعاطفاً ومؤاساة وبرّاً وإحساناً.

شخصية عثمان

كان **عثمان** رضي الله عنه أحد السابقين الأولين، ونفحة من نفحات الصديق الأمين؛ دعاه أبو بكر إلى الإسلام فاستجاب، فكان كما قال ابن إسحاق: أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر، وعليّ وزيد بن حارثة، وهو ثالث الخلفاء الراشدين؛ انعقدت له البيعة بإجماع المؤمنين، وهو صاحب الفتوحات الإسلامية الخالدة، وجامع الناس على المصحف الإمام، فرع سامق من دوحة قريش، يتلاقى في أصليه مع النبي ﷺ لقاء قريباً، يجمعهما في وشيجة العصبة عبدُ مناف، ويضمهما في عروة الرحم عبد

المطلب؛ أسلمت أمُّه بعده بقليل، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فهي من المهاجرين السابقين.

كانت شخصية عثمان رضي الله عنه أعظم مظهر للإنسانية النبيلة في أسمى جوانبها وأصفى خصائصها، فهي الرحمة مجسّمة، وهي الإخلاص بشراً سوياً، وهي الحب للخير في أعم نواحيه حيّاً ناطقاً؛ تلاءمت هذه الشخصية الكريمة بفطرتها الرحيمة مع روح الإسلام الجيّاشة بعواطف البر والرحمة، فتفتحت لها سُوَيداوات القلوب، وأحب الناسُ عثمانَ رضي الله عنه قبل الإسلام وبعده حباً لم يظفر به إلا آحاد الناس في فترات الزمن ومراحل التاريخ؛ وأحب عثمانُ الناس قبل الإسلام وبعده حباً لم يظفر به إلا أبر الأبناء بأرحم الآباء.

أسلم عثمان رضي الله عنه، وقد استوت رجوليته، واكتمل شبابه، وهو في معقد العزة من قومه؛ فعز على قريش عامة، والعبشميين خاصة أن ينحاز نبيلهم إلى هذه الدعوة الجديدة التي ثلت عرش وثنيتهم، وقوضت بنيان عُنْجُهيتهم، وعزّ عليهم بأشد مما كان أن يستجيب عثمان وهو من أمية في سنامها إلى نداء محمد بن عبد الله الهاشمي، ومضى عثمان في إيمانه قُدماً، قوياً هادئاً، وديعاً صابراً، عظيمًا راضياً، عفواً كريماً، محسناً رحيًما، سخياً باذلاً، يؤاسي المؤمنين، ويعين المستضعفين؛ حتى اشتدت قناة الإسلام، وعز جانبه بجنده من المهاجرين والأنصار، ووقف في وجه الشرك يَجْدَع أنفه؛ وكثر من المسلمين العَدَد، وتوافرت لديهم العُدَد؛ واتجهت قلوبهم إلى بلد الله وبيته الحرام، تهفو لزيارته بعد أن أُخرجوا منه كارهين، وتشتاق أن تطوف بالمسجد العتيق، أداء لحق حرمته، وقد نهكت قريشاً الحربُ فعساها أن تخلي بينهم وبينه.

مَكانة عثمان في قريش

أذَّن النبي ﷺ في الناس بالحج؛ وساق معه الهدي إيذاناً بأنه لا يقصد مكة غازياً؛ وإنما يريدها متعبداً؛ وترامت الأخبار إلى قريش، فجن جنونها، وقامت قيامتها، وانتهضت لمنع المسلمين من دخول مكة عليهم

عنوة، وسَفَرت الرسل بين رسول الله ﷺ وبينها، فلجّت قريش وعاندت، ولكن رسول الله ﷺ، وقد جاء عابداً لربه، سِلمًا لقومه لم يشأ أن يأخذ قريشاً بعنادها وبغيها عليه وعلى المسلمين، فرأى أن يرسل إليها أحد خاصة أصحابه ذوي المكانة عندها، علها تفهم عنه قصد المسلمين على حقيقته، وتخلي بينهم وبين بيت ربهم، يؤدون نسكهم، ثم يقفلون إلى مدينتهم وهنا تتجلى مكانة عثمان بن عفان رضي الله عنه في شرفه وعزته بين قومه، وفي نبله وجلال موضعه من إخوانه المؤمنين.

روى ابن هشام في السيرة قال: «دعا رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة؛ فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أَدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان؛ فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظمًا لحرمته.

عثمان أول سفير في الإسلام

انطلق عثمان رضي الله عنه سفيراً لرسول الله ﷺ إلى قومه من قريش، يحمل إليهم راية السلام، ويؤدي إليهم رسالة رسول الله ﷺ، وأرادت قريش أن تتملق عثمان، وغفلت أو تغافلت، بل جهلت أو تجاهلت، خصائص الإيمان الذي غرسه محمد رسول الله في قلوب أصحابه؛ وعلى شَباتها سالت أنفس فلذات أكبادها من قبل؛ فقالت لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف؛ فأجابها عثمان جواب المؤمن الراسخ إيمانه، الصادق في عقيدته، الذي لا يستفزه هذا الملق الرخيص، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ» وأبلغ أشراف قريش «أننا إنما جئنا لنزور البيت العتيق، ولنعظم حرمته، ولنؤدي فرض العبادة عنده؛ وقد جئنا بالهدي معنا، فإذا أتممنا نسكنا ونحرنا هدينا رجعنا بسلام».

فأبت قريش إلا البغي والعناد، واحتبست عثمان بمكة حتى طال لبثه بها على رسول الله والمسلمين، وترامى إليهم أن قريشاً غدرت بسفيرهم إليها؛ فقال النبي ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» وأخذ النبي ﷺ في مبايعة أصحابه، فتمت بيعة الرضوان من أجل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

عثمان وبيعة الرضوان

قال ابن عبد البر في كتاب الإستيعاب: «وأما تخلف عثمان عن بيعة الرضوان بالحُدَيبية، فلأن رسول الله ﷺ كان وجَّهه إلى مكة في أمر لا يقوم به غيره، من صلح قريش على أن يتركوا رسول الله ﷺ والعمرة، فلما أتاه الخبر الكاذب بأن عثمان قد قتل، جمع أصحابه فدعاهم إلى البيعة؛ فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ، وبايع رسول الله ﷺ عن عثمان بإحدى يديه الأخرى؛ ثم أتاه الخبر بأن عثمان لم يقتل، وما كان سبب بيعة الرضوان إلا ما بلغه ﷺ من قتل عثمان! وروينا عن ابن عمر أنه قال: «يد رسول الله ﷺ لعثمان خير من يد عثمان لنفسه».

وروى البخاريّ في صحيحه قال: «جاء رجل من أهل مصر، حَجَّ البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء، فحدثني عنه، قال: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيَّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال نعم؛ قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبَيِّنْ لك؛ أما فراره يوم أحد فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له؛ وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن لك أجْرَ رجل ممن شهد بدراً وسهمَه» وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه؛ فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى، هذه يد

عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك».

مكانة عثمان في الإسلام

كان عثمان رضي الله عنه ثالث ثلاثة في الإسلام كله، هم أفضل الناس وخيرهم بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم أعظم المؤمنين أعمالاً في تأييد الدعوة، ونشر الدين، وإقامة عمود الشريعة المطهرة، وتأسيس بنيان الدولة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله، وكانوا أخص الناس برسول الله ﷺ، وأقربهم إلى قلبه؛ كانوا وزراءه وأعوانه على تأدية رسالته، خلطهم بنفسه وصاهرهم، فكانت لهم الزلفى عنده؛ روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم».

وقد وضع عثمانَ هذا الموضع الرفيع في منازل الإسلام ومراتب رجالاته ما كان له من جلائل الأعمال وشريف المناقب وكريم الخلال، مما جعله حرياً بهذه المنزلة السامية في تقدير سادة الأمة وخيارها في حياة النبي ﷺ، وهو يرى هذا التقدير ويزكيه على عثمان رضي الله عنه وحَبْوه بما حبا به الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، من منزلة القرب والاختصاص تأكيداً لعقيدة المؤمنين ومحبتهم لذي النورين.

جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صعِد النبي ﷺ أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم؛ فقال: «أثْبُت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» وعند الترمذي أن عثمان يوم الدار أشرف على الناس فقال لهم: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثَبِير مكة ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض فركضه برجله، فقال: «اسكن ثبيرُ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان» قالوا: اللهم نعم، قال عثمان: الله أكبر، شهدوا ورب الكعبة أني شهيد ثلاثاً.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري «أنه توضأ في بيته ثم خرج، فقال: لألزمنَّ رسول الله ﷺ، ولأكونن معه يومي هذا فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج، وَجْهَ[1] ههنا فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس[2]، فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ، فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر أريس وتوسط قُفَّها[3]، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، فسلمت عليه ثم انصرفت، فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رِسْلك؛ ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن؟ فقال: إئذن له وبشره بالجنة، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة؛ فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ ودلَّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ، وكشف عن ساقيه؛ ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني، فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يريد أخاه ـ يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب، فقلت: على رسلك ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت: هذا عمر يستأذن؟ فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فجئت عمر فقلت: أذن ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القُف عن يساره، ودلَّى رجليه في البئر، ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يعني أخاه ـ يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان؛ فقلت: على رسلك وجئت النبي ﷺ، فأخبرته فقال: ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه! فجئت فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك، وفي رواية أخرى:

---

(١) المشهور في الرواية وجه بتشديد الجيم أي توجه «وضبطه بعض العلماء باسكان الجيم أي قصد هذه الجهة.

(٢) أريس ـ كأمير: ـ بستان بالمدينة قرب قباء، وفي هذه البئر سقط خاتم للنبي ﷺ من عثمان.

(٣) القف: حافة البئر.

فقال: اللهم صبراً، فدخل فوجد القف قد ملىء فجلس وجاههم من الشِّق الآخر».

وفي هذا الحديث معجزة عظمى لسيدنا رسول الله ﷺ بهذه الإشارة الحكيمة إلى ما كان سيقع لعثمان رضي الله عنه من البلاء العظيم؛ فقد حقق الله إخبار نبيِّه وقبل دعوة عثمان رضي الله عنه فرزقه صبراً لم يرزقه أحداً من أهل البلاء حاشا النبيين! قال الأُبِّي في شرحه لصحيح مسلم: هو تسليم لقضاء الله تعالى، ولعله الذي منعه من الدفع عن نفسه لإعلام رسول الله ﷺ أن ذلك سبق به القدر، وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام.

ومما يرشح ذلك ما رواه ابن عبد البر في الإستيعاب عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أدعوا لي بعض أصحابي؛ فقلت: أبو بكر؟ قال: لا، فقلت: ابن عمك عليّ؟ قال: لا، فقلت: عثمان؟ قال: نعم، فلما جاء قال لي بيده؛ فتنحيت، فجعل رسول الله ﷺ يسارّه ولَوْنُ عثمان يتغير، فلما كان يوم الدار وحصر قيل له: ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً وأنا صابر نفسي عليه».

عثمان في خلافة الصديق

كان عثمان رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق ثاني إثنين في الحظوة عند أبي بكر: عمر بن الخطاب للحَزَامة والشدائد، وعثمان ابن عفان للرفق والأناة، وكان عمر وزير الخلافة الصديقية، وكان عثمان أمينها العام، وناموسها الأعظم، وكاتبها الأكبر، وهو الذي كتب بيده عهد الخلافة إلى عمر بإملاء أبي بكر في مرضه؛ فكتب اسم عمر قبل أن يذكره له، فلما علم صنيع عثمان أقره وأثنى عليه، وشهد أنه أهل للخلافة.

روي أنَّ أبا بكر لما اشتد به مرضه استشار الناس فيمن يحبون أن يقوم بالأمر من بعده فأشاروا بعمر، ثم دعا أبو بكر بعثمان وقال له اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر

عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها. حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي...» وأخذته غشية فذُهب به قبل أن يسمي أحداً؛ فكتب عثمان «عمر بن الخطاب» ثم أفاق أبو بكر من غشيته، فقال: «إقرأ عليَّ ما كتبت» فقرأ عليه ذكر عمر، فكبَّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك، فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً، ثم أمره أن يتم الكتاب، فقال: «فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم أمره بختم الكتاب، وخرج به مختوماً؛ فقال عثمان للناس أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ قالوا: نعم.

عثمان في خلافة عمر

أما مكانة عثمان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فهي مكانة الوزير من الخليفة، وإن شئت فقل هي مكانة عمر من أبي بكر في خلافته، وقد صنع الله لأبي بكر بوزارة عمر لخلافته ما يصنعه لخير أهله، وصنع لعمر بوزارة عثمان لخلافته ما يصنعه لخير أهله؛ فقد كان أبو بكر أرحم الناس بالناس، وكان عمر أشدهم في الحق، فمزج الله رحمة الصديق بشدة عمر، فكانت منهما خلافة الصدق وسياسة العدل، وقوم الحزم. وكان عثمان رضي الله عنه أشبه بالصديق في رحمته، وكان عمر على سَنَنه في شدته، فلما تولى بعد أبي بكر جعل الله له في وزارة عثمان لخلافته عوضاً من رحمة الصديق ورفقه؛ فكان منهما تلك الأمثال المضروبة في أنظمة الحكم وسياسة الأمة أحكم سياسة وأعدلها.

وقد عرف الناس هذه المكانة لعثمان في الخلافة العمرية، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء يلوذون بعثمان لمكانه منه، وقد سجل التاريخ آثاراً خالدة لعثمان في خلافة عمر، فهو الذي أشار على عمر

بإحصاء الناس في سجلات ودواوين يرجع إليها في أرزاقهم وأعطياتهم؛ وذلك لما اتسعت الفتوحات وكثرت الأموال جمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ليستشيرهم في هذا المال؛ فقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصَوا حتى يُعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر فأقر عمر رأي عثمان، وانتهى بهم ذلك إلى تدوين الدواوين.

وعثمان رضي الله عنه هو الذي أشار على عمر بجعل السنة الهجرية تبدأ بالمحرم وذلك أنهم لما اتفقوا بعد مشاورات على جعل مبدأ التاريخ الإسلامي هجرة النبي ﷺ، لأنها فرقت بين الحق والباطل ـ تعددت الآراء في أي الأشهر يجعل مبدأ للسنة، فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور في العدة، وهو منصرف الناس من الحج؛ فرضي عمر ومن شهده من الصحابة رأي عثمان؛ واستقر عليه الأمر، وأصبح مبدأ تاريخ الإسلام.

الفصل الثاني

اختيار عمر بن الخطاب رهط الشورى ـ اجتماع الرهط للمشاورة ـ كلمة عبد الرحمن بن عوف ـ كلمة عثمان بن عفان ـ كلمة الزبير بن العوام ـ كلمة سعد بن أبي وقاص ـ كلمة علي بن أبي طالب ـ منهج عبد الرحمن بن عوف في إدارة الشورى ـ الاتفاق على بيعة عثمان بالخلافة ـ أول مظاهر الشورى المنظمة في الإسلام ـ منهج عمر بن الخطاب في اختيار الخليفة بعده ـ ميل الناس إلى عثمان ورغبتهم فيه ـ أول خطبة لعثمان في خلافته ـ بين عهدين.

اختيار عمر بن الخطاب رهط الشورى

عنون البخاري في الصحيح لبيعة عثمان رضي الله عنه بقوله: «باب قصة البيعة والإتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه» ثم ذكر بعد ذلك حديثاً طويلاً اشتمل على ذكر مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وعلى قصة بيعة عثمان بالخلافة على يد مجلس الشورى ألّفه عمر من ستة نفر هُمْ أحق الناس بهذا الأمر؛ ونحن نلخص من هذا الحديث، ومما يجري في شوطه ثقة وتحقيقاً ـ قصة الشورى، وطريقة بيعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة.

لما أحس المسلمون دُنُوَّ أجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قالوا له: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف؛ فقال: أتحمل أمركم حياً وميتاً؟ لَوَدَدْت أني أحظى منها بالكفاف، لا عليَّ ولا لي وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن أترككم فقد ترككم من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ؛ قال عبد الله بن عمر: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غيرُ مستخلف؛ ثم قال عمر: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء

الرَّهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان وطلحة وسعداً وعبد الرحمن والزبير، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شـيء، كهيئة التعزية له، وما أظن أن يَلي إلا أحدُ هذين الرجلين: عليّ وعثمان، فإن وَلِي عثمان فرجل فيه لين، وإن وَلِي عليّ ففيه دعابة، وأحْرِ به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، مُسدَّد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه؛ ثم قال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله عزّ وجل طالما أعزّ الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحِث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرَّهط في بيت حتى يختـاروا رجلاً منهم؛ وقـال لصهيب: صلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قَدِم؛ وأحضر عبد الله بن عمر ولا شـيء له من الأمر وقُم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدَخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رَجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسـيهما؛ فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم؛ فإن لم يرضَوا بحكم عبد الله بـن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس؛ ثم دعا لهم فقال: اللهم ألِّفهم وأجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم ووَلِّ أمر أمة محمد خيرهم.

اجتماع الرهط للمشاورة

لم يكد يفرغ الناس من دفن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقيل إنهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفهرية أخت الضحاك بن قيس؛ ليقضوا في أعظم قضية عرضت في

حياة المسلمين؛ وقد تكلم القوم وبسطوا آراءهم واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمة سواء رضيها الخاصة والكافة من المسلمين.

كلمة عبد الرحمن بن عوف

بدأ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الكلام فقال: «يا هؤلاء إن عندي رأياً وإن لكم نظراً؛ فاسمعوا تعلموا، وأجيبوا تفقهوا؛ فإن حَابياً خير من زاهق[1]؛ وإن جُرْعة من شَروب بارد أنْفع من عَذْب مُوب؛ أنتم أئمة يُهتدى بكم، وعلماء يُصْدَر إليكم فلا تَفُلّوا المُدَى بالاختلاف بينكم ولا تغْمدوا السيوف عن أعدائكم فَتُوتروا ثأركم وتُؤلِتوا[2] أعمالكم، لكل أجل كتاب، ولكل بيت إمام، بأمره يقومون وبنهيه يَرعُون[3] قلّدوا أمركم واحداً منكم تمشوا الهوينا؛ وتلحقوا الطلب؛ لولا فتنة عمياء، وضلالة حيراء، يقول أهلها ما يرون، وتحلهم الحَبَوْكَري[4] ما عدت نياتُكم معرفتَكم، ولا أعمالُكم نياتِكم، احذروا نصيحة الهوى ولسان الفرقة، فإن الحيلة في المنطق أبلغ من السيوف في الكَلْم؛ علّقوا أمركم رحب الذراع فيما حلَّ، مأمون الغيب فيما نزل؛ رضا منكم وكلكم رضا ومُقْتَرَعا منكم وكلكم منتهى؛ لا تطيعوا مفسداً ينتصح؛ ولا تخالفوا مرشداً ينتصر؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

---

(١) في الأساس: سهم حاب وهو الذي يزلج على الأرض ثم يصيب الهدف: وسهم زاهق جاوز الهدف ووقع خلفه. والمعنى أن **الضعيف** الذي يصيب الحق خير من القوي الذي يخطئه.

(٢) تؤلتوا أعمالكم: من آلته أياه نقصه كما في اللسان وهي رواية الطبري. وقال في اللسان: وفي حديث عبدالرحمن بن عوف يوم الشورى «ولا تغمدوا سيوفكم عن أعدائكم فتؤلتوا أعمالكم»

قال القتيبي: أي تنقصوها، يريد أنهم كانت لهم أعمال في الجهاد مع رسول الله فاذا هم تركوها وأغمدوا سيوفهم واختلفوا نقصوا أعمالهم.

(٣) يرعون: من ورع كورث إذا كف.

(٤) الحبوكري ـ بوزن تبعثري ـ: الداهية.

كلمة عثمان بن عفان

ثم تكلم عثمان فقال: «الحمد لله الذي جعل محمداً نبياً، وبعثه رسولاً، صدقه وعده، ووهب له نصره على كل من بَعُد نسباً أو قرب رحماً، ﷺ، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو هنا نور، ونحن بأمره نقوم عند تفرق الأهواء ومجادلة الأعداء؛ جعلنا الله بفضله أئمة وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منا، ولا يدخل علينا غيرنا إلا من سَفِه الحق ونكل عن القصد، وأحْرِ بها يا بن عوف أن تترك، وأجدر بها أن تكون إن خولف أمرك، وترك دعاؤك، فأنا أول مجيب لك، وداع إليك، وكفيل بما أقول زعيم، وأستغفر الله لي ولكم».

كلمة الزبير بن العوام:

«أما بعد فإن داعي الله لا يُجْهَل، ومجيبه لا يُخْذَل عند تفرق الأهواء، وليِّ الأعناق؛ ولن يقصِّر عما قلت إلا غوي، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقي، لولا حدود لله فرِضت، وفرائض لله حُدَّت، تُراح على أهلها، وتحيا لا تموت، لكان الموت من الإمارة نجاة، والفرار من الولاية عصمة؛ ولكن لله علينا إجابة الدعوة، وإظهار السنة، لئلا نموت ميتة عميّة، ولا نعمى عمى جاهلية، فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومعينك على ما أمرت، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله لي ولكم».

كلمة سعد بن أبي وقاص:

«الحمد لله بدياً كان، وآخراً يعود، أحمده لِما نجاني من الضلالة وبصَّرني من الغَواية. فبهدي الله فاز من نجا، وبرحمته أفلح من زكا، وبمحمد بن عبد الله ﷺ أنارت الطرق، واستقامت السبل وظهر كل حق، ومات كل باطل. إياكم أيها النفر وقول الزور، وأمنية أهل الغرور؛ فقد سلبت الأماني قوماً قبلكم، ورثوا ما ورثتم، ونالوا ما نلتم، فاتخذهم الله عدواً، ولعنهم لعناً كبيراً، قال الله عزّ وجل ﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوْا وَّكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن مُّنكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ إني نَكَبْت

قَرَني[1] فأخذت سهمي الفالج، وأخذت لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيت لنفسي فأنا به كفيل، وبما أعطيت عنه زعيم، والأمر إليك يا بن عوف بجهد النفس، وقصد النصح، وعلى الله قصد السبيل، وإليه الرجوع، وأستغفر الله لي ولكم، وأعوذ بالله من مخالفتكم».

كلمة علي بن أبي طالب

«الحمد الله الذي بعث محمداً منا نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طُلِب، لنا حق إن نعطَه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ولو طال السُرى، ولو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت. لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. اسمعوا كلامي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وسيِّقة لأهل الجهالة. ثم أنشأ يقول:

فإن تك جاسم هَلكت فإني ... بما فعلت بنو عبد بن ضخم
مطيع في الهواجر كل عَيِّ ... بصير بالنوى من كل نجم»

وإذا تأمل الباحث في هذه الكلمات وجدها تمثل في مجموعها الإشفاق على الأمة من الفرقة المبيرة، ثم هي تطالعنا صريحة بموقف الزبير وسعد رضي الله عنهما، وأنهما سلما عبد الرحمن بن عوف وجه الرأي، وزاد سعد ضمانة لموقف طلحة بمثل موقفه؛ أما كلمة عثمان رضي الله عنه فهي ـ وإن كانت قد نحت نحو التسليم لعبد الرحمن ـ لم تخرج عثمان من الأمر كما صنع سعد في حق نفسه وحق طلحة، وكما لمح الزبير؛ وأما كلمة عليٍّ كرم الله وجهه فهي كلمة متوجسة حذرة، وكأنما أحس ما سيكون فأنذر وحذّر، وصبر وصابر ولوح، وعرض بعد أن صرح.

(١) في الأساس: نكب كنانته نكسها وأخرج ما فيها؛ والقرن بفتحتين الكنانة، وسهم فالج أي فائز

ثم تشاور القوم فلم يبرموا شيئاً، فقال عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه: «أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها، فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عبد الرحمن أمين في السماء، أمين في الأرض» فقال القوم: رضينا، وعلي كرم الله وجهه ساكت، فقال له عبد الرحمن: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة، فقال عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليَّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين؛ فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

ثم قال لعليّ: انك تقول إني أحق من حضر بالأمر، لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تُبْعد؛ ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان؛ ثم خلا عبد الرحمن بعثمان فقال له: تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه، لي سابقة وفضل، ولم تُبْعد؛ فلِمَ يُصرف عني هذا الأمر؟ ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به؟ قال: عليٌّ؛ ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان فقال: عثمان؛ ثم خلا بسعد فكلمه فقال: عثمان؛ ثم خرج عبد الرحمن يتلقى الناس في أنقاب المدينة متلثمًا لا يعرفه أحد، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس إلا سألهم واستشارهم؛ فأما أهل الرأي فأتاهم مستشيراً، وتلقى غيرهم سائلاً: يقول من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يلق أحداً يستشيره ولا يسأله إلا ويقول: عثمان؛ فلما رأى اتفاق الناس وإجماعهم على عثمان، أتى بيت مِسْور بن مَخرمة بعد هجعة من الليل فأيقظه، فقال له: ألا أراك نائمًا، ولم أذق في هذه الليلة كثير غمض؟ إنطلق فادع فلاناً وفلاناً، نفراً من المهاجرين؛ قال المِسْور: فدعوتهم

فناجاهم طويلاً؛ ثم قاموا من عنده فخرجوا؛ ثم دعا علياً فناجاه طويلاً؛ ثم دعا عثمان فناجاه حتى فرق بينهما أذان الصبح.

الاتفاق على بيعة عثمان بالخلافة

فلما صلَّوا جميعاً وقد ارتج المسجد بالناس صعِد عبد الرحمن ابن عوف المنبر متقلداً سيفه، وعليه عمامته التي عممه بها رسول الله ﷺ؛ ثم تكلم فقال: أيها الناس إني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم؛ فلم أركم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إمَّا علي وإمَّا عثمان؛ فقم إليَّ يا عليّ؛ فقام إليه فوقف تحت المنبر؛ فأخذ عبد الرحمن بيده؛ فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال علي: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي؛ فأرسل عبد الرحمن يده، ثم نادى: قم إليَّ يا عثمان؛ فأخذ بيده، وهو في موقف عليٍّ الذي كان فيه فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعلِ أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم. فبايعه عبد الرحمن، وبايع له الناس، وبايعه عليٌّ بعد وقفة يسيرة، ذكره فيها عبد الرحمن بن عوف ما أخذه عليه من عهد وميثاق وقال له: إني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان.

وقدم طلحة بن عبيد الله أحد أعضاء مجلس الشورى من غيبته في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكل قريش راض به؟ قيل: نعم، فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، إن أبيت رددتها، قال: أتردها؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك، قال: نعم، قال: رضيت، لا أرغب عما أجمعوا عليه، وبايعه.

أول مظاهر الشورى المنظمة في الإسلام

تلك خلاصة لقصة الشورى وبيعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة؛ وهي تعطينا صورة واضحة للنظام الأعلى في الحكم الإسلامي؛ وطريقة تنصيب الإمام الأعظم للمسلمين، كما كان يفهمه أفضل الجماعات في الأمة الإسلامية، وأعلمهم بشهادة رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه في رواية

الشيخين من قوله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم. . .».

فالخليفة العبقري عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أحس دنو أجله، وقيل له استخلف، استعرض في هذه القضية شأن رسول الله ﷺ، وشأن الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فرأى أن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً من بعده على الولاية العامة للأمة، بل ترك الأمر لها تولي عليها من ترضاه إماماً لها وحاكماً عليها، يقوم على سياستها وتنفيذ دستورها، ويكون خليفة لرسولها؛ وكذلك رأى عمر أن سلفه أبا بكر قد أخذ بمبدأ ولاية العهد، لكن ذلك لم يكن عن طريق الوراثة النسَبية، وحَصْر الخلافة الإسلامية في بيت من بيوتات المسلمين، أو طائفة من طوائفهم؛ بل أخذ بهذا المبدأ عن طريق الإختيار من رجالات الأمة الذين تتوفر فيهم شرائط السياسة الحازمة، والقوة على إقامة العدل بين الناس، وفهم الدين والشريعة فهمًا صحيحاً؛ فكان ذلك ـ باتفاق الأمة وتأييد الواقع ـ هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فاستخلفه أبو بكر وعينه للأمة، فرضيته رضاء لم يعرف له التاريخ في الإسلام نظيراً لغيره من الخلفاء.

منهاج عمر بن الخطاب في اختيار خليفة المسلمين

رأى عمر بن الخطاب ذلك فرجح عنده مسلك النبي ﷺ، كما فهم هذا عبد الله بن عمر، وجاء صريحاً عنه في حديث البخاري المتقدم، فعمل بما رجح عنده ولم يول عهده واحداً بخصوصه؛ ولم يستخلف على الأمة شخصاً معيناً، لكنه مع ذلك لم يذر الأمر دون سياج يحفظه من الإنتشار والفوضى بين جمهور الناس وعامتهم خشية أن ينفلت عقال الرأي من يد الخاصة وأهل العلم والعقل؛ وقد يُولَّى حينئذ من لم يكن هناك، فيفسد نظام الحكم في الأمة وينفرط عقدها الإجتماعي؛ فتقدم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى الأمة، فأسس لها مجلس الدولة الأعلى، واختار أعضاءه ـ على سمع الأمة وبصرها ورضاها ـ ممن يصلح كل واحد منهم لولاية الخلافة والإمامة العظمى، ورشح اختياره هذا بأن هؤلاء الرهط

توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنهم، وهذه أعظم تزكية في هذا المقام؛ ثم ذكر عمر لكل واحد منهم من المميزات والخصائص ما يجعل الأمة تطمئن كل الإطمئنان إذا وقع اختيارها عليه لخلافتها وولاية الحكم عليها، وسلمته زمام سياستها؛ وبذلك يكون عمر رضي الله عنه قد خطا بالأمة الخطوة الأولى نحو اختيار حاكمها الأعلى، وضيق الدائرة، وقرب الأمر، وقطع أطماع العامة من الأغمار وأشباههم، ثم ترك تعيين أحد هؤلاء المرشحين إلى اختيار الأمة وحكمها وهذا من أحكم التدابير وأحسن ضروب السياسة.

ولعل الذي دعا عمر إلى هذا التصرف، وحمله على اتخاذ هذا المسلك ما رآه وخبره في بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة، حيث كان الأمر منتشراً دون ضابط يحكمه، أو نهج ينظمه، حتى كاد الأمر ان يخرج من يد أولي الأمر وذوي الرأي وأعلام الأمة، لولا ما تدارك الله به المسلمين من اللطف والعناية ببيعة الصديق رضي الله عنه؛ وهذا في رأينا تأويل ما نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوله: «لقد كانت بيعة أبي بكر فلتة» وأيضاً فإن تغيُّر عناصر المجتمع الإسلامي في خلافة عمر عنها في عهد النبي ﷺ وخلافة أبي بكر، يمكن أن يكون قد دخل في حساب عمر عندما لجأ إلى مسلكه هذا في اختيار الخليفة بعده؛ بل لا بد أن يكون ذلك من أهم البواعث عليه، فقد دخلت إلى ساحة الإسلام عناصر جديدة لم يُشرب قلوبهم الفقه في الدين، وقد يخشى منها الفتنة لو حُكِّمت في الأمر، وقد كان عمر وهو خليفة المسلمين ضحية تلك العناصر الجديدة على الإسلام والمسلمين.

ومن هنا كان عبد الرحمن بن عوف يأتي أهل الرأي مستشيراً، وغيرهم من العامة والضعفاء سائلاً؛ لأن العامة ليس لهم عقل ينفذ وراء ظواهر الأمور ويقدر العواقب بميزان السوالف؛ وقد يضاف إلى ذلك أن عمر رضي الله عنه رأى أن مسلكه هذا أخذ بحظ عظيم من منهج النبي ﷺ وأخذ بنصيب من مسلك أبي بكر واسترواح بترشيح النبي ﷺ أبا بكر

بتقديمه للصلاة، فجمع عمر بين الحسنيين، وسلك أقرب ما رآه أصلح لسياسة الأمة من المسلكين.

حكمة عبد الرحمن بن عوف في تنفيذ خطة الشورى

وقد نفذ عبد الرحمن بن عوف خطة الشورى بما دل على شرف عقله، ونبل نفسه، وإيثاره مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة ونفعه الفردي، وترك عن طواعية ورضا أعظم منصب يطمح إليه إنسان في الدنيا، ليجمع كلمة المسلمين؛ وحقق أول مظهر من مظاهـر الشورى المنظمة في اختيار من يجلس على عرش الخلافة ويسوس أمور المسلمين؛ فهو قد اصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدبير ما كفل له النجاح في أداء مهمته العظمى، ممثلاً فيما يأتي:-

أولاً: بسط برنامجه في أول جلسة عقدها مجلس الشورى في دائرة الزمن الذي حدده لهم عمر؛ وبذلك أمكنه أن يحمل جميع أعضاء الشورى على أن يُدلوا برأيهم؛ فعرف مذهب كل واحد منهم ومرماه، فسار في طريقه على بيِّنة من أمره.

ثانياً: خلع نفسه وتنازل عن حقه في الخلافة ليدفع الظنون ويستمسك بعروة الثقة الوثقى.

ثالثاً: أخذ في تعرف نهاية ما يصبو إليه كل واحد من أصحابه وشركائه في الشورى، فلم يزل يقلب وجوه الرأي معهم حتى انتهى إلى شبه انتخاب جزئي، فاز فيه عثمان برأي سعد بن أبي وقاص، ورأي الزبير بن العوام، فلاحت له أغلبية آراء الأعضاء الحاضرين معه.

رابعاً: عمد إلى معرفة كل واحد من الإمامين: عثمان، وعلي، في صاحبه بالنسبة لوزنه من سائر الرهط الذين رشحهم عمر، فعرف من كل واحد منهما أنه لا يعدل بصاحبه أحداً إذا فاته الأمر.

خامساً: أخذ في تعرّف رأي مَنْ وراء مجلس الشورى من خاصة

الأمة وذوي رأيها، ثم من عامتها وضعفائها، فرأى أن الناس لا يعدلون أحداً بعثمان، فبايع له، وبايعه الناس بيعة عامة عن رضا واختيار.

ميل الناس إلى عثمان ورغبتهم فيه

قصة الشورى هذه كشفت عن مكانة عثمان رضي الله عنه في قلوب الأمة، ومحبة الناس له وميلهم إليه، ورغبتهم في ولايته رغبة شملت خاصة الناس وعامتهم، ورضائهم بحكمه وخلافته عليهم؛ ولم تقف محبة الناس لعثمان ورغبتهم في إمامته عند أهل المدينة عاصمة الإسلام يومئذ، ولا بين أرجاء أمصاره الكبرى، بل تخطتها إلى البوادي ومضارب العرب وأحيائهم في جوف الصحراء؛ فقد كان عثمان رضي الله عنه من ألين الناس جانباً، وأعظمهم على المؤمنين وأرحمهم بالضعفاء والمساكين، فكانوا يرجونه لأيامهم، ويأملونه لتفريج أزماتهم، ويعدونه لملماتهم؛ روي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه خرج حاجاً في نفر من أصحابه حتى بلغ الأبواء، فإذا هو بشيخ على قارعة الطريق فقال الشيخ: يا أيها الركب قفوا، فوقفوا له، وقال عمر: قل أيها الشيخ؛ قال: أفيكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: لا، وقد تُوُفي، قال أوقد توفي؟ قالوا: نعم، فبكى حتى ظننا أن نفسه ستخرج من بين جنبيه؛ ثم قال: من ولي الأمة بعده؟ قالوا: أبو بكر، قال: نجيب بني تيم؟ قالوا: نعم، قال: أفيكم هو؟ قالوا: لا، وقد توفي؟ قال: توفي؟ قالوا: نعم، فبكى حتى سمعنا لبكائه نشيجاً، قال: من ولي الأمة بعده؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فأين كانوا من أبيض بني أمية - يريد عثمان بن عفان - فإنه كان ألين وأقرب ؟ ثم قال إن كانت صداقة أبي بكر لعمر لمسلمة إلى خير،أفيكم هو؟ فقالوا:هو الذي منذ اليوم يكلمك.

أول خطبة لعثمان في خلافته

ولما تمت بيعة عثمان رضي الله عنه خطب الناس فقال: «الحمدلله، أيها الناس اتقوا الله، فان الدنيا كما أخبر الله عنها ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزينةٌ وتفاخر بينكم وتَكَاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمِثْل غيْثٍ أعجب الكُفَّارُ نباتهِ

ثُمَ يهيجُ فترَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَ يَكونُ حُطاماً وفي الآخرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ومغْفِرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ ومَا الحياةُ الدُنيا إلاّ مَتَاعُ الغرور﴾ فخير العباد فيهم من عصم الله واستعصم بالله وبكتابه، وقد وكلت من أمركم بعظيم، ولا أرجو العون عليه إلا من الله ولا يوفق للخير إلا هو، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

بين عهدين

تمت بيعة عثمان رضي الله عنه فانتقلت «دِرة» الحكم وسلطانه من يد الفاروق عمر بن الخطاب، وكان شثن الكفين، إلى ذي النورين، وكان لين الراحتين، فكانت في يد الفاروق غضباً صارماً، وكانت في يد عثمان حلمًا ورحمة.

فأما عمر فقد أخذ سلطانه من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أبو بكر أحزم رجل وأرحمه بالمسلمين، عَصَبَ العرب وقد همـوا بعظيمة العـظائم عَصْبَ السَّلمَة، ووقمهم حتى ردّ رَسَنهم إلى غـارب الإسلام، وعادوا لِطيّتهم أمة واحدة تستنجز موعود الله باستخلافها في الأرض بعد إذ مكن لها دينها الذي ارتضاه لها، وللإنسانية هداية ورحمة، وبدَّلها به من بعد خوفها أمناً، حتى إذا جاءه أمر الله، وكان المسلمون قد أصبحوا أمة واحدة في قلب رجل، أو رجلاً في إهاب أمة ـ عهد بأمر الإمامة العظمى إلى نظيره في المعدلة، وأخيه عند رسول الله منزلة، فاروق الإسلام العبقري عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من هو شدة في الحق، وبطشاً بأعداء الله تعالى، وحزماً في السياسة، وصلابة في الرأي، وعزماً في النفاذ، وهو أعرف الناس بالعرب وأخلاقهم وطبائعهم، وأثر بيئاتهم في تكوينهم، فوجه بهم في الحياة كما أوحى إليه عقله الحصيف، وفكره الثاقب، ورأيه الحكيم.

شغلهم بالجهاد والفتح، فلم يترك لهم فرصة فـراغ يقلبون فيها صحـائف الناس، ويـديرون في مجـالسهم أحاديث الـولايات والتـأمير، ويتطارحون شؤون الرتب والعمالات، وأعمال الولاة، وسياسة الأمراء، بله

سياسة الخلافة العليا؛ وقد كشف عن ذلك الفاروق في إحدى خطبه في بدء خلافته؛ ذكر ابن الأثير في تاريخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما بويع بالخلافة صعد المنبر فخطب الناس فقال: «إنما مثل العرب مثل جمل آنف، اتبع قائده، لينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فَوَربِّ الكعبة لأحملنكم على الطريق».

بوركت خلافة عمر رضي الله عنه، وطالت أيامها بعض الشيء، فمكن الله فيها للمسلمين واتسعت فتوحاتهم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانضوى تحت لواء الإسلام أمم وبلاد مختلفة الأجناس واللغات، متباينة الأخلاق والعادات، متعددة المشارب والمعتقدات ، وفاضت على المسلمين الغنائم، وكثرت في أيدي الأعراب المقلين الثروات؛ وامتزجت أخلاق بأخلاق، وعادات بعادات، وأفكار بأفكار، ودماء بدماء، وألوان بألوان.

بيد أن دِرّة عمر كانت في يده أهيب في نفوس المسلمين من سيف الحجاج، يخفق بها هامة كل من تحدثه نفسه أن يقول برأسه هكذا حيداناً عن الطريق السوي وقد أيَّد عمر في ذلك نفسُه التي كان لها من فطرتها ونشأتها ما جعله يملك زمامها فلم يجعل الله تعالى عمر بن الخطاب في الجاهلية ولا في الإسلام من ذوي الثراء العريض والغنى الواسع، فنشأ مخشوشناً صليباً، قوياً مهيباً، ساعده اخشيشانه على أن يكون المثل الأعلى فيما حدث عنه التاريخ من أعاجيب، في مأكله ومشربه وملبسه، ومرقده، ومجلسه، وتعرفه شؤون رعيته، وأخذه أمراءه وولاته بما أخذ به نفسه، وقد جاءته الدنيا صاغرة في ظل خلافته فأعرض عنها، وولجت عليه كنوز الأكاسرة، وذخائر القياصرة، وخيرات فارس والروم فنفر عنها نفاراً شديداً، وقد كان عمر رضي الله عنه يحس ذلك إحساساً شديداً؛ جاء في حديث الشورى من رواية الطبري: «أن رجلاً اقترح على عمر العهد إلى عبد الله بن عمر لكفايته ورضاء المسلمين به؛ فقال له عمر: لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسْب آل عمر أن يحاسب رجل منهم واحد،

ويسأل عن أمة محمد ﷺ ؛ أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي؛ فإن نجوت منها كفافاً، لا وزر ولا أجر، إني لسعيد».

وكان عمر رضي الله عنه إذا نهى عن شيء جمع أهله فقال لهم: «إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم؛ فإن وقعتم وقعوا، وإن هِبتم هابوا؛ إني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العذاب لمكانه مني؛ فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر» وروى ابن الجوزي: أنه جيء بمال إلى عمر رضي الله عنه؛ فبلغ ابنته أم المؤمنين حفصة، فقالت: يا أمير المؤمنين، حق أقاربك من هذا المال، قد أوصى الله عزّ وجل بالأقربين فقال: يا بُنَيَّة حقُّ أقربائي في مالي، وأما هذا ففيء المسلمين، غَشَشْتِ أباك ونصحت أقرباءك، قومي، فقامت والله تجر في ذيلها!

وفي تاريخ الطبري: أن عمر رضي الله عنه جاءه مال، فجلس يقسمه بين الناس فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يزاحم الناس حتى خَلَص إليه، فعلاه عمر بالدّرة، وقال: أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أُعْلِمك أن سلطان الله لن يهابك.

وذكر ابن الجوزي: أن عمر قدم مكة، فأقبل أهلها يسعون؛ فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن أبا سفيان ابتنى داراً فحبس عنا مسيل الماء ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدّرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً، فقال عمر: إرفع هذا، فرفعه ثم قال: وهذا، وهذا؛ حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: «الحمد الله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه».

بهذه السياسة الحازمة ساس عمر بن الخطاب المجتمع الإسلامي؛ وهو أمشاج من العناصر والأجناس، والأفكار والمذاهب، والأخلاق والطبائع، والغنى والفقر، والطموح والزهادة، والرضا والسخط، والهدوء والثورة، حتى قال له علّي بن أبي طالب: لقد أذللت الخلفاء من بعدك.

هذا المجتمع الذي ساسه عمر تلك السياسة، والذي جهد نفسه وحرمها، ومنع أهله وقومه من أجله، سَخِط وتشكى، فأشكاهم عمر[1]، وبدل لهم أمراءهم الذين شكوهم إليه فعادوا، وعاد لهم؛ وأمراء عمر وعماله كانوا من الأجلاء في أصحاب رسول الله ﷺ، وذوي التحنيك الذين استنارت قلوبهم بأنوار النبوة، وثقفت عقولهم بأدب القرآن الكريم، فقد شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص قائد الإسلام في خلافة عمر، وبطل القادسية، وأحد أعضاء مجلس الدولة الأعلى ورهط الشورى الذين رشحهم عمر للخلافة بعده، وأحد المبشرين بالجنة، وقالوا في شكواهم: إنه لا يحسن يصلي، فقال عمر: من يعذرني من أهل الكوفة، إن ولَّيتهم التقي ضعفوه، وإن وليتهم القوي فجَّروه؟ وشكا إليه أهلُ مصر عمرو ابن العاص، وهو من هو في عقله وإحكام تدبيره، وسياسته؛ وشكا أهل حمص سعيد بن عامر، وكان من زهاد الصحابة وعبَّادهم، وذوي الحكمة فيهم، ثم عادوا فشكوا عمير بن سعد، وكان إذا كتب أهل حمص فقراءهم ذكروا فيهم عمير بن سعد لورعه وتقلله من الدنيا، واكتفائه منها بالكفاف؛ وشكا أهل البصرة واليمن أبا موسى الأشعري وهو أحد أعلام الصحابة وعلمائهم؛ وكان عمر رضي الله عنه، في كل ذلك يُشْكيهم، ويستبدل لهم بأمرائهم غيرهم، ويقول: هان شيء أصلح به قوماً أن أبدل لهم أميراً مكان أمير، ويقول: أشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الثقة!

وبحسبنا أن يكون من آثار تغير حال المجتمع الإسلامي في عمومه استشهاد عمر رضي الله عنه، واضطراب أقوال المؤرخين في تفسير ذلك الحادث الخطير، وهل كان أمراً مبيتاً، تآمر على القيام به جماعة من خصوم الإسلام، نفسوا على المسلمين حياة عمر وشخصيته الفذة؟ أو كان عملاً فردياً، دفع إليه الطيش والحقد الدفين؟ وما كان لذلك من نتائج خطيرة واجهت الحكومة الجديدة في شخص عثمان بن عفان وخلافته.

ذلك التراث الضخم بما وصفناه، وتلك الأقطار المترامية الأطراف

(١) أزال شكايتهم.

التي افتتحها المسلمون، وأولئك الأعراب الجفاة الذين انساحوا في الأرض مع جيوش المسلمين فاتحين غانمين، حتى ملئت أيديهم بالدنيا، وأخذت أبصارهم ببريقها، وهؤلاء الأرقاء عُبدان وإماء، من الأجناس المتكاثرة الذين امتزجوا بالعرب فخدموهم وولدوا لهم، فأحسنوا وأساءوا، وهذه الخلافات الحزبية والأحزاب السياسية، ثم هؤلاء الأحداث الذين تقدموا في بعض المواطن إلى قيادة الناس وولاية أمرهم، يسوسونهم وليس لهم في الإسلام سابقة! كل أولئك كون عناصر المجتمع الإسلامي الذي عهد مجلس الشورى بالخلافة عليه إلى عثمان بن عفان بعد عمر بن الخطاب، فقام بالأمر واجتهد، وأحسن وبرَّ وعطف، ولكن تغير أحوال المجتمع أصدأ مرآة الحياة في نظر بعض الناس، فعظموا صغائر الأمور، وأساءوا فهم الحقائق، وخلعوا على كثير من الحوادث والوقائع غير أوصافها وانقاد بعض الأغرار من ذوي المطامع إلى أغراضهم، فمشوا إلى الفتنة ومشت إليهم الفتنة، وكان ما كان مما سنفصله. وسيرى القارىء المخلص أن ليس شيء مما تذرع به المفتونون للتجني على عثمان رضي الله عنه بخارج عن نطاق السياسة الشرعية الرحيمة العادلة، ولكن قضاء الله تعالى نافذ لا يرد، وهو الحكيم فيما يريد.

الفصل الثالث

نفثة محزون ـ بدء الإنقلاب وعناصر المجتمع الإسلامي ـ إقبال الدنيا على المسلمين ـ الشر من ثنايا الخير ـ موقف عثمان من الإنقلاب ـ مؤامرة ماكرة ـ احتجاج عثمان لنفسه ـ الفرد والجماعة في رأي عثمان ـ لم يكن عثمان جباراً ـ حماية عرش الإسلام من عواصف الطيش ـ صبر عثمان وشجاعته النفسية.

نفثة محزون

مضى التاريخ في طريقه قدُماً يسطر على صفحات الزمن أسطر الأحداث العثمانية قاتمة دامية؛ حتى إذا بلغ النهاية وقف مشدوهاً يلتفت يمنَة ويَسرة، فلم يجد أمامه سوى هذه النهاية الكريهة البشعة التي ساقه إليها راغم الأنف قدرُ الله الذي لا يغالب ولا يرد؛ فوثب إليها سَعِرا يخبط هنا وهناك، فكانت فاقرة الفواقر، وعظيمة العظائم، وتمت فصول الرواية بما بدأ صفحة جديدة في تاريخ الإسلام والمسلمين، تحمل على طرّتها عنوان الفتنة الجامحة، والفرقة القاصمة، وتحوي بين طياتها أساليب الدمار مصوغة في لغة الدماء.

لا نعتقد أن الأرض أقلّت مسلمًا صحيح الإيمان نقيَّ التفكير، بعد أن رست سفينة الفتنة على شاطىء الاستقرار، إلا وهو ينكر أشد الإنكار على تاريخ العهد الأول للإسلام أن يحوي بين جنباته هـذا النحو من الأحداث والكوارث، غير أن هذا الإنكار يختلف في مظاهره وصوره؛ فبعض تلك المظاهر ألمٌ كظيم يحزّ في النفس حزّ الأسف الوجيع، سمواً بذلك العهد أن يمر بوجهه النيِّر التقطيب المحزن الأليم، وبعض تلك المظاهر عتب مشتت المواقع، يصيب البريء والمشبوه والجاني على سواء، وبعضها تسليم بما يقال، واستسلام إلى الجهل أو التجاهل في يأس من

إصابة الحق واليقين؛ وكأنما كان هذا الاختلاف في مظاهر الإنكار وصوره أثراً لفهم الحوادث فهمًا تتجاذبه العاطفة الإيمانية والعقل الواقعي.

قال العقل: هذه نتيجة ترتبت على مقدماتها، فلو أن تلك المقدمات لم تمنح مقومات الوجود في الحياة ما أمكن في حال من الأحوال أن تجيء هذه النتيجة البغيضة؛ أما وقد أفسحت الحياة صدرها للمقدمات، بل هيأت لها جو وجودها وعناصرها فمن العبث أن نغمض العين على القذى حتى لا نرى ولا نشهد، ومن الخير والحق أن نبصر لنعلم ونعتبر.

وقالت العاطفة: تلك مقدمات فاسدة مدخولة لو صادفت ميزاناً زيادياً «يأخذ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتهم» أو لقيت قانوناً حجاجياً «يحزم الناس حزم السَّلَمَة ويضربهم ضرب غرائب الإبل».

واحر قلباه؟! طغام مثل النعام اختلفت قلوبهم كما اختلفت ألوانهم وألسنتهم بالسوء، ملأوا ساحة الإسلام عراة من الإيمان الصادق، فطغى سوادهم على صادقي الإيمان من أصحاب النبي ﷺ وصالحي المؤمنين، حتى أصبحوا فيهم كالغرة البيضاء في أديم الثور الأسود، أولئك قوم أرادوا الدنيا بإسلامهم فخاضوا إليها لجج الدماء، ورتعوا في بقية من آثار النبوة ممثلة في شخص عثمان بن عفان رأفة ورحمة، واستظلوا بعدل الخلافة الراشدة آمنين أن تحدث لهم كما أحدثوا؛ لأن هذا في شِرْعتها من سنن الملك العضوض.

بدء الانقلاب وعناصر المجتمع الإسلامي

بدأ المجتمع الإسلامي الخضم يتحول عن اتجاهه الأول ذلك الاتجاه الذي ربَّى عليه النبي ﷺ أصحابه ونشأ عليه تلاميذه، وكان المظهر الأعلى لتلك التربية الفاضلة وزن الدنيا وزخارفها بميزان البصيرة المستنيرة، فلم تعلق بقلوبهم علوقاً يدفع إلى التنافس فيها تنافساً يصدهم عن تكميل

أرواحهم وتزكية نفوسهم، ولم ينصرفوا عنها انصراف الأغرار الذين لا يقدرون نعم الله تعالى حق قدرها.

ومن هنا كان التنافس في جمع الدنيا هو الصورة الواضحة في هذا التحول الذي بدأ في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وهو من هو، على أيدي أصناف من الناس تدافعت أمواجهم بأشتات من العناصر المختلفة والمذاهب المتنوعة، والعادات المتباينة، والأفكار المتضاربة، ممن دخلوا في الإسلام تلبية لنداء الفتوحات الإسلامية؛ طوعاً أو كرهاً أو فراراً من الاستبداد والظلم، إلى ساحة الإخاء والعدل في ظل راية القرآن الكريم.

نعم، كانت تلك الصورة هي التنافس في جمع الدنيا ووزنها بميزان التقدير الأخرق والحرص عليها حرصاً دعا إلى التسابق إليها واكتنازها، والصدّ عن سبيل إنفاقها في كثير من وجوه البر، وفتح أبواب الشهوات المادية والركون إلى مظاهر الدنيا كغاية ينتهي إليها سعي الناس، بعد أن كانت تلك المظاهر وسيلة إلى غاية أسمى وأرفع.

إقبال الدنيا على المسلمين

وقد استشرى هذا التحول عن السمت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، لاتساع الفتوحات، ووفور الخيرات، وكثرة الغنائم، وإدرار الأموال؛ ووافق ذلك أن عثمان بن عفان كان ذا مال وثراء وسيع، يغمر بعطاياه أهله وأقرباءه، ومن يلوذ به من المؤمنين. قال المسعودي في المروج: «وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع منهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة، وابتنى دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية وما عُلم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية؛ وبلغ ثُمن مِلك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخِططاً كثيرة، وكذلك طلحة بن عبيد الله التميمي، ابتنى داره بالكوفة في الكُناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من

ذلك، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة، وبناها بالجص والآجر والصاج؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته الربع من ماله أربعة وثمانين ألف دينار؛ وقد ذكر سعيد بن المسيِّب أن زيد بن ثابت حين مات خلَّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار؛ وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجُرف على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات، كما جعلها مجصصة الظاهر والباطن وهذا الباب يتسع ذكره، ويكثر وصفه فيما تُملك من الأموال، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة».

ورواية المسعودي هذه تذكر أعلاماً من أجلاء الصحابة الذين لا ترتفع الشبهة إليهم، لفضلهم، وتقواهم لله تعالى، وعرفانهم بحقوق هذه الأموال، وتوفيتهم لتلك الحقوق، وما كان هذا الثراء الغامر، والمال الفياض ليغيِّر من طهارة نفوسهم شيئاً؛ ولقد كان لكثير من الصحابة ممن ذكر المسعودي وممن لم يذكر مثل هذا الثراء العظيم في حياة رسول الله ﷺ، فكان أعظم عون على نشر الدعوة الإسلامية والجهاد في سبيل الله؛ ولكن النظرة الحائرة إنما تكون فيمن ملك من المال ما ملأ به يديه، واتسعت به الدنيا، ولم يصقل الإيمان نفسه، ولم تهذبه التقوى من مسلمة الفتوحات، وأعراب البادية وجفاتها، وأبناء الأمم المترفة من الدخلاء في الإسلام، فهم الذين جروا أبعد شوط في زخارف الدنيا، واتخذوها غاية يتنافسون فيها، ولا يقبلون أن يُردوا عن أهدافهم؛ لأنهم يحتجون بلسان الشيطان، ويرمون بأعينهم في التأسي ظاهراً إلى أولئك الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ، وهؤلاء وأولئك جدّ مختلفين: فأصحاب رسول الله ﷺ أخذوا الدنيا من فم الشريعة سائغة خالصة، ثم أنفقوها في مصارفها التي حث الله تعالى على الإنفاق فيها، وأولئك أخذوا الدنيا من فم الشيطان كدرة شائكة، ثم أنفقوها في شهوات وأهواء لا تقع عند الله تعالى في ميزان رجيح.

وجاء إلى جانب ذلك ما كان في فطرة عثمان رضي الله عنه من وداعة ورحمة وعطف، تنوعت مظاهرها في السماحة والجود إلى أبعد غايات المكارم. ونشأة عثمان في لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه، ودماثة خلقه كان لها بعض الأثر في مظاهر الفرْق عند حدثاء الإسلام بين عهده وعهد سلفه في الخلافة عمر بن الخطاب.

وقد كانت هذه الخلال في عثمان دعائم محبة له في قلوب المسلمين؛ وقد اتفقت كلمة أهل الأخبار على أن عثمان رضي الله عنه قضى أكثر عهده وهو أحب إلى الناس من عمر، لشدة عمر ولين عثمان، ولإقبال الدنيا على الناس في زمان عثمان وامتلاء أيديهم من الغنائم؛ روي عن الشعبي أنه قال: لم يمت عمر بن الخطاب حتى ملته قريش، وقد كان حصرهم بالمدينة، وقال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد؛ فإن جاء الرجل منهم ليستأذن في الغزو قال له: قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من غزوك اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك، وكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة، فلما ولي عثمان خلّى عنهم، فانتشروا في البلاد وانقطع الناس إليهم؛ وكان أحب إليهم من عمر.

الشر من ثنايا الخير

ومن عجيب الأمر وغامض الحكمة أن هذه الصفات التي كانت دعائم محبة لعثمان في قلوب الناس؛ هي نفسها التي كانت نوافذ الأحداث الكارثة والعظائم القاصمة، فوداعة عثمان ولينه وتعطفه ورأفته وحلمه، جاءت بعد بطش عمر وشدته، فعمر بن الخطاب يخفق رأس سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وأحد أعضاء مجلس الشورى المرشحين لمنصب الخلافة، لأن سعد زاحم الناس وتخطى إلى عمر، فأراد عمر أن يريه أن سلطان الله لا يهاب أحداً؛ ولين عثمان وحلمه أطمعا جَهجاها الغفاري في أن يأخذ من يد عثمان وهو على المنبر عصا رسول الله ﷺ التي كان يخطب عليها، فيكسرها؛ وحلم عثمان رضي لعبد الرحمن بن عوف أن

يرد هبته وهو خليفة المسلمين بغير إذنه؛ ذكر الطبري: أن إبلاً من إبل الصدقة قدم بها على عثمان، فوهبها بعض ولد الحكم بن أبي العاص، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره.

أما كيف بدأت الأحداث فقد سهل الآن علينا أن نتبين بعض معالمها، فهي لم تقع فجأة، بل حيكت خيوطها، ولفت طياتها، وفتل في غاربها زمناً مديداً، فلما اختمرت فاضت، ولما اتقدت اشتعلت، فأذهلت الحلماء، وأضلت الحكماء ونفذ بها القضاء؛ وسنحاول أن نجلي ما غمض منها، وما عُمِّي من أسبابها، ونعرب ما استعجم من روايات التاريخ في شأنها، عسى أن يبصر المسلمون حاضرهم على ضوء ماضيهم، ويتيقظوا لما يحاك لهم في الخفاء من الكيد والتدبير على غرار ما كان حيك لأسلافهم في الماضي أبلغ العبر لمن يعتبر.

موقف عثمان من الإنقلاب

عجيب أمر هؤلاء العباقرة من فتيان الصحراء وتلاميذ المدرسة الأولى للدعوة الإسلامية الذين اصطفاهم الله تعالى لقيادة الإنسانية فكانوا في حياتهم أمثلة حية لأفضل الفضائل وأكرم الأخلاق؛ إنهم كالذهب يزيده الصَّهر قوة وصفاء.

هذا عثمان بن عفان الأموي القرشي، أحد السابقين الأولين الذين أعزّ الله بهم الإسلام؛ ونصروا كلمته بأنفسهم وأموالهم. في موقف يكنفه فيه عزّ الخلافة وسلطانها، وتحوطه حمية العشيرة وسطوتها، أجلبت عليه الحوادث بخيلها ورجلها، وتدافعت إلى بابه بقضها وقضيضها، أفتراه كان عاجزاً عن التنكيل بهؤلاء الخارجين والأمر في بدئه كان لا يزال محصوراً في نفر ليست لهم حرمة سبق إلى الإسلام، ولا تقدم في الهجرة، ولا كان لهم كبير فضل في جهاد، وإنما هم أحلاس فتنة، ومطايا الشياطين من أضراب ابن سبأ اليهودي وحزبه، وقد قال له أهل المدينة ـ وهم جمهور الصحابة ـ لما

انكشف لهم وله حالهم معه، وظهر خبث نياتهم نحوه: اقتلهم، فأبى إلا أن يصبر ويعفو!

وهل كان عثمان رضي الله عنه عاجزاً أن يتخذ لنفسه «حجاجاً» يجعله جلدة ما بين عينيه ويسلطه على أبشار الأمة بسياط القهر والجبروت، ويطلق يده في دمائها يعبّ منها ما شاء حتى تخضع وتذل، وحوله من ذؤبان العرب وفتيان أمية من يستطيع أن يصطنع منهم العدد الكثير ممن غلظت أكبادهم وقست قلوبهم؟

وهل كان عثمان عاجزاً أن يجيب معاوية إلى ما أراد، وقد قال له لما نفر معه إلى المدينة بعد انقضاء مشاورة الأمراء في الموسم حينما استدعاهم عثمان ليعرف منهم حال الناس: انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الامر لم يزالوا؛ فقال له عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي؛ فقال له معاوية: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك؟ فقال عثمان: أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم، وأضيق على أهل الهجرة والنصرة؟ فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتغتالنّ أو لتغزين؛ قال عثمان رضي الله عنه: حسبي الله ونعم الوكيل.

وهل كان عثمان عاجزاً أن يحدث للناس عقوبات فوق ما أحدثوا من الذنوب والآثام فيصيح بهم: من نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه؟ كلا، ما كان عثمان رضي الله عنه عاجزاً عن هذا وأمثاله، ولا كان ضعيفاً ولا مستضعفاً، وقد قال له الخارجون وهم محاصروه: فلسنا منصرفين حتى نعزلك، ونستبدل بك، فإن حال من معك من قومك وذوي رحمك وأهل الانقطاع إليك دونك بقتال، قاتلناهم حتى نخلص إليك، فقال لهم: ولعمري لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت إلى الأجناد فقادوا الجنود وبعثوا الرجال؛ ولكن عثمان كان خليفة راشداً

يحجزه عدل الخلافة الراشدة عن مآثم الملك العضوض.

لقد وقع في أوهام كثير من الناس، وتحدر إلى منازل التاريخ، ولُقِّن شباب المسلمين في المدارس ومعاهد التعليم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ضعيفاً في موقفه إزاء هذه الأحداث العاصفة، أو كان مستضعفاً يساق إلى ما يراد، وهذه غلطة تاريخية خطيرة في حق ثالث عظماء الإسلام، يجب على كل مسلم سليم العقيدة، صحيح الفهم لتاريخ الإسلام أن يعمل على تصحيحها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فما كان أيسر على عثمان ـ لو أراد ـ أن يصنع مثل صنيع يزيد بن معاوية فيتخذ له ولاة من نظائر زياد وابنه عبيد الله، أو مثل صنيع عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، فيحكِّم في رقاب المسلمين أشباه أخيفش ثقيف ممن استباحوا البلاد وأذلوا العباد، حتى تدين له الدنيا ويصفو له الملك، فليتأمل الباحثون في تاريخ رجالات الإسلام، ولينصفوا عثمان رضي الله عنه، فإن الأمر أعظم من أن يفصل فيه بكلمة تنقل أو تقال.

* * *

مؤامرة ماكرة

كان عثمان قد أشكى أهل الكوفة من أميرها سعيد بن العاص، وولّى عليها أبا موسى الأشعري تحقيقاً لرغبتهم، ولكن سبائية الكوفة لم يرضهم ما أرضى الناس، لأنهم كانوا قد بيتوا أمراً لا يبتغون غيره، وائتمروا على كيد الإسلام وأهله؛ فرأوا ألا سبيل لهم إلى الخروج إلى الأمصار لإثارة الفتنة وإشعال نارها بعد ما رجع الأمراء من الموسم وافتضح أمر الخارجين، ورضي الناس عن خليفتهم وولاتهم؛ فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا انهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء ـ زعموا أنه ارتكبها ـ لتطير في الناس، فتوافدوا بالمدينة. ولما علم بهم عثمان أرسل إليهم رجلين، مخزومياً وزُهرياً؛ فقال لهما: انظرا ما يريدون؟ واعلما علمهم وكان هذان الرجلان ممن قد نالهم من عثمان بعض التأديب. ففرح بهما

الخارجون، وظنوا ميلهما معهم، ولكن الرجلين كانا من أهل الإيمان والعقل، فاصطبرا للحق، ولم يضطغنا على عثمان رضي الله عنه، وعرفا أنه إمام المسلمين الأعظم، يقيم حدود الله تعالى على من يتعداها، وينشر راية العدل بين الناس، ويأخذ من القوي للضعيف بما خوّله الله تعالى من حق الرعاية والتأديب، فلما رآهما الخارجون باثوهما وأخبروهما بما يريدون، فقالا لهم: من معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر، فقالا: هل إلا؟ قالوا: لا، قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ قالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج نقدم فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه. فرجع الرسولان إلى عثمان بالخبر، فضحك وقال: اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تسلمهم شقُوا!

ثم أرسل عثمان إلى الخارجين ونادى: الصلاة جامعة، وهم عنده في أصل المنبر فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا به فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم، وقام الرجلان المخزومي والزهري فصدقا كلامه، فقال الناس جميعاً: اقتلهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله، فاقتلوه» وقال عمر ابن الخطاب: «لا أحل لكم إلا ما قتلتموه، وأنا شريككم». فقال عثمان: بل نعفو ونقبل، ونبصرهم بجهدنا، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حدا، أو يبدي كفراً؛ إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم؛ إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونيها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم.

* * *

احتجاج عثمان لنفسه

قالوا أتم الصلاة في السفر، وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت؛ أو كذلك؟ قالوا: نعم، وقالوا: حميتَ حمى، وإني والله ما حميت، حُمى قبلي، والله ما حموا شيئاً لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رِعْية أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها

لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع؛ ثم ما منعوا ولا نحّوا منها أحداً، ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي من ثاغية ولا راغية؛ وإني قد وُليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاءً، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم، وسألوه أن يقتلهم.

وقالوا: كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً؛ ألا وإن القرآن واحد، جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء، أكذلك؟ قالوا: نعم، وسألوه أن يقتلهم، وقالوا: رددت الحكم وقد سيَّره رسول الله ﷺ، والحكَم مكي، سيَّره رسول الله ﷺ إلى الطائف، ثم رده رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ سيَّره، ورسول الله ﷺ ردّه، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم، وقالوا: استعملتَ الأحداث، ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً؛ وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه. ولقد وُلّي من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم، يعيبون للناس ما لا يفسرون، وقالوا: إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه، وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس، فكان مائة ألف، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم، وليس ذاك لهم، أكذاك؟ قالوا نعم؛ وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم. فأما حبي لهم فإنه لم يَمِل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتت عليَّ أسنان أهل بيتي، وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا؟ وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم عليَّ إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء، فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني، ولا نفلت من مال الله بفلس فما فوقه، ولا أتبلغ منه؛ ما آكل إلا من مالي.

وقالوا: أعطيت الأرض رجالاً، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها

المهاجرون والأنصار أيام افتتحت، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاد الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار بلاد العرب. فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني.

فأبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم، فرجعوا وهم مطويون على ضغن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم، ونهض عثمان بحجته قوية قاهرة في مجتمع من المهاجرين والأنصار تحت سمع الخارجين وبصرهم، فكان له الفلج على أولئك الملحدين بعد افتضاح تدبيرهم الخبيث، وكشف مؤامرتهم الماكرة، ومكرهم السيء وكيدهم الأثيم.

* * *

الفرد والجماعة في رأي عثمان

كان موقف عثمان رضي الله عنه إزاء هذه الأحداث المثل الأعلى في تحقيق مكانة الجماعة بجانب مكانة الفرد من وجهة النظر الإسلامي، ونظرية الإسلام لا تأبى أن يذهب الفرد مهما تكن قيمته فداء لحفظ كيان الجماعة وصون كرامة الأمة؛ وأمير المؤمنين عثمان بن عفان جعل نفسه مضرب المثل في تحقيق هذه النظرية الإجتماعية، وهو يرى أشد الخطر يحيط به من كل جانب، والموت يلاحظه حيثما يتلفت، وذلك مظهر من أعظم مظاهر التربية الإسلامية في تكييف الشخصيات تكييفاً عملياً بمبادىء الإسلام وتعاليمه، وكان في مكنة عثمان أن يقي نفسه ويخلصها لو أنه أراد نفسه؛ ولم يرد حياة الأمة، ولو أنه كان «أنانياً» ولم يكن إيثارياً لدفع بمن هبّ للذود عنه من شباب المسلمين وأبناء المهاجرين والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين، ولكنه أراد الأمة ففداها بنفسه صابراً محتسباً؛ روى ابن عبد البر في الإستيعاب عن أبي هريرة قال: إني لمحصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار فرُمي رجل منّا، فقلت: يا أمير المؤمنين، الآن طاب الضراب؛ قتلوا منّا رجلاً، فقال عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك، فإنما تراد نفسي وسأقي المؤمنين بنفسي. وقال ابن

خلدون في المقدمة: إن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة، فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه.

* * *

عثمان لم يكن جباراً

نعم، لو كان عثمان رضي الله عنه ملكاً جباراً فاتخذ لنفسه بطانة جلادين يضربون ظهور الناس فيذلونهم، ويسفكون دماءهم فيفنونهم لنجا كما نجا خلائف الملك العضوض، نعم، ولو اعتصم عثمان بحرب الخارجين لأفنى كثرة الأمة وعاش كما عاش المتجبرون من بعده، نعم، ولو أراد عثمان الحياة كما يشتهيها ذوو الهمم المريضة من آحاد الناس لوجدها سهلة هينة كما يجدها الضعفاء الرعاديد في كلمة لا تنال من عثمان إلا كما تنال الريح تهب رُخاء من عرنين الطود الأشم، كلمة لا تأخذ من عثمان إلا كما تأخذ قلامة الظفر من الإصبع، كلمة يلقي بها عن كاهله عبء عهد الناس وبيعتهم، وكان هذا هو أقصى ما طلبه الملحدون الخارجون ولكن عثمان لم يكن ضعيفاً كما يزعم المبطلون، ولم يكن مستضعفاً كما يزعم الإمَّعات المستضعفون، ولم يكن ملكاً جباراً كما يريده الجاهلون بل كان خليفة راشداً يسوس الناس بالعدل، وراعياً شفيقاً يرعاهم بالرحمة والإحسان.

* * *

حماية عرش الإسلام من عواصف الطيش

رأى عثمان رضي الله عنه أنه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة لأصبحت عروش الإسلام ألعوبة في أيدي المفتونين الساعين في

الأرض بالفساد، ولسادت الفوضى واختل نظام البلاد والعباد، ولكان ذلك تسليطاً للرعاع والغوغاء على الولاة والحكام، ورأى عثمان أنه لو أجابهم لألقى بأس الأمة بينها وشغلها بنفسها عن أعدائها، وذلك أيسر طريق لإفنائها، فلم ير أمامه سوى نفسه يفدي بها الأمة ويحفظ كيانها أن يتزعزع ويصون بنيانها أن يتهدم، ويدعم بهذا الفداء نظامها الاجتماعي في أعلى مظاهر الحكم، ويحمي سلطانها الذي تساس به أن تمتد إليه يد العبث والفوضى، ولا شك أن هذا أعظم وأقوى ما يستطيع رجل ألقت إليه الأمة مقاليدها أن يصنعه، وكان عثمان رضي الله عنه شديد الإيمان بذلك، وقد كلم به رأساً من رؤوس الخارجين، وهو الأشتر النخعي فقال له: «إما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، فتكون سنة بعدي. كلما كره القوم إمامهم خلعوه» أليس هذا المبدأ الذي وضعه عثمان بن عفان بموقفه الفذ من هذه الثورة، وصاغه في عبارته الصريحة الواضحة، من أخطر المبادىء الدستورية في نظام الحكم الأعلى للدولة؟ وماذا يكون الحال لو أن كل ثورة انتهت إلى خلع الحاكم الأعلى للدولة والثورات أكثر ما تكون ممن لا يعقلون، ولكنهم ينقادون ويندفعون، ولا يسألون إلى أين يساقون؟ أوليس فيه وقف الثورات عند حدود التنبيه والإيقاظ فلا تترك حتى تثب إلى الهدم والتقويض؟

بلى، إن هذا المبدأ كشفت الأيام، ولا تزال تكشف عن قيمته العظيمة، والذي يمعن النظر في الإنقلابات الدولية في التاريخ الإسلامي، وما أدت إليه الثورات الجامحة من أخطار جسيمة منذ وقوع الفتنة العثمانية، وما أعقبها من انقلابات أودت بعهد الراشدين، وأطاحت الدولة الأموية، وأقامت على أنقاضها الدولة العباسية، ثم فرقتها إلى الدويلات التي جاءت بعدها، وإلى ما عاصرها من دويلات أندلسية كانت نتيجة للثورات الطائشة، مما مزق الدولة الإسلامية الكبرى - يدرك حق الإدراك هذا المبدأ العظيم في حفظ كيان الدولة، وصيانة نظامها الاجتماعي والسياسي لو لقي قوّامين على الاستمساك به والتضحية في سبيله، وكذلك من يتأمل في أحداث التاريخ الحديث، وما قام من ثورات عاصفة طوّحت

بعروش كثيرة، ودول عظمى، وانتهت إلى الحرب العالمية الأولى، ثم إلى الحرب العالمية الثانية، ولا تزال آثار تلك الثورات المتكئة على المطامع والشهوات تعمل على إثارة حرب ثالثة لا تبقي ولا تذر - يؤمن أشد الإيمان بأن هذا المبدأ الخالد من أقوى دعائم الحكم ونظام الاجتماع في الدولة.

لم تفجأ الفتنة عثمان رضي الله عنه حتى يمكن التماس سند لتهمة الضعف التي ترددت في كلام بعض الكاتبين، بل ألقت إليه بأيديها، ومدت نحوه ألسنتها قبل أن تستشري وتتفاقم، مطاولة من يطمع في إصلاح الحال بالرأفة والبر والسياسة والحكمة، فسمع وأجاب، وأخذ وأعطى، ولان واشتد، وقارب وأبعد، وخاصم وصالح، كل ذلك في ظل عدل الخلافة الراشدة، ولكن المجتمع الإسلامي يومئذ كان - كما صورنا بعض نواحيه - قد تكاثرت فيه رعيّة «الحجاجيين» و«الزياديين» الذين لا يردعهم إلا السيف يمشي إلى أعناقهم، وإلا السوط يلهب أبشارهم ولا يرتفع عن ظهورهم! وحاشا عثمان وهو الخليفة الراشد أن يصنع بأمة محمد ﷺ، وفيها بقية المهاجرين والأنصار، صنيع الجبابرة السفاكين الذين حموا أنفسهم وسلطانهم، وأذلوا الأمة بصنائع السوء من ذوي العتو والطغيان.

ذكر المؤرخون أن عثمان جمع بعض خاصته فشاورهم في أمر الناس، وسمع منهم ثم قال لهم: قد سمعت كل ما أشرتم به، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه ليفتحن، فنكفكفه باللين والمواتاة إلا في حدود الله، فإن فتح فلا يكونن لأحد عليَّ حجة وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً، وإن رحى الفتنة دائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، سكّنوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا.

وكتب مع عبد الله بن عباس - وقد أمَّره على الحج - كتاباً لعامة المسلمين يعلمهم فيه أمره وأمر الناس، فكان مما قال فيه: «وقد علمت أنما يريدون نفسي، وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبوني أحب إليَّ من أن

أتبرأ من عمل الله عزّ وجل وخلافته، وأما الذي يخيرونني فإنما هو النزع والتأمير، فملكت نفسي ومن معي، ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه وتعالى، وكرهت سنة السوء، وشقاق الأمة وسفك الدماء. . .».

* * *

صبر عثمان وشجاعته النفسية

لقد تجمع بباب عثمان كثير من أبطال الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار ليدفعوا عنه، ويذودوا عن سلطان الله تعالى ممثلاً في خلافته الراشدة؛ ولو أذن عثمان لهم في حرب الخارجين وقتالهم لضربهم حتى يخرجوهم من أقطارها، ولكن عثمان أبى عليه إسلامه ويقينه وإخلاصه وفضله أن يقذف بالأمة في أتون حرب طاحنة من أجل شخصه؛ روى ابن عبد ربه في العقد: أن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: كنت مع عثمان في الدار، فقال: أعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ويلقي سلاحه، فألقى القوم أسلحتهم؛ وعن قتادة أن زيد بن ثابت دخل على عثمان يوم الدار فقال: إن هذه الأنصار بالباب تقول: إن شئت كنا أنصار الله مرتين؟ قال عثمان: لا حاجة لي في ذلك، كفوا، وعن نافع أن عبد الله بن عِمر لبس درعه وتقلد سيفه يوم الدار فعزم عليه عثمان أن يخرج ويضع سلاحه ويكف يده، ففعل.

ليت شعري أية شجاعة نفسية، وأي صبر يطلبه الناس وراء هذا؟ إذا كانت الشجاعة هي ضبط النفس عند النوازل في غير قلق، والصبر على المكاره من غير جزع، ومصابرة الحوادث في غير سأم، والثبات لجسام الأحداث بلا تزعزع فلم تنفرج الوالدات عن مثل عثمان في شجاعته ورباطة جأشه، وقوة يقينه وثباته على رأيه؛ فإن أحداً من الناس في مثل حال عثمان وشأنه لم يلق ما لقي عثمان ولا شيئاً منه، ولم يصبر أحد على ما لقي من البلاء والمحنة مثل ما صبر عثمان، وكيف بصبر ينتهي بصاحبه ـ على علم منه وبصيرة ـ إلى الموت قتلاً، وكان له لو كان جزوعاً،

وأراد ألا يصبر عن يقين ورضا مخارجُ ينفذ منها، ويعيش في خفض من العيش الـذليـل، ولكن عثمــان رضي الله عنـه لم يكن ضعيفــاً ولا مستضعفاً ـ كما يزعم القاصرون المقصرون ـ بل كان قوي الإيمان، عظيم اليقين، كبير النفس، عبقري الشجاعة، نبيل الصبر، نفّاذ البصيرة، ففدى الأمة بنفسه ووضع لها بذلك أعظم قواعد النظام في تكوينها الاجتماعي.

أمـا إذا كانت الشجـاعة سفكـاً للدماء، وتقتيـلاً للأبـرياء، ونهبـاً للأعمار، وسلباً للأموال وإرعاباً للآمنـين ظلمًا وعدوانـاً، فليست هذه الشجاعة من عثمان في شـيء، وليس منها عثمان في شـيء، لأنه كان من الخلفاء الراشدين الذين اصطفاهم الله بعد خاتم النبيين محمد ﷺ ليوطدوا في الإنسانية دعائم العدل والرحمة، ويسنوا بالناس سنن الهداية والرشاد، وليتأسى بهم قادة الإصلاح ودعاة الخير، وزعماء الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر.

الفصل الرابع

النافذة العظمى ـ الدعاية والإذاعة ـ مجلس شورى عثمان ـ احتجاج عثمان لبره أهل بيته وقرابته ـ وجه الحق في هذا البر ـ تأسي عثمان برسول الله ﷺ.

النافذة العظمى

كانت عناصر المجتمع الإسلامي على عهد عثمان هي النافذة العظمى التي اندفعت منها تيارات الأحداث العاصفة، ولم يكن عثمان رضي الله عنه قد حاد عن الحق في سيرته ولا فارق الجادّة في خلافته، ولا خالف قواعد العدل في سياسته، ولكن النفوس البشرية إذا أبطرتها نِعم الحياة ولم يهذبها الإيمان، وانزلقت إلى مخاطر الثورة، عميت فلا تبصر، وضلت فلا تعقل.

يقول الأستاذ الخضري في كتابه «سيرة الخلفاء»: استكمل الفتح للأمة واستكمل الملك، ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة رسول الله والمهتدون بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بكر وائل وعبد القيس، وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم؛ فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم؛ وكان لهم في الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة ونزول الوحي والملائكة؛ فلما انحسر ذلك الباب وتنوسي الحال بعض

الشـيء، وذلّ العدو، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم، ووافق ذلك أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن على ولاتـه بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان، وكان رأس الفتنة ذاك الرجل اليهودي المسمى عبد الله بن سبأ.

وكان هذا الرجل الخبيث قد فتل غزله فتلاً محكمًا، وتمكن من رؤوس العامة والغوغاء في الأمصار الإسلامية، وأصبح له في كل مصر عصابة تتصل به وتدين بمذهبه، وكانت تلك العصابات هي التي تولت إشعال نار الفتنة ونادت بخلع عثمان وانبعث صوتها من وكر الشيطان؛ ذكر الطبري: أن الكوفة خلت من الرؤساء إلا منزوع أو مفتون، فخرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع عثمان، فدخل المسجد وجلس فيه، وثاب إليه الذين كان فيه ابن السوداء يكاتبهم.

❊ ❊ ❊

اعتماد السبائية على الدعاية والإذاعة

رأى عثمان رضي الله عنه وميض الفتنة يسري تحت رماد الأحداث حتى وصل إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة ومستقر أولي الرأي من أعلام الصحابة رضي الله عنهم، وترامت الأخبار، وتناقلتها الألسن وتلقفتهـا الآذان، وعملت الدعاية عملها وتكهرب الجوّ العام بالإذاعة وفشت قالة السوء في حق أمراء الأقطار وولاة الأمصار؛ روى الـطبري عن يـزيد الفقعسي قال: وكان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء فأسلم في زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع، وقال الله عزّ

وجل: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان عليٌّ وصي محمد، ومحمد خاتم الأنبياء، وعليٌّ خاتم الأوصياء؛ ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة؛ ثم قال لهم: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيّ رسول الله ﷺ؛ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس وادعوهم إلى هذا الأمر، فبث دعاته وكاتب من كان قد استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء إلا أهل المدينة، فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

ومشى أهل المدينة إلى أمير المؤمنين عثمان يسألونه عن حقيقة ما بلغهم فقال لهم: ما جاءني عن ولاتي إلا السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ؛ فأشاروا عليه أن يبعث رجالاً إلى الأمصار للتحقق من هذه الأخبار، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وفرق رجالاً سواهم فرجع القوم كلهم، وقالوا: «ما علمنا عن أمرائك إلا خيراً» ما عدا عمار بن ياسر فإنه اختلف على عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر،، واستماله قوم انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن السوداء اليهودي وخالد بن مُلجَم، وسُودان بن حُمران، وكنانة بن بشر في قوم كانوا على مذهب ابن السوداء عبد الله بن سبأ.

لم يكتف عثمان رضي الله عنه بذلك بل كتب إلى جميع الأمصار: «إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم، وقد سلطتُ الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعيالي حق قِبَل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون، فمن ادَّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان، منّي أو من عمالي، أو تصدقوا ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾.

* * *

مجلس شورى عثمان

قدم الأمراء فوافَوا أمير المؤمنين بالموسم، فجمعهم وقال لهم: ما هذه الشكاية والإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلا بي؛ فقالوا: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن العوام؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء؟ والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الإنتهاء إليها.

هذه المقاولات والمراسلات والبعوث لكشف الحقائق من مزاعم المنحرفين الثائرين كلها مظاهر لمنهج السياسة العادلة الرحيمة التي ساس بها عثمان رعيته، وأخذ بها ولاته وعماله؛ وقد جعل من أهل المدينة - وهم سادة الأمة وأعلامها، وفيهم أعضاء مجلس شورى عمر بن الخطاب المرشحون للخلافة - مجلساً نيابياً له حق الرقابة على أعمال السلطة العليا في الدولة، وقد دَعم هذه الرقابة بقوله لهم: «أنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليَّ» وقد أخذ بمشورتهم وعمل برأيهم، وهو لا يقف عند هذا الحد، بل يعلن للأمة كلها بحق هذه الرقابة، فيطلب إلى كل من ادَّعى حقاً قِبَله أو قِبَل أحد من عماله وولاته أن يوافي الموسم ليعطَى حقه، والموسم مجتمع تتمثل فيه الأمة بكافة طبقاتها.

لم يرضَ أحلاس الفتنة عن هذه السياسة الحكيمة الرحيمة، فأمعنوا

في طغيانهم، وكشفوا عن سوء سريرتهم، فأخذ بهم أمير المؤمنين عثمان أخذاً يشبه بعض أمرهم، ولا يفارق الرحمة بهم، فاستشار فيه أمراءهم، فقال ابن عامر أمير البصرة: أرى أن تشغلهم بالجهاد، وأن تجمِّرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دَبرة دابته، وتشغلهم عن الإرجاف بك. وهذه سياسة ـ لولا ما فيها من قسوة التجمير وحديث الإذلال ـ تنزع إلى سياسة الألمعي العبقري عمر ابن الخطاب، وإلى هذا المعنى كان يرمي بقوله: «إنما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فَوَربِّ الكعبة لأحملنكم على الطريق» ولكن الإشارة بها على عثمان جاءت بعد فوات الفرصة.

وقال ابن أبي سرح أمير مصر: «استصلحهم بالمال» وهذه سياسة المُلك العضوض وشراء الضمائر واحتكار الذمم من أيسر طريق، وهي سياسة كسيحة شوهاء لا تصلح للخلافة الراشدة؛ وقال معاوية بن أبي سفيان أمير الشام: «إجعل كفايتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام» وهذا رأي مَن ملأ يده من طاعة قطره وولايته، فدانت له رعيته واستروح إليها، ورمى إلى أبعد مما ينظر الناس؛ وقال سعيد بن العاص: «هذا الأمر مصنوع، يصنع في السر فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به، فيتحدث به في مجالسهم، ومتى تهلك قادتهم يتفرقوا» وهذا مذهب في السياسة زيادي حجاجي، عرف صاحبه الداء فأحسن وصفه، ولكنه استعظم الصبر والعلاج فصاح: آخر الدواء الكي! وليس هذا مما تراه الخلافة الراشدة مذهباً في الحكم يليق بعدلها الرحيم.

سمع عثمان آراء أمرائه وعماله ثم صرفهم إلى ولاياتهم، وصحبه في طريقه إلى المدينة أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رحمه الله تعالى. ولما وصل أمير المؤمنين إلى عاصمة الخلافة دعا رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى الذين اختارهم عمر لانتخاب الخليفة بعده منهم؛ وضم إليهم عثمانُ أكابر الصحابة وذوي الرأي وعرض عليهم أمر الناس. ودارت محاورات تدخل فيها معاوية بكلام رأى فيه علي بن أبي طالب

رضي الله عنه تجاوزاً من معاوية لحدود منصبه أميراً على قطر من أقطار المسلمين، وليس عضواً في مجلس الشورى، فردّه إلى مكانه؛ وكأنما كان في كلام معاوية ورد عليّ تنبيه لأمير المؤمنين إلى بعض جذور الداء ممثلة في هذه القرابة التي حفت من حول عرش عثمان، فولاها كثيراً من الأعمال دون سابقة في الإسلام مع توفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار وأغدق عليها الأرزاق فأثرت وأترفت وتميزت على الناس، فكانت محط أنظار الثائرين وموضع نقدهم، ومرمى همزهم ولمزهم، ومصدر عيبهم وثورتهم، فليوجه أمير المؤمنين عثمان مجلس الشورى إلى قضية هذه القرابة، وليبسط رأيه ويبين وجهة نظره إزاءها، ثم يترك الحكم إلى إخوانه الذين جعلهم شركاءه وشهود المؤمنين.

* * *

إحتجاج عثمان لبره أهل بيته وقرابته

قال عثمان يخاطب مجلس الشورى: «أنا أخبركم عني وعما وليت، إن صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً؛ وإن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فأمري لأمركم تبع».

بهذا الإيجاز يبسط أمير المؤمنين حجته النيِّرة في أظهر ما أخذ عليه من الأمور، وهذه الحجة دفع قانوني لا يُدْفع، فهو يعرف أن الشيخين الصديق والفاروق، قد حرما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً لوجه الله تعالى، ولا شك أن هذا الحرمان مرتبة فوق الحق وأعلى من العدل، والشريعة الإسلامية وهي الدستور والمرجع ليس في نصوصها ما يوجب على الإمام في سياسة الرعية طريقاً غير طريق الحق والعدل، فإذا وصل الحق إلى أهله وتحقق العدل بين طوائف الأمة وأفرادها فليس على الإمام حرج أن ينفِّل من شاء بما شاء لمصلحة يراها.

ثم يشير في دفعه إلى أن قرابته أهل عيلة وقلة معاش، فهم في

حاجة إلى معونته؛ وفي هذا تلميح إلى ما يراه من فوارق بين قرابته وقرابة صاحبيه الصديق والفاروق، جعلت أقرباءه في نظره أحوج إلى المساعدة والبر؛ ولعل قرابة الصديق والفاروق كانت أقدر على الكسب والعمل لوسائل العيش من قرابة عثمان لاختلاف الأحوال، وإذا لاحظنا أن عثمان كان قبل أن يلي الخلافة شديد البر بقرابته كثير البذل لهم، فليس من شرعة المروءة التي تحث عليها الشرائع الإلهية أن يقطع الرجل بره عن أهله، أو يكف يده عن العطاء والبذل، لأنه أصبح في مكان أسمى مما كان فيه، وقد يكون ما صار إليه من مكانة عالية من موجبات الإكثار والإغداق ما دام ذلك لا يصطدم مع الحق والعدل.

وفي قول عثمان رضي الله عنه: «فبسطت يدي في شـيء من ذلك لما أقوم به فيه» إشارة إلى أنه كان يتولى منصب الخلافة ويقوم على أمور المسلمين حسبة دون أن يأخذ على ذلك مرتباً أو وظيفة من مال أو متاع؛ وكان صاحباه أبو بكر وعمر يأخذان ما يكفيهما وعيالهما من مال الدولة، ولا يختم عثمان كلامه إلا بتوكيد الرقابة الفعلية لمجلس الشورى وأعلام الصحابة على السلطة العليا في الدولة فيقـول: «فإن رأيتم ذلـك خطأ فردوه، فأمري لأمركم تبع».

* * *

وجه الحق في هذا البر

نحن الآن أمام النافذة الثانية من نوافذ الأحداث، تلك هي نافذة قرابة عثمان الذين ولاهم أمور الدولة، وأعظم لهم الهبات والعطايا، وهذه النافذة لها وجهان: وجه تنفذ منه الأحداث جملة واحدة، ووجه تنفذ منه عن طريق الأفراد الذين صنع إليهم عثمان صنيعاً كرهه الناس، أو ولاهم ولاية سخطها الناس، أو أحلهم منه محلاً اضطغنت عليهم منه القلوب؛ فأما الوجه الأول فقد أريناك فيه رأي أمير المؤمنين ووجهة نظره؛ وقد روي أن عبدالرحمن بن عوف عتب على عثمان في قرابته، فقال له عثمان: كان عمر يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي قرابتي لوجه الله. وأما الوجه الثاني

فهو ما نعرض إليه بشيء من التفصيل ناظرين إلى أولئك الأفراد الذين ولاهم عثمان أو صنع إليهم من أقربائه وأهل بيته.

لئن صدقت مزاعم قصاص التاريخ من القدامى في أن حب عثمان رضي الله عنه لقرابته بلغ ذلك الحد الذي تحدث عنه بعض رواة الأخبار، وأدّى إلى أخطر انقلاب في تاريخ الإسلام، ذهب ضحيته أمير المؤمنين صابراً محتسباً ـ إن عثمان رضي الله عنه في هذا الحب الذي خص به أقرباءه وأهل بيته من أعظم أبطال التاريخ الإنساني في جعل نفسه فداء قرابته، ولكن التاريخ إذا دوِّن في ظل الأهواء والشهوات مترجحاً بين غضب العدو ورضاء الصديق، واكتنفته الفتن، واحتضنته الإنقلابات السياسية، ولعبت به مذاهب الفرق والأحزاب لا يصلح وحده أن يكون ميزاناً لوزن الشخصيات العظيمة وقاضياً في أعمالها.

حب عثمان لأقاربه، وإحسانه إليهم، وعطفه عليهم، ورفع شأن ذوي النبوغ منهم والإستعانة بأهل القوة والمقدرة على العمل فيهم ليس غريباً عن أوضاع الحياة وطبيعتها، بل الغريب عن مألوف الحياة ومعهودها ألا يحبهم ولا يكرمهم، ولا يرفع من شأنهم، وقد أذلهم في أول الدعوة الإسلامية تقاعُسهم عن السبق إلى الإسلام، واعتزازُهم بمعزات الجاهلية ليّاً بأبصارهم عن بلج الحق، وسبقهم غيرُهم ممن كان لا يلحق بهم في أولياتهم الجاهلية إلى عزة الإسلام؛ فانزوى بعضهم، ولج في العناد آخرون حتى احتوشهم الإيمان بجحافله، فدخلوا إلى ساحة الإسلام طائعين وكارهين، وقد وجدوا في نبيلهم عثمان بن عفان ركناً شديداً يأوون إليه بعد الإيمان بالله ورسوله، وقد أعطاه الإسلام قياده وولاه المسلمون أمرهم عن رضا ومشورة منهم.

أفيكون من شرف الخلافة الإسلامية أن يبقى أقرباء أمير المؤمنين مشردين في الأرض مطرودين من حظيرة الجهاد والمشاركة في تدارك ما فاتهم من فضائل وقد باؤوا إلى الله، واطمأنت أنفسهم إلى عزة الإسلام، والمجتمع الإسلامي في اضطرابه بالدخلاء يَغض بشتيت الأجناس والأمم؟

أليس من حق عثمان وقد غدا أميرَ المؤمنين أن يضم إلى كنفه من أهله وأقاربه من حرموا السكينة والهدوء وقد آمنوا كما آمن غيرهم، والإسلام يجبُّ ما قبله؟ أوليس من حق عثمان وهو خليفة المسلمين أن يعتمد في بعض شئون ما قلد من الحكم على من يطمئن إليه من ذوي الكفاية ممن يثق به في العمل؟

إن ركون الخلفاء والملوك ورؤساء الأمم وحاكميها وزعمائها وقادتها في كل عصر ومصر إلى من يظنون فيهم الكفاية والقوة على العمل من أقاربهم، وتسليم بعض الأمر إليهم، وإنعاش فقرائهم والعطف عليهم، ومدِّ يد المعونة إليهم، وإصلاح حالهم - أمر مركوز في الطباع البشرية، وقد حثت عليه الشرائع السماوية وعنى به الإسلام أشد العناية ما دام محوطاً بعين الرقابة واليقظة.

* * *

تأسي عثمان برسول الله والشيخين

إن سيرة عثمان رضي الله عنه مجموعة مبادىء إنسانية سامية تمثل أروع جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة، وقد رأى عثمان من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم كثير غيره وعقل من الفقه والدين ما لم يعقل مثله الجمهرة ممن سواه؛ وكان مما رأى وفقه شدة حدب رسول الله ﷺ على أقاربه وبره لهم وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمه العباس ما لم يعطه أحداً، وولى علياً وهو ابن عمه وصهره، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة.

بقي في جملة هذا الموضوع أن عثمان رضي الله عنه قدَّم الأحداث من فتيان أمية أقاربه، وولاهم الولايات وقيادة الجيوش، وترك الأجلاء وأهل السابقة من الصحابة، وذلك ما تكفلت بالرد عليه سيرة رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر من بعده؛ ففي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ ولّى عمرو بن العاص رضي الله عنه قيادة الجيش في غزوة ذات السلاسل، وكان في جند ذلك الجيش أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب

رضي الله عنهما، فسأل عمرو النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة، قال: من الرجال؟ قال: أبوها، قال: ثم من؟ قال عمر بن الخطاب؛ حتى عد رجالاً لم يذكر فيهم عمرو.

وولاية أسامة بن زيد رضي الله عنه، وسنه يومئذ لا تدرك العشرين، على جيش لغزو الروم في آخر حياة النبي ﷺ، وفي جنده أكابر الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر ـ أشهر من أن تذكر. وقد استخلف أبو بكر على المسلمين وهو جندي تحت قيادة أسامة؛ وقد رغب بعض الصحابة في تغيير أسامة بقائد أسن منه، فكلموا عمر ليكلم أبا بكر، فغضب أبو بكر حتى قام وقعد! ثم قال لعمر: يا عمر، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله؟

وقد ذكر الأستاذ «كرد علي» في محاضراته الموسومة «بالإدارة الإسلامية» نقلاً عن تاريخ الطبري: أن ثلاثة أرباع عمال النبي ﷺ من بني أمية لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء، ولم يطلب أهل الإجتهاد والجهل بها والضعف عنها؛ وفي ذلك أعظم دليل على أن قيادة الجيوش، وولاية السياسة، وإدارة الحكم، إنما هي من شأن الإمام الأعظم، لا ينظر فيها إلى ثراء أو شرف قبيلة، أو قِدَم صحبة، أو كبر سن؛ بل النظر فيها إلى العلم والكفاية والقدرة على تدبير ما وسّد إلى الشخص وسياسته سياسة حكيمة راشدة؛ وفي هذا الطريق سلك أبو بكر الصديق في خلافته، فقد كان ولاته وقادة جيوشه من أهل القوة والقدرة في أشتات القبائل والبيوتات، وكان كثير منهم ممن تأخر إسلامهم؛ وعلى هذا النهج سار عمر بن الخطاب في سياسته وعماله، بل كان يحجز أهل السابقة والفضل في الدين عنده في المدينة خشية أن تفتنهم الدنيا؛ وفي ظل هذا السنن يجري عثمان رضي الله عنه في صنيعه مع قرابته والاستعانة بهم في أعمال الدولة وتوليتهم شيئاً من أمر المسلمين.

على أن تولية الأعمال قد يلتفت فيها إلى أمر آخر ينضم إلى الكفاية

الشخصية وهو بعض ما انطوى عليه قول النبي ﷺ «الأئمة من قريش»[1] وقوله: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» قال العلامة ابن خلدون معلقاً على الحديث الثاني: وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ممن لا تخرق لهم العادة في الغلب بغير عصبية؟ وقال تعليقاً على الحديث الأول: ولا بد من المصلحة في اشتراط النسب، وهي المقصودة من مشروعيتها، وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملة وأهلها، وينتظم حبل الألفة فيها.

لقد تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة فازورّ عنه الهاشميون، وهم أحد فرعي القوة في قريش، وتابعهم في ازورارهم بيوتات من قبائل أخر؛ أفليس من الحكمة السياسية حينئذ أن يعتمد عثمان على عصبيته وقومه، وهم موضع ثقته، وأحرص الناس على إنجاحه وبلوغه مقاصده في القيام على سياسة الأمة سياسة تحقق مقاصد الشارع في شيوع العدل والرحمة بين الناس؟ بلى، إن أراد التاريخ إنصافاً، وأراد الناس فهم الحقائق في صدق وإخلاص؛ وهل يمكن صاحب المنصب أن ينتفع بعصبيته إذا لم يعمل على تقريبهم منه، ورفع ذوي النبوغ إلى حيث تسمح لهم كفاياتهم وقدرتهم؟ ولأمر مَّا أنزل الله على نبيه ﷺ في بدء الدعوة قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾.

أما الأفراد من أقرباء عثمان الذين ارتبطت بهم بعض الحوادث الفردية وكانت في زعم الثائرين من المآخذ عليه، فنحن نعرض لكل فرد منهم الحوادث التي ارتبطت به، لنبين ما ظهر لنا فيها من الحق ولطف السياسة.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن والحاكم في المستدرك.

الفصل الخامس

عزل سعد وابن مسعود عن الكوفة وتوليتها الوليد ـ قصة الوليد في تهمة الخمر وموقف عثمان فيها ـ عزل الوليد وتولية سعيد بن العاص ـ عـزل أبي موسى عن البصرة وتوليتها ابن عامر.

عزل سعد وابن مسعود عن الكوفة وتوليتها الوليد

استعمل عثمان رضي الله عنه في صدر خلافته سعد بن أبي وقاص على الكوفة تحقيقاً لوصية عمر بن الخطاب في حديث الشورى إذ قال: وإن تولوا سعداً فأهلها هو، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر؛ وجعل على خراجها عبد الله بن مسعود، وقد مشيا غير طويل فاختلفا؛ ذكر الرواة أن سعداً اقترض من الخراج مالاً، فلما تقاضاه ابن مسعود صاحب الخراج لم يجد سعد له أداء، فطلب منه التأجيل، فأبى ابن مسعود، ووقع بينهما نزاع أدى إلى فُرقة وتنازع بين المسلمين؛ فتعصب لسعد قوم، وتعصب لابن مسعود قوم آخرون، وكاد ينشب بين الفريقين قتال. وكان هذا فيما يذكر المؤرخون أول شقاق حدث في الكوفة، فغضب لذلك أمير المؤمنين عثمان وخشي امتداد الفتنة، فعزل سعداً لما أداه إليه نظره واجتهاده، وولى مكانه أخاه لأمه الوليد بن عقبة؛ وكان الوليد من عمال عمر بن الخطاب، ولاه عمر على ربيعة بالجزيرة، ولم يعزله عنها، فقدم الوليد الكوفة فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج منها.

كان الوليد طَبّاً في ولايته على الكوفة، فقد حزم أهلها، وساسهم سياسة صارمة، ووجههم إلى الغزو والجهاد، وفتح البلاد ليشغلهم عن اللهو والإفساد، والخوض في أحاديث الإدارة والأمراء ونقد الولاة والعمال؛ وكان هذا رأيه في تسكين الفتنة العامة حينما استشار عثمان

أمراءه بالموسم في أمر الناس، وأقام الوليد على ولاء مع صاحبه عبد الله ابن مسعود، يحفظ له عهده، ويعرف له سابقته وفضله، إلى أن مشى بينهما المشّاؤون؛ فدب إليهما الشقاق واستشرى أمره، وخيف أن يعود إلى الكوفة ما كان أصابها في ولاية سعد وابن مسعود، فشكا الوليد إلى عثمان، فعزل ابن مسعود، وخَلصت الكوفة للوليد؛ ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد: أن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد، وكان على بيت مال الكوفة فقال: «يا أهل الكوفة، فقدت الليلة من بيت مالكم مائة ألف، لم يأتني بها كتاب من أمير المؤمنين، ولم يكتب لي بها براءة؛ فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك، فنزع ابن مسعود عن بيت المال.

لبث الوليد والياً على الكوفة خمس سنين، يسوسها بحزم وجلد كانت أحوج ما تكون إليهما من مثله؛ ففي عهده انتفضت أَذْرَبيجان، وكانت ولاية تابعة للكوفة، فغزاها حتى استسلمت وصالحت، وبث فيمن حولها من أعداء المسلمين السرايا وشن عليهم الغارات حتى وطد دعائم سلطان الإسلام عليهم، ثم لوى عنانه إلى أهل إرمينية، فرماهم بقائده سلمان بن ربيعة الباهلي في إثني عشر ألفاً، حتى شتت شملهم، وكتب إليه عثمان أن يمد أهل الشام بجيش يقوده رجل ذو خبرة ومهارة، فأمدهم بثمانية آلاف بقيادة سلمان الباهلي، وهكذا ظل الوليد مدة ولايته على الكوفة غازياً مجاهداً يسوس الناس بحزم وحكمة وقوة، إلى أن شاعت عنه قالة السوء في الخمر وزيادته بالناس في صلاة الصبح؛ وجاء الخبر إلى عثمان فتثبته بالطريق الشرعي. فلما شُهد عليه عزله وأقام عليه الحدَّ بمحضر من أصحاب رسول الله ﷺ.

* * *

قصة الوليد في تهمة الخمر وموقف عثمان فيها

روى البخاري في الصحيح: أن عبد الله بن عدي بن الخيار أخبر أن المِسور بن مَخرمة وعبد الرحمن بن الأسود قالا: ما يمنعك أن تكلم

عثمان لأخيه الوليد فقد أكثر الناس فيه؟ فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة، قلت: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك، قال: يا أيها المرء، أعوذ بالله منك، فانصرفت فرجعت إليهما، إذ جاء رسول عثمان، فأتيته فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: إن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، وكنتَ ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ فهاجرتَ الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه، وقد أكثر الناس في شأن الوليد، قال: أدركتَ رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، ولكن خلص إليَّ من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها؛ قال: أما بعد، فإن الله بعث محمداً ﷺ فكنتُ ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ ، وآمنتُ بما بعث به، وهاجرتُ الهجرتين كما قلتَ، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته، فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم أبا بكر مثله، ثم عمر مثله، ثم استُخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟ قلت: بلى، قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم؟ أما ما ذكرتَ من شأن الوليد فسنأخذ فيه بالحق إن شاء الله، ثم دعا علياً فأمره أن يجلده ؛ فجلده ثمانين.

قصة الوليد هذه كانت من أظهر الحوادث التي طنطن بها الطعانون، ولاكها كثيراً العيَّابون، وهي كما عرضناها من أصدق المصادر تشهد لعثمان بالحكمة البارعة في سياسته الرشيدة، ويظهر ذلك في أمور:

أولاً: ولىَّ عثمان الكوفة في مستهل خلافته رجلين من أجلاء الصحابة وأهل السابقة والفضل فيهم: أحدهما سعد بن أبي وقاص، كان من رجال مجلس الشورى الأعلى وكان مرشحاً للخلافة، وكان عمر ابن الخطاب ولاه الكوفة نفسها ثم عزله عنها واعتذر عن ذلك فقال: فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، فأعاده عثمان إليها؛ والآخر عبدالله ابن مسعود أحد أعلام الصحابة وعلمائهم وأرباب الفتوى فيهم. وكان ابن مسعود على بيت المال، وكان سعد على سائر ما وراء ذلك.

ولاَّهما عثمان مجتمعين فاختلفا، ووقع بينهما من التنازع ما أدى إلى افتراق المسلمين وتحزبهم للأميرين، وهذا داء عياء لا يحسمه الصلح

والمهادنة؛ فرأى أمير المؤمنين أن ينزع من الولاية من ظهر له أن نزعه أقرب إلى السياسة الحكيمة؛ فعزل سعداً، وكان عذره في عزله هو عذر عمر بن الخطاب، فما وسع عمر لا يضيق عن عثمان في شرعة الإنصاف؛ وقد يزيد في تسويغ عمل عثمان إزاء سعد أنه كان بينه وبين أهل الكوفة في عهد عمر خصومة دعت إلى نزعه عنها، فلعل صدورهم لم تكن قد صفت له، وهذا مما يدعوهم إلى تحريك الفتنة نحوه كلما سنحت لهم سوانحها، وقد فتح لهم باب الخلاف بين الأميرين فخبُّوا فيه وأوضعوا؛ فكان من الحكمة السياسية تخليته عن الولاية على هؤلاء؛ ثم ولّى مكانه من رجحت عنده كفايته لسياسة هذا البلد الذي أعيا الولاة، واستجار منه عمر من قبل؛ ثم تجدد الخلاف بين الوالي الجديد وزميله في الولاية عبدالله ابن مسعود على أمر يتعلق بأموال الدولة، ورفع النزاع إلى أمير المؤمنين ليفصل فيه بما يراه أصلح وأرشد.

ثانياً: رأى الخليفة بعد هذه التجربة أن الولاية لا تصلح على الشركة، فوحَّدها للوليد، وصرف ابن مسعود رضي الله عنه، لأنه لم يكن من قادة الجيوش وأصحاب الولاية العامة، وإنما كان من العلماء الذين يحذقون موارد المال ومصارفه الشرعية، ومن عرف الكوفة وخبر حالها وكثرة تشكيها من ولاتها وفتنها وتحزباتها، وذكر قول عمر بن الخطاب، وقد شكا إليه أهلها أميرهم سعد بن أبي وقاص: «من يعذرني من أهل الكوفة؟ إن وليتهم التقي ضعَّفوه، وإن وليتهم القوي فجَّروه» وفي رواية «أعياني أهل الكوفة، فإن استعملت عليهم ليِّنا استضعفوه، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه» مَن عرف ذلك كله أدرك حسن سياسة عثمان وحذقه في رمي الكوفة بالوليد بعد عزل الصحابيين الجليلين لأمر سوَّغته السياسة الرشيدة، وليس في هذا العزل ما يمسهما، وقد كان عمر بن الخطاب يولي الرجل ويترك من هو أفضل منه، من أهل السابقة في أصحاب رسول الله ﷺ، نظراً إلى القوة على العمل والبصر بالسياسة؛ وكان يقال له: ما لك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ فيقول: أكره أن أدنسهم بالعمل؛ وكان يقول: إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه. وعمر

رضي الله عنه أول من أخذ بمبدأ «التقي الضعيف له تقاه، وللخليفة ضعفه؛ والقوي الفاجر للخليفة قوته، وفجوره على نفسه» وقد ثبت أن النبي ﷺ ردَّ أبا ذر رضي الله عنه، ولم يرض أن يوليه استضعافاً له عن تحمل أعباء الإمارة، وأبو ذر من الفضل بمكانه المعروف. وقد أبى أبو بكر الصديق أن يعزل خالد بن الوليد مع إلحاح عمر عليه بذلك، وكان يحتج لعدم عزله بقوته على عمله ويقول: لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين، وهو يرى أن في أصحاب رسول الله ﷺ من هو أفضل من خالد، ولكن ليست لهم قوته في قيادة الحروب.

إذا كانت هذه سياسة رسول الله ﷺ والعمرين من بعده، وقد اتفق الناس على أنها أحكم سياسة وأحزمها، فأي عيب على عثمان في أن يسير على نهجها؟ أفليس له أسوة في رسول الله ﷺ كغيره من سائر المؤمنين؟ أو ليس له من حقوق الخلافة والإمامة العظمى مثل ما كان لصاحبيه أبي بكر وعمر؟ بل وأيم الحق، وإلا فلِم كان إماماً؟ وما الذي يبقى له من معنى السلطان إذا حُجر عليه عزل أمير وتولية أمير؟

ثالثاً: اتُّهم بعض أهل الكوفة الوليد بمقارفة حد من حدود الله تعالى بعد أن لبث والياً عليهم خمس سنين لم يُزنَّ بريبة، ولم يُرْم بحوبة، ولم يكن لداره باب؛ وقد تضاربت الروايات التاريخية في شأن هذا الإتهام لأمير من أمراء الإسلام تضارباً عجيباً؛ فبعض الروايات يؤكد أن الوليد أصاب ما أوجب إقامة الحد عليه، وأن الإستهتار بلغ به حداً جعله يصلي بالناس الفجر أربع ركعات ثم يلتفت إليهم قائلاً: لو شئتم لزدتكم. ونحن لا نشك أن في هذه الرواية وأمثالها سخرية بعقول الناس، وإلا فهل بلغ الجهل والامتهان بجماعة المسلمين في قطر من أعظم أقطار الإسلام ـ وهم يصلون مع الأمير في المسجد الجامع، وفيهم من علماء الصحابة وسادة التابعين من لا يرضى دون ذلك في الدين ـ أن يتابعوا في صلاتهم سكران مخمور العقل حتى يصلي بهم الصبح أربعاً، ثم يقول لهم ما قوَّله الخارجون المنحرفون؟ هذا غريب جداً في حياة المسلمين الأولين!

وبعض الروايات يرى أن الوليد براء من هذه الجريمة النكراء، وأنه مكذوب عليه فيها؛ روى الطبري: أن الوليد قدم الكوفة وكان أحب الناس في الناس، وأرفقهم بهم، فكان ذلك خمس سنين، وليس على داره باب، ثم إن شباباً من شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيْسَمان الخزاعي فقتلوه، وأحاط بهم الناس وأُخذوا؛ وكان فيهم زهير بن جندب، ومُوَرِّع بن أبي مورع الأسدي، وشُبَيل بن أبيّ الأزدي في عدة؛ فشهد عليهم أبو شريح الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله ﷺ، وابنُه، وكانا جارين لابن الحيسمان، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان، فكتب إليه عثمان في قتلهم، فقتلهم الوليد؛ ثم إن الوليد أتاه صديق له نصراني، يدعى أبا زَبيد، كان الوليد قد انتصر له في بني تغلبَ حينما كان على الجزيرة من قِبَل عمر بن الخطاب، وكان أبو زَبيد نازلاً في بني تغلب، وهم أخواله، فاضطهدوه، فأخذ له الوليد بحقه، فشكرها له أبو زَبيد، وانقطع إليه؛ فلما وُلي الوليد الكوفة أتاه أبو زَبيد مسلِّمًا معظِّمًا على مثل ما كان يأتيه في الجزيرة والمدينة، فلم يزل به الوليد يدعوه إلى الإسلام حتى أسلم وحسن إسلامه فكان من خاصته، وكان أبو زبيد عربياً شاعراً، فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورِّع وجندباً ـ وهم يحقدون على الوليد مذ قتل أبناءهم، ويضعون له العيون ـ فقال لهم: هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد؟ فثاروا في ذلك، فقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة: هذا أميركم وأبو زبيد خيرته، وهما عاكفان على الخمر، فقاموا معهم، ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة ابن عقبة، وليس عليه باب، فاقتحموا عليه المسجد وبابه إلى المسجد، فلم يُفجأ الوليد إلا بهم فنحى شيئاً فأدخله تحت السرير، فأدخل بعضهم يده فأخرجه، لا يؤامره، فإذا طبق عليه تفاريق عنب، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب، فقاموا، فخرجوا على الناس، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وسمع الناس بذلك فأقبلوا عليهم يسبُّونهم ويلعنونهم، فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء، وكره أن يفسد بينهم، فسكت عن ذلك وصبر.

وفي رواية أخرى: أن جندباً ورهطاً معه جاؤوا إلى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر، وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس، فقال ابن مسعود: من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته، ولم نهتك ستره؛ فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك، وقال: أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت علي؟ أي شيء أستتر به؟ إنما هذا للمريب!

ثم إن أبا زينب وأبا مورع سرقا خاتم الوليد فقدما به على عثمان في نفر ممن يعرف عثمانُ ممن قد عزل الوليدُ عن الأعمال، فقالوا له، فقال لهم: من يشهد؟ قالوا: أبو زينب وأبو مورع، وكعّ غيرهما؛ فقال عثمان: كيف رأيتماه؟ قالا: كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر، قال عثمان: ما يقيء إلا شاربها، فبعث إليه، فلما دخل على عثمان رآهما فقال متمثلاً:

ما إن خشيت على أمر خلوت به　　　فلم أخفك على أمثالها حار

فحلف الوليد لعثمان وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نقم الحدود، ويبوء شاهدا الزور بالنار، فاصبر يا أخي!

فليتأمل الأريب هذه الروايات وما حملت في أثنائها من شبه ورَيب! فبعضها يقول إن هذا الحادث وقع وعبد الله بن مسعود في الكوفة وقد شكوا إليه الوليد، فردهم رداً رأى فيه الوليد بعض اللين من الصحابي الجليل فعاتبه؛ وكأن ابن مسعود قبل معاتبة الوليد، لأن الرواية لم تذكر له رداً عليه؛ فهل كان هذا العيلم من أصحاب محمد ﷺ فيمن صلى بهم الوليد الصبح أربعاً ثم استزادهم، وسكت على هذه الدنية وترك بأمرها إلى أبي زينب وأبي مورع وجندب وأمثالهم ممن لا صحبة لهم ولا سابقة؟ وهل يعقل أن أميراً وتر قوماً في أبنائهم بحق الله تعالى، وليس على داره باب ولا حجاب، يعتكف على الخمر في دار هذا شأنها وبابها إلى المسجد؟ ومع هذا أو ذاك فانظر إلى موقف الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه في هذا الحادث، فإنه أصفى المواقف، رأى إذاعة السوء على الوليد سارت بين الناس، فاسْتثبت الأمر من طريقه الشرعي وليس له طريق في هذا

المقام إلا الشهادة، فسمعها ولم يتردد في عزل الوليد وإقامة الحد عليه، ولم يقبل منه طعناً في الشهود بأنهم موتورون منه لقتله أبناءهم بتسورهم على ابن الحيسمان، وكان أقصى ما قاله له: لا يضرك ذلك، إنما نعمل بما ينتهي إلينا، «فمن ظَلم فالله ولي انتقامه، ومن ظُلم فالله ولي جزائه». فأي عيب في ذلك كله على عثمان رضي الله عنه لو أنصف التاريخ وفقه الناس؟

* * *

تولية سعيد بن العاص على الكوفة

عزل عثمان أخاه الوليد، وولى مكانه سعيد بن العاص ليقمع صلف أهل الكوفة، ويَفُلَّ حدهم، ويكفكف غربهم فلما قدم سعيد إلى الكوفة ـ وفي صحبته الأشتر النَخعي، وأبو خَشَّة الغِفاري، وجندب ابن عبد الله، وأبو مصعب بن جُثامة، وكانوا فيمن شخص مع الوليد يعيبونه، فرجعوا مع سعيد في ركابه ـ صعِد منبر مسجدها الجامع فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «لقد بُعثت إليكم وإني لكاره، ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر؛ ألا وإن الفتنة قد أطلعت خَطمها وعينيها، والله لأضربن وجهها أو تعييني، وإني لرائد نفسي اليوم» ثم نزل وأخذ في تعرف أحوال الناس حتى وقف منها على سوء كثير، فكتب إلى عثمان: «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب على أهل الشرف والبيوتات منهم، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت، وأعراب لحقت، حتى لا ينظر إلى ذي شرف أو بلاء من نابتتها ولا نازلتها؛ فكتب إليه عثمان: «أما بعد، ففضل أهل السابقة والقدم، ومن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن نزلها منهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوه وقام به هؤلاء، واحفظ لكلٍّ منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل».

استجاب سعيد بن العاص لأمر الخليفة فجمع حوله أهل البيوتات وأصحاب الأيام والقراء والمتسمين، وجعلهم حاشيته وخاصته وأهل

سمره، فأبى أهل الكوفة خاصتهم وعامتهم إلا كفران النعمة والتشبث بقرن الشيطان، فانقلبوا على أميرهم الجديد، أشد من انقلابهم على سلفه الوليد، وكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى الثائرين المفتونين أضرابهم، وفشت القالة بالقدح في عثمان وولاته، وصبر عليهم سعيد حتى لامه في أمرهم بعض ذوي البصيرة والعقل من أهل الكوفة ثم كتب إلى عثمان فيهم، فأمره بحملهم إلى معاوية بالشام، فلما قدموا على معاوية أكرمهم وأحسن وفادتهم، فلم يزدهم الإحسان إلا بطراً وأشراً، واستخفوا بمعاوية، واعترضوا على ولايته، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولاني، وأدخلني في أمره، ثم استُخلف أبو بكر فولاني، ثم استُخلف عمر فولاني، ثم استُخلف عثمان فولاني، ولم يولني إلّا أحد وهو راض عني، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المؤمنين والغَناء، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها، وإن الله ذو سطوات ونقمات، يمكر بمن مكر به، فلا تتعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون، فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم وقد قال الله عزّ وجل ﴿ آلمٓ . أحسِب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾.

ولما رآهم معاوية ممن أضلهم الله على علم كتب إلى عثمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين، من معاوية بن أبي سفيان. أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن، فيشبِّهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فُرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغرُّوهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم. والسلام». فأمر عثمان بردهم إلى سعيد ابن العاص، فازدادوا عتواً وطغياناً، فضج منهم سعيد إلى عثمان، فأرسل إليه

أن سيرهم إلى عبد الرحمن بـن خالد بن الوليد بحمص، فلما قدموا على عبد الرحمن قال لهم: يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم، ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ في نشاط، خسر الله عبدُ الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم، يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم؟ لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من عجمته العاجمات، أنا فاقىء عين الردة، والله يا فلان، لئن بلغني أن أحداً ممن معي دق عنقك ثم أمصّك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى فأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم خلفه حتى تابوا إلى الله، فأقالهم عبد الرحمن، ولكن الفتنة كانت قد باضت في أدمغتهم، وأفرخت في قلوبهم، فلم تصدق لهم توبة، ولم يسكن لهم تدبير؛ ولكنهم استكانوا إلى حين. لمّا وجدوا من عبد الرحمن بن خالد صرامة وبطشاً، وتربصوا لأنفسهم فرصة حتى إذا حانت لم يُفلتوها، وعادوا إلى أخبث مما كانوا؛ وأتوا إلى أميرهم سعيد بن العاص أشد مما أتوا إلى الوليد بـن عقبة، الذي افتروا عليه الكذب في حد من حدود الله تعالى.

ذلك أن سعيد بن العاص رحل إلى المدينة ليطلع الخليفة على حقيقة الحال في أهل الكوفة، فكتب من كان بالكوفة من أحلاس الفتنة إلى أولئك الذين سيّرهم سعيد إلى حمص يخبرونهم برحلة سعيد، فاجتمع رأيهم جميعاً على المسير إلى عثمان يستعفونه من ولاية ابن العاص عليهم، وبينما هم سائرون إلى المدينة لقيهم سعيد وهو راجع إلى عمله فأخبروه خبـرهم، فقال: كان يكفيكم أن ترسلوا إلى عثمان رجلاً، وإليَّ رجلاً، ثم رجع إلى عثمان وأخبره أنهم يريدون البدل بي، ويحبون أبا موسى.

* * *

أبو موسى الأشعري بين البصرة والكوفة:

استجاب عثمان لأهـل الكوفـة فعزل عنهم ابن عمـه سعيد ابن العاص، وولىّ عليهم أبا موسى الأشعري لأنهم اختاروه، وكتب إليهم: «أما بعد فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، ووالله

لأقرضنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه ولا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا تكون لكم عليَّ عند الله حجة، ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون».

كان أبو موسى رضي الله عنه والياً على البصرة من قِبَل عمر ابن الخطاب، ولما استخلف عثمان أقره على عمله، وأبو موسى أحد أعلام الصحابة وفقهائهم وذوي الفضل فيهم، ولكن الفضل والعلم والفقه في أصحاب رسول الله ﷺ لم تكن من قبلُ تغني شيئاً عند أهل الكوفة، فقد شكوا سعد بن أبي وقاص، وقالوا: إنه لا يحسن يصلي، فكذلك الفضل والعلم والسابقة لا تغني شيئاً عند إخوانهم أهل البصرة، فقد شكوا أبا موسى الأشعري إلى عمر فعاتبه عمر ولم يعزله، وفي خلافة عثمان كثرت شكايتهم، واضطرب حبل الأمن في البصرة، وسعت إليها الفتنة فولجت على أهلها فكأنما كانت منهم على ميعاد. قال الطبري: لما كانت السنة الثالثة من ولاية عثمان كفر أهل أَيْذَج والأكراد، فنادى أبو موسى في الناس، وحضهم وندبهم وذكر من فضل الجهاد في الرُّجْلة حتى حمل نفر على دوابهم، وأجمعوا أن يخرجوا رجالاً، وقال آخرون: لا والله، لا نعجل حتى ننظر ما صنيعه؟ فإن أشبه قوله فعلُه فعلنا كما فعل أصحابنا، فلما كان يوم خرج، خرج ثقله من قصره على أربعين بغلاً، فتعلقوا بعنانه، وقالوا أحملنا على بعض هذه الفضول، وارغب من الرُّجْلة فيما رغبتنا فيه، فقنعهم حتى تركوا دابته ومضى، فاستعفوا عثمان منه فأعفاهم.

* * *

تولية عبد الله بن عامر على البصرة

لقد حذا أهل البصرة مع أميرهم أبي موسى الأشعري حذو أهل الكوفة مع أخويه الصحابيين الجليلين سعد بن أبي وقاص وعبد الله ابن مسعود، فحذا بهم أمير المؤمنين عثمان حذو أولئك، فعزل عنهم أبا موسى وولَّى عليهم عبد الله بن عامر، وكان من فتيان قريش صدق

عزيمة، وحزم سياسة، وجلداً على الأحداث، فغزا بهم ووجههم إلى الجهاد في سبيل الله وفتح بهم البلاد، وسكن بورات، ووطد في فارس وما صاقبها قواعد الإسلام حتى قيل له: ما فتح الله على أحد مثل ما فتح عليك فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان، فقال: لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقفي هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور.

وقصة ابن عامر ليس فيها إلا استبدال مفضول بفاضل في الدين والقدم والسبق إلى الإسلام، وقد عرفنا أن شأن الولاية لا علاقة له بهذا النحو من الفضل، وإنما ينظر فيه إلى الكفاية والغَناء في ضبط الأمور وسياسة الناس سياسة يسكن إليها الخاص والعام، على أن عثمان أعاد أبا موسى إلى العمل بعد أن عزله عن البصرة، فقد ولاه الكوفة لما رغب أهلها فيه، وعزل عنها أحد أبناء عمومته سعيد بن العاص، وكتب لهم عثمان ذلك الكتاب الذي قدمناه، وهو يصور موقف الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه من هذا المجتمع المختلف الأهواء.

الفصل السادس

الحكم بن العاص وابنه مروان في مسرح التاريخ ـ تزوير كتاب بقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه ـ مؤامرة بلهاء ـ تحقيق قضائي ـ تزوير الكتب على غير عثمان ـ مروان وقصة «فدك» وغنائم إفريقية.

الحكم بن العاص وابنه مروان في مسرح التاريخ

كان مروان بن الحكم من أخص أقرباء عثمان به، وأوثقهم صلة بمركز الخلافة، وألصقهم بالأحداث التي عصفت بالوحدة الإسلامية في عهد عثمان رضي الله عنه، فكان منه بمنزلة كاتم سر الدولة، أو حامل ختم الملك، وقد يعدل منصبه في الخلافة العثمانية منصب رئيس ديوان الملك في عصرنا الحاضر؛ وقد لعب دوراً خطيراً، أو بالحري لعب مركزه ومكانه من الخليفة أخطر دور في تلك الأحداث التي انتهت بالخلافة إلى أحضان أبنائه وأحفاده من بعده، فقد توجهت إليه نظرات الغَيرة من أترابه وأقرانه من أبناء الصحابة وأهل السابقة، ممن يرون أنفسهم أحق منه بهذه المكانة في الدولة، فعصب به التاريخ كثيراً من الحوادث وقرنها باسمه بعد ما أضاف إلى أبيه «الحكم بن العاص» ذَرْواً منها.

كان مما ذكره المؤرخون في مآخذ الثائرين على عثمان أنه ردّ على عمه الحكم بن العاص اعتباره بعدما أُهدر ذلك الاعتبار طَوال عهد النبي ﷺ، وعهد الخليفتين بعده أبي بكر وعمر، وكان الحكم طريد رسول الله ﷺ، نفاه من مكة إلى الطائف، فرجعه في خلافته إلى مكة، ووصله من بيت مال المسلمين بصلة عظيمة؛ والروايات الصحيحة لم تثبت هذه الصلة.

أما ردّ الحكم من الطائف إلى مكة، فذلك إنما فعله عثمان بإذن من النبي ﷺ ووعد منه، ومن عرف مكانة عثمان من النبي ﷺ وعرف موضعه بين أهله وعشيرته بني أمية لم يستبعد هذا الإيمان الذي عمل عثمان بمقتضاه حين صار إليه الأمر، وقد رضي رسول الله ﷺ من عثمان أكثر من رد الحكم، فقد ثبت أنه جاء بأخيه من الرضاع عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وكان قد ارتد بعد إسلامه، وافترى الكذب على النبي ﷺ، وأرجف به، فأهدر دمه، فأخذ له عثمان أماناً، وجدد له إسلامه، وقبل منه النبي ﷺ وعفا عنه، ورسول الله أجل قدراً من أن يقر شيئاً ويقبله دون أن تطيب به نفسه، ولا سيما بعد فشو الإسلام وظفر المسلمين بأعدائهم، وبسط سلطانهم عليهم، وانكشاف أمر المنافقين وافتضاح حالهم، ولم يكن الحكم بن العاص - على عظيم جرمه قبل الإسلام - بأعظم ذنباً من ابن أبي سرح وسواه ممن تابوا فتاب عليهم؛ ولم يكن حظ الحكم بن العاص مثل حظ ابن أبي سرح الذي فاز برد اعتباره في حياة النبي ﷺ وعلى يديه ورضائه، ولعل هناك حوائل كانت خارجة عن طوق عثمان حالت دون تسوية مسألة الحكم كما سويت مسألة ابن أبي سرح في حياة رسول الله ﷺ؛ وهذه كلها أمور جرت في أخريات حياة النبي ﷺ، والحوادث تتابع سراعاً، وليس الشأنُ في التماس العفو عن الآثمين إذا تعاظمت آثامهم إذاعته وإفشاءه، لأن ذلك يجدد لهؤلاء صور جرائمهم، ويشينهم أشد الشين أن يتحدث الناس في شأن آثامهم. على أن التماس العفو ورد الإعتبار إنما يأخذ طريق السؤال والرجاء والإستعطاف في ظل الكتمان، واقتناص المناسبات الصالحة، حتى لا يضع الناقمون على هؤلاء الآثمين العقبات في طريق الرضا عنهم.

واعتماداً على هذا الوعد الذي تلقاه عثمان من رسول الله ﷺ طلب من أبي بكر في خلافته أن يرد الحكم من الطائف إلى بلده مكة، فاعتذر أبو بكر بأنه لم يسمع الوعد برده، وهذا لم يكن تكذيباً لعثمان، ولكنه من دقيق فقه الصديق، ونافذ علمه بأحكام الشريعة وحكمها، وهو شيخ الراشدين، يقع علمه عند الأمة موقع عمل المشرع المقتدى به.

ذلك أن طرد الحكم إلى الطائف ثبت ثبوتاً لا شبهة فيه، وعرف واشتهر لدى عامة الأمة، والوعد برده لم يطلع عليه سوى عثمان، وهذه شهادة يقضي بها، وليس في الشريعة قضاء بشهادة شاهد واحد مجردة عن القرائن ودلائل الحال، والقرائن هنا بعيدة المنال، وليست هذه الحادثة مما ثبت فيه الإستثناء بقبول شهادة الواحد، وعلى هذا النهج الفقهي المحكم سار عمر بن الخطاب أيضاً في خلافته، إذ طلب منه عثمان ما طلبه من الصديق فأبى عليه معتذراً بما اعتذر به أبو بكر. فلما وُلِّي عثمان الخلافة قضى في أمر عمه الحكم بعلمه، والقضاء بعلم الحاكم رأي مسدد في الفقه الإسلامي، مردود إلى أصل من أصول الشريعة الإسلامية، وإليه ذهب بعض أئمتها استناداً إلى هذا ونحوه؛ وعثمان رضي الله عنه خليفة راشد وإمام المسلمين، وأحقهم بالاجتهاد في الدين، وسنته من سنة النبي ﷺ بشهادة الحديث الصحيح «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

أما شأن مروان بن الحكم في هذه الأحداث فقد لج فيه التاريخ، وأبدى وأعاد وتزيَّد وتنقص، وتكثَّر وتقلل، حتى عُمِّيت الحقائق على الناظرين، وغاب كثير منها في طوايا الأقاصيص. وأبرز ما نسب من الحوادث إلى مروان ثلاث:ـ

الأولى: حادثة الكتاب المزعوم بقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه بعد أن ولاه عثمان على مصر خلفاً لعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

الثانية: إعطاء مروان «فدك» طعمة له، وهي صدقة رسول الله ﷺ.

الثالثة: إعطاء مروان خمس غنائم إفريقية هبة له دون سائر المسلمين.

وتحقيق هذه الحوادث الثلاث يكشف عما أحاط بالتاريخ الإسلامي في هذه المرحلة من اضطراب وخلط، ودس للأكاذيب، وتزوير على الأشخاص، ومن عجيب أمر هذا التاريخ أنه هو نفسه يحمل الرد على

تلك الأكاذيب التي كانت بلاء فادحاً على الإسلام والمسلمين، ولكنها اشتهرت أو شُهرت وذاعت بين الناس، فقبلتها العامة، وتعامت عن تحقيقها الخاصة؛ لأن الجوَّ الذي دوِّن فيه هذا التاريخ كان لا يسمح لنور الحقيقة أن يلقي أشعته على الأباطيل فيبددها. وإذا صح أن يلتمس للقدامى بعض العذر في قبول هذا وتدوينه، فأي عذر يمكن أن يلتمس لمن بعدهم في تركه والسكوت عليه دون نقد وتمحيص؟.

* * *

تزوير كتاب بقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه

فأما كتاب محمد بن أبي بكر فملخص ما جاء عنه في كتب التاريخ، أن أهل مصر شكوا إلى عثمان من عاملهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فنهاه عثمان وكتب إليه يهدده، فلم تنقطع الشكاية منه ـ ومصر كانت أفحوص السبائيين ـ واستشرى ما بين أهل مصر وعاملهم، فقال لهم عثمان: إختاروا رجلاً أُولِّه عليكم، جرياً على سنته وسنة عمر بن الخطاب في تغيير الولاة إذا سخطت رعيتهم إمارتهم عليها، فاختار المصريون محمد ابن أبي بكر، فكتب إليه عثمان عهده بالولاية على مصر، وأخرج معه نفراً من المهاجرين والأنصار، لإصلاح ذات البين. قال الرواة: ولما كان محمد ابن أبي بكر وأصحابه على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا بغلام أسود على بعير يخبط الأرض كأنه يَطلب أو يُطلب، فقال له القوم: ما شأنك؟ كأنك طالب أو هارب! فقال: أنا غلام أمير المؤمنين، وجهني إلى عامل مصر، فقالوا: هذا عامل مصر معنا، فقال: ليس هذا أريد؛ فأخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه، فأتوا به، فقال له: غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول: غلام أمير المؤمنين، ومرة: غلام مروان، حتى عرفه رجل منهم أنه لعثمان؛ فقال له محمد: إلى من أرسلت؟ فقال: إلى عامل مصر، قال: بماذا؟ قال: برسالة، قال: أمعك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يوجد معه شيء إلا إداوة قد يبست، فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فك الكتاب

بمحضر منهم فإذا فيه «إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وابطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيي واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله».

فلما قرأوا الكتاب رجعوا إلى المدينة فزعين، وشكوا أمرهم إلى أكابر الصحابة، فقام علي بن أبي طالب ودخل على عثمان رضي الله عنهما ومعه الكتاب والغلام والبعير، وقال له: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، والبعير بعيرك؟ قال: نعم، والخاتم خاتمك؟ قال: نعم، فأنت كتبت الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبت الكتاب، ولا أمرت به، ولا وجهت الغلام إلى مصر قط، فشكّوا في الأمر، وعلموا أن عثمان لا يحلف باطلاً؛ واتهموا مروان بن الحكم، وطلبوه من عثمان، فأبى عليهم تسليمه خشية أن يقتلوه؛ فهاج الثائرون، وكانوا من المصريين والكوفيين والبصريين، ومن انضم إليهم من جفاة الأعراب؛ فأحاطوا بدار عثمان، ولزم أهل المدينة بيوتهم، وخرج عليٌّ كرم الله وجهه من المدينة.

ولما رأى عثمان رضي الله عنه تكاثر الثائرين ومنعهم الناس من الاجتماع، كتب إلى أهل الأمصار: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإن الله عزّ وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، فبلغ عن الله ما أمره به، ثم مضى، وقد قضى الذي عليه؛ وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه، وبيان الأمور التي قدَّر، فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا، فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم أُدخلت في الشورى على غير علم ولا مسألة، على ملأ من الأمة، ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب منيٍّ ولا محبة، فعلمت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون، تابعاً غير مستتبع، متبعاً غير مبتدع، مقتدياً غير متكلف؛ فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا تُرَّة فيما مضى، إلا إمضاء الكتاب؛ فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره، بغير حجة ولا عذر، فعابوا عليَّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة، لا يصلح غيرها؛ فصبرت لهم نفسي،

وكففتها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا عليَّ جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ، وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب؛ فهم كالأحزاب أيام الأحزاب، أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق».

ولكن قضاء الله تعالى كان قد نفذ، ووقعت الطامة التي زعزعت الحكم الراشد في الإسلام، وقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان مظلوماً صابراً، راسخ الإيمان قوي اليقين، محتسباً نفسه عند الله فداء لجماعة المسلمين لو نفع الفداء!

* * *

مؤامرة بلهاء

هذه قصة الكتاب المزعوم، وحكاية الغلام المشؤوم، كما يرويها أهل القصص من المؤرخين، وهي قصة - كما ترى - يستحي الباحث في عصرنا أن يراها مدونة في كتب تعد من مصادر التاريخ، وكانت حرية أن تكون بين أساطير التسلية وتزجية أوقات الفراغ لأهل البَطالة والكسل، فيروعهم ما فيها من حيل وشطارة، ويعجبهم ما اشتملت عليه من أكاذيب واستهتار بسفك الدماء، وانتهاك الحرمات!

قصة تحمل شواهد وضعها وبطلانها في كل حرف من حروفها، بل هي تنادي على واضعيها بالبله وبلادة الذهن وضيق الخيال؛ فكيف يعقل أن يولي عثمان محمد بن أبي بكر مصر ويكتب له بعهده عليها، ويبعث معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ثم يأتي إنسان له مُسكة من عقل، مروانُ أو غيره، يريد نقض ما أبرمه الخليفة، فيرسل في الطريق نفسها التي يسلكها محمد وأصحابه، بغلام الخليفة على بعيره، ويختم بخاتمه كتاباً يأمر فيه بقتلهم؟ هذا بعيد عن تصور الممرورين بله العقلاء، والحق أنه لم يكن هناك كتاب بقتل أحد، لا من عثمان ولا من مروان، ولا كان هناك غلام أسود أو أبيض، ولا كان هناك ناقة ولا جمل؛ ولكن الذي كان إنما هو تدبير شيطاني خبيث، وكيد أثيم، وتآمر من حزب السبائيين أشياع رأس

الشر وجرثومة الفساد ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهـودي لتقويض الخلافة الإسلامية وإشعال نار الفتنة وهدم بنيان الإسلام.

* * *

تحقيق قضائي

ونحن إذا أخذنا أنفسنا بتحقيق هذه القضية رأينا أن أمير المؤمنين عثمان لما شكا إليه الناس من بعض عماله أشكاهم وبدلهم بهم غيرهم، فـرضي الناس عن إمـامهم وولاتهم؛ ولكن أهـل البغي والفسـاد من السبائيين رأوا أن الأمر كاد يفلت من أيديهم، وكانوا قد اتعدوا المدينة في موسم الحج حيث يجتمع خاصة الناس وعامتهم، وفي العامة يسرع النعيق بهم فيسرعون إلى الاستجابة في غير روية أو تفكير، فلما اجتمعوا ورأوا ما ساءهم وأكمدهم من انصراف الناس عن الموسم راضين عن خلافتهم الرحيمة الراشدة، أكربهم ذلك وأشجاهم، فقاموا له وقعدوا، ومكروا ودبروا، وفتلوا في الذروة من غارب الفتنة، وخرجوا على الناس بقصة هذا الكتاب المزعوم، وذلك الغلام الأسود المشؤوم، وعادوا من حيث كانوا متجمعين يصيحون في طرقات المدينة بالويل والثبور، وعظائم الأمور، فذهل أهل المدينة واستغربوا رجوعهم بعد الرضا والإذعان، وبعد إجابتهم إلى ما طلبوا وإعفائهم من الولاة الذين رغبوا عنهم، واستبدال من رغبوا فيهم بهم؛ قال الطبري: ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلموهم، وفيهم عليٌّ رضي الله عنه؛ فقال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا، وأتاهم طلحة، فقال البصريون مثل ذلك، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك، وقال الكوفيون والبصريون: نحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً، كأنما كانوا على ميعاد، فقال لهم عليٌّ: كيف علمتم يا أهل الكوفة، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة!! قالوا: فضعوه كيف شئتم، لا حـاجة لنا في هذا الـرجل، ليعتزلنا.

وفي سيرة الخلفاء للأستاذ الخضري رحمه الله: أن الذي كشف المؤامرة هو محمد بن مسلمة، فقد أتى المصريين فقال لهم: ما الذي رجعكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا، ثم سأل البصريين، فقالوا لننصر إخواننا، وكذلك قال الكوفيون، فقال لهم الألمعي محمد بن مسلمة: كيف علمتم بما لقي إخوانكم أهل مصر، وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم إلينا جميعاً؟ هذا أمر أبرم بليل!! فقالوا: اجعلوه كيف شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا. فأخذوا الكتاب منهم، وسألوا عثمان عنه؟ فقال: والله ما كتبت، ولا أمرت، ولا علمت، فقال عليٌّ: صدق عثمان وأمّن على كلام عليّ من كان معه من كبار الصحابة، فقال الثائرون من المصريين وأشياع ابن سبأ اليهودي: إذاً من كتبه؟ فقال عثمان: لا أدري، قالوا: فيُجترأ عليك، ويُبعث بغلامك وجمل من إبل الصدقة، ويُنقش على خاتمك، ويُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدري؟ قال: نعم، قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا؛ وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه، فاخلع نفسك؛ فقال: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله.

قال الأستاذ الخضري في سيرة الخلفاء: ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب، إذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم في طرق مختلفة؟

قلنا: بلى، قد ألهم الله حكيم الإسلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كما في رواية الطبري، أو الألمعي محمد بن مسلمة كما ذكره الأستاذ الخضري نفسه في سيرته، فألقى ظلاً كثيفاً من الشك على قصة هذا الكتاب المزوَّر، والغلام الأسود المختلق على عثمان أو على مروان، وفضح أمر المزوِّرين، واحتج بالحجة نفسها التي ساقها الخضري حتى أُفحم المزوِّرون، فلم يجدوا شبهة يتشبثون بها حينما ناقشهم فجبههم بهذا الدليل

الماديّ، إذ قال للبصريين والكوفيين: كيف علمتم بما لقي إخوانكم أهل مصر، وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم إلينا جميعاً؟ هذا أمر أبرم بليل!! فجرى على ألسنتهم ما استكن في ضمائرهم اعترافاً بجريمة التزوير وافتراء الكذب على خليفة المسلمين أو ابن عمه مروان بن الحكم، حيث قالوا: اجعلوه كيف شئتم، ولا حاجة لنا بهذا الرجل، ليعتزلنا، وهذا لعمر الحق كلام واضح وصريح إلى أبعد حدود الوضوح والصراحة، في أن هؤلاء السبائيين الثائرين أعداء الإسلام إنما أرادوا شيئاً واحداً هو تقويض الخلافة الإسلامية وتفريق شمل الأمة وحل نظامها الإجتماعي.

أما قولهم: فيجترأ عليك، ويُبعث بغلامك، وجمل من إبل الصدقة، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة؟ فكلام مضحك مبك! لأنهم هم المجترئون، وهم المختلفون لبعث الغلام الأسود أو الأبيض، وهم الناقشون على خاتم الخلافة، وهم الكاتبون بهذه العظائم تزويراً وتضليلاً، ليجعلوه حجتهم عند الناس على ما قصدوا إليه من أحداث قواصم، وفتن عواصف. قال العلامة ابن خلدون: وقد لبسوا بكتاب مدلس، يزعمون أنهم لقوه مع حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك، فقالوا: مكنا من مروان، فإنه كاتبك، فحلف مروان، فقال عثمان: ليس في الحكم أكثر من هذا.

فالمسألة لا تخرج عن أحد فرضين لا ثالث لهما: الفرض الأول ألا يكون هناك بريد؛ بكتاب قط، وإنما هي أكذوبة افتروها لينفذوا بها إلى ما يبتغون، فافتعلوا ذلك الكتاب بالمدينة، وتصايحوا به في طرقاتها اعتماداً على اندفاع العامة نحو الإشاعات، وقد يعضد هذا الفرض قولُ عليّ ابن أبي طالب للثائرين لما التقى بهم بعد رجوعهم: هذا أمر أبرم بالمدينة؛ والفرض الثاني أنه كان هناك كتاب مع بريد، وفيه من العظائم ما زعموه، ولكن ذلك الكتاب لم يكتبه أحد غير الثائرين، فهم الذين ائتمروا، فنقشوا على خاتم عثمان، وهم الذين سرقوا جملاً من إبل الصدقة، وهم الذين أغرَوا غلاماً لعثمان أو لمروان، وهم الذين أبردوا بهذا الكتاب مع

الغلام الأسود في طريق محمد بن أبي بكر وأصحابه ليقطعوا عليه طريقه بوقوع الكتاب في يده قبل أن يصل إلى مصر فيثور مع الثائرين.

ومما يؤيد هذا الفرض في قصة تزوير الكتاب المزعوم أن بعض الروايات يقول: ثم رجع المصريون راضين، فبينما هم في الطريق إذا هم براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويشيئهم[1]، فقالوا له: مالك؟ إن لك لأمرا ، ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامله بمصر، أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً، فقالوا: ألم تر إلى . . . . يعنون عثمان رضي الله عنه، فنبزوه باللقب ـ أنه كتب فينا بكذا وكذا، وإن الله قد أحل دمه؛ قم معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم، قالوا: فلم كتبت إلينا؟ فقال: ما كتبت إليكم كتاباً قط؛ فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ألهذا تقاتلون؟ أو لهذا تغضبون؟ فخرج علي من المدينة.

أليس الإجرام ممثلاً في هذا التزوير الأبله؟ راكب يتعرض، ثم يفارق ويشيء، فلماذا هذا التعرض مرة والمفارقة أخرى؟ أليس معنى ذلك في أدنى درجات العقل أنه يقول: خذوني وفتشوني فإن معي مفتاح الشر ومحضاء الفتنة؟ ثم ألا ترى إلى موقفهم من الإمام عليّ وتزويرهم عليه كتاباً كما زوّروا على عثمان فلما فضحهم وكشف عن كذبهم وتزويرهم ولم يرضَ عن إجرامهم، وأبى أن يقيم بالمدينة غضبوا وتلاوموا.

تزوير الكتب على غير عثمان

وبذلك نعلم أن تزوير الكتب على ألسنة الخلفاء والأئمة والنقش على أختامهم لم يكن شيئاً مجهولاً في التاريخ، ولا هو مما انفرد به أعداء عثمان في خلافته؛ فقد زوَّروا هم وغيرهم على أمهات المؤمنين عامة،

(١) في المحكم: شاءني الشيء سبقني، وفي الصحاح: شاءه مثل شاءاه على القلب أي سبقه.

وعلى عائشة منهن خاصة، وزوّروا على عمر بن الخطاب، ونقشوا على خاتمه واختلسوا به مالاً من بيت مال المسلمين. روى ابن عساكر والمدايني أن مروان بن الحكم قال لعائشة رضي الله عنها: هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج على عثمان، فقالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا. فكانوا يرون أنه كُتب على لسانها وعلى لسان عليّ كما كتب على لسان عثمان، فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً في الفتنة.

وممن كان له أثر شديد في وضع الكتب على ألسنة أمهات المؤمنين محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، وكان يتيمًا في حجر عثمان رضي الله عنه، فلما شب سأل عثمان أن يوليه؛ فقال له عثمان: يا بني، لو كنت رضا لاستعملتك، ولكن لست هناك، قال: فأذن لي في الخروج لأطلب ما يقوتني، قال: فاذهب حيث شئت؛ وجهزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع في مصر تغير عليه. قال المقريزي في الخطط: وانتزى محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأخرج عقبة بن عامر من الفسطاط، ودعا إلى خلع عثمان رضي الله عنه، وأسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شيء يقدر عليه، فكان يكتب الكتب على لسان أزواج رسول الله ﷺ، ويأخذ الرواحل فيضمّرها، ويجعل رجالاً على ظهور البيوت، ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوَّح وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، فيجيء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم، فيتلقاهم ابن أبي حذيفة والناس يقولون: نتلقى رسل أزواج رسول الله ﷺ، فإذا لقوهم قالوا لهم: ما الخبر؟ قالوا: لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبي ﷺ، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول: إنا نشكو إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام، وما صنع في الإسلام، فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء

فيبكون، ثم ينزل عن المنبر، ويتفرق الناس بما قرىء عليهم.

أما التزوير على عمر بن الخطاب ونقش خاتمه، فقد حدثنا به ابن حجر في الإصابة، والبلاذري في فتوح البُلدان: وذلك أن رجلاً يقال له معن بن زائدة انتقش على خاتم الخلافة فأصاب مالاً من خراج الكوفة على عهد عمر رضي الله عنه، فبلغ ذلك عمر، فكتب إلى المغيرة بن شعبة: بلغني أن رجلاً يقال له معن بن زائدة انتقش على خاتم الخلافة فأصاب مالاً من خراج الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا فنفذ فيه أمري وأطع رسولي؛ فلما صلى المغيرة العصر، وأخذ الناس مجالسهم، خرج ومعه رسول عمر، فاشرأب الناس ينظرون إليه حتى وقف على معن، ثم قال للرسول: إن أمير المؤمنين أمرني أن أطيع أمرك فيه، فمرني بما شئت، فقال الرسول: أدع لي بجامعة أعلقها في عنقه، فأتى بجامعة فجعلها في عنقه وجبذها شديداً، ثم قال للمغيرة: احبسه حتى يأتيك فيه أمر أمير المؤمنين، وكان السجن يومئذ من قصب، فتمحل معن للخروج حتى قدم على عمر، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك، من أنت؟ قال: معن بن زائدة، جئتك تائباً، قال: أُبْت؟ فلا يحيك الله؛ فلما صلى الصبح قال للناس: مكانكم؛ فلما طلعت الشمس، قال: هذا معن بن زائدة، انتقش على خاتم الخلافة فأصاب مالاً من خراج الكوفة فما تقولون فيه؟ فقال قائل: اقطع يده، وقال قائل: اصلبه، وعليٌّ رضي الله عنه ساكت، فقال عمر: ماذا تقول يا أبا الحسن؟ قال: يا أمير المؤمنين رجل كذب كذبة، عقوبته في بشره؛ فضربه عمر ضرباً شديداً، وحبسه فكان في الحبس ما شاء الله. ثم إنه أرسل إلى صديق له من قريش: أن كلِّم أمير المؤمنين في تخلية سبيلي، فكلمه القرشي، فقال: يا أمير المؤمنين؛ معن بن زائدة، قد أصبته من العقوبة بما كان أهلاً له، فإن رأيت أن تخلي سبيله، فقال عمر: ذكرتني الطعن وكنت ناسياً، عليَّ بمعن، فضربه ثم أمر به إلى السجن، فبعث معن إلى كل صديق له: لا تذكروني لأمير المؤمنين، فلبث محبوساً ما شاء الله، ثم إن عمر انتبه له فقال: معن ابن زائدة؟ فأتى به فقاسمه وخلّى سبيله.

فالتزوير على عثمان رضي الله عنه لم يكن بدعاً من الأمر، ولكنه لم يلق ما لقيه التزوير على عمر، فأدى إلى نتائجه الخطيرة لغلبة العناصر الفاسدة في المجتمع الإسلامي يومئذ.

* * *

مروان في قصة «فدك» وغنائم إفريقية

والآن نتحدث عن قصة أخرى تلتقي مع قصة الكتاب المزوَّر عند شخصية مروان بن الحكم، هذه الشخصية التي استحوذت على أهم فصول الرواية العثمانية وأحداثها: تلك قصة «فدك» وهي قصة لعبت فيها الأهواء المذهبية، والعصبية الطائفية دوراً عظيمًا، يبدأ بقيام خلافة أبي بكر رضي الله عنه حتى وصلت إلى عهد عثمان، فاتخذت ذريعة من ذرائع الفتنة الهوجاء وباباً من أبواب افتراء الكذب على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه.

«فدك» قرية صغيرة على مسافة يومين من المدينة المنورة، وعلى أقل من مرحلة بالنسبة لخيبر، وهي مما أفاء الله على رسوله، فكانت خالصة له ﷺ يضعها حيث يشاء، فلما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقام بالأمر من بعده خليفته الأول، أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاءته السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسأله ميراثها من أبيها بتسليم «فدك» إليها، ظناً منها أنها كانت ملكاً له، وبقيت ملكاً يورث عنه، فردها الصديق رداً جميلاً وروى لها حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وروى أبو هريرة أن فاطمة عليها السلام جاءت إلى أبي بكر فقالت: من يرثك؟ فقال: أهلي وولدي، فقالت: فما لي لا أرث أبي، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث» ولكني أعول من كان رسول الله ﷺ يعوله، وأنفق على من كان رسول الله ﷺ ينفق عليه؛ وفي بعض الروايات أن السيدة فاطمة عليها السلام طلبت من الصديق «فدك» على أنها نحلة نحلها إياها رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: أريد شهوداً، وهذا من عظيم فقه الصديق رضي الله عنه، وليس فيه تكذيب

للسيدة فاطمة عليها السلام؛ وإنما هو توقف لعدم استيفاء البينة على تحقيق الدعوى، وهو حكم في نقل مال وتمليكه، فلا تكفي فيه مجرد دعوى ولو ممن قطع بصدقه، وذلك من أبي بكر مثل موقفه في إبائه ردّ الحكم ابن العاص من الطائف، وكان قد نفاه إليها رسول الله ﷺ، فقال له عثمان: إن عندي وعداً من رسول الله ﷺ برده، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم أسمع بهذا الوعد، مع علمه بصدق عثمان رضي الله عنه.

ويروى أن أبا بكر قال لفاطمة عليها السلام: يابنت رسول الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما هي طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتي فإذا مت فهي بين المسلمين» وأقام أبو بكر رضي الله عنه مدة خلافته يصنع فيها ما كان يصنعه رسول الله ﷺ، وأرضى فاطمة فرضيت عنه.

ولما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختصم إليه في شأن «فدك» العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان العباس يرى أنها ملك النبي ﷺ، وهو وارثه وكان عليّ كرم الله وجهه يذهب فيها مذهب السيدة فاطمة، ويرى أنها نحلة لها خاصة، لا يشاركها فيها أحد بميراث أو غير ميراث، فأبى عمر أن يحكم بينهما بغير ما قضى أبو بكر، ومضى من فعل رسول الله ﷺ، وسلمها لهما بعد أن أخذ عليهما المواثيق أن يصنعا فيها صنيع أبي بكر. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن مالك بن أوس قال: أرسل إليَّ عمر بن الخطاب فجئته حين تعالى النهار فوجدته في بيته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله متكئاً على وسادة من أدم، فقال لي: يا مال إنه قد دفَّ أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم برضخ فخذه وقسمه بينهم قال: قلت: لو أمرت بهذا غيري؟ قال: خذه يا مال، فجاء «يرفأ» فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد؟ فقال عمر: نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعليّ؟ قال: نعم، فأذن لهما، فقال عباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا؛ فقال القوم: أجل يا أمير المؤمنين، فاقض بينهما وأرحهما، فقال عمر: اتئدا، أنشدكم

بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقةٌ»؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على العباس وعلّي، فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض؛ أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقةٌ»؟ قالا: نعم، فقال عمر: إن الله عزّ وجل كان قد خص رسول الله ﷺ بخاصة لم يخصص بها أحداً غيره، قال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول» فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النَّضير، فوالله ما استأثر عليكم، ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أسوة المال؛ ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد به القوم، أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئتما تطلب ميراثك من ابن اخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: «ما نورث ما تركناه صدقةٌ» والله يعلم أن أبا بكر لصادق بار راشد تابع للحق، ثم توفي أبو بكر، وأنا ولي رسول الله ﷺ، وولي أبي بكر، والله يعلم إني لصادق بار راشد تابع للحق؛ فوليتها، ثم جئتني أنت وهذا، وأنتما جميع، وأمركما واحد، فقلتما: ادفعها إلينا، فقلت: إن شئتما دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ، فأخذتماها بذلك، قال: أكذلك؟ قالا: نعم، قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما، ولا والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إليَّ.

هذه رواية الثقات في شأن «فدك» على عهد الصديق وعمر، فلما تولى عثمان الخلافة جرى في صدقات رسول الله ﷺ على سنة صاحبيه قبله، وكانت الفتنة لما تلق بزمامها إلى أحلاس الشياطين من أتباع ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي رأس الشر في هذا الانقلاب، وبقيت «فدك» وغيرها من صدقات رسول الله ﷺ على ما تركها عليه أبو بكر وعمر، حتى سئم الناس العافية في ظل الخلافة الراشدة، وتنادى أبالسة

الفتنة بالقواصم، وأخذوا يفترون على عثمان وولاته الكذب، وكانوا كلما افتضحت لهم سوءة انفلتوا إلى سوءة أخرى يلفونها في بجاد من البهتان والتزوير؛ وكان من هذه الأباطيل الملفقة والأكاذيب المختلقة أن عثمان رضي الله عنه أقطع مروان بن الحكم «فدك» وهذه فرية تنادي على مفتريها ببلادة العقل وركود الخيال في التلفيق، ورمي التهم هنا وهناك للتكثير على عثمان؛ وقد عرفنا من حديث الشيخين المتقدم أن هذه الصدقة تركها عمر ابن الخطاب في يد عباس وعليّ يقومان بأمرها كما كان يقوم به أبو بكر الصديق في خلافته، ولم يعرف من طريق صحيح أن عثمان في خلافته استردها منهما، وإلا فأين صوت عليّ والعباس وأبنائهما؟ وأين احتجاجهم على عثمان في شأن يخصهم وقد خلفه عمر في أيديهم ثم انتزعه عثمان منهم - كما يزعم الثائرون - وسلمه إلى ابن عمه مروان طُعمة وملكا؟ أفكان من المعقول أن يختصم العباس وعلي إلى عمر ويتغالبا على «فدك» ثم لا يسمع لهما ولا لأحد من الهاشميين صوت في الإنكار على عثمان؟ هذا ما لا يعرفه التاريخ من أخلاق علي وأبناء عمه، فما عرف عنهم أنهم باتوا على الضيم، ولا رضيت أنفسهم بالدنية في دنيا أو دين.

والذي عرفه التاريخ الصحيح أن هذه الصدقة ظلت في يد علي رضي الله عنه حتى قام بالخلافة فلم يغير من أمرها شيئاً، ثم انتقلت من بعده إلى أولاده وأحفاده قال القرطبي: لما ولي علي رضي الله عنه لم يغيِّر هذه الصدقة عما كانت عليه في أيام الشيخين، ثم كانت بعده بيد الحسن، ثم بيد الحسين، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسن بن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسن، ثم بيد عبد الله بن حسين، ثم وليها بنو العباس؛ وقد ورد هذا أو قريب منه في البخاري تعليقاً في حديث نفقة أمهات المؤمنين، فلا يجوز العدول عنه إلى روايات لم يعرف شأنها.

ونحن إذا أرخينا عنان البحث ونظرنا إلى معتمد الثائرين من الروايات وجدنا ذلك في روايتين مختلفتين عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

الأولى: ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد فقال: لما ولي عمر ابن عبد العزيز قال: إن «فدك» كانت مما أفاء الله على رسوله، فسألتها فاطمةُ رسولَ الله ﷺ، فقال لها: مالك أن تسأليني، ولا لي أن أعطيك؛ فكان رسول الله ﷺ يصنع فيها حيث أمره الله، ثم أبو بكر وعمر وعثمان كانوا يضعونها المواضع التي وضعها رسول الله ﷺ؛ ثم ولي معاوية فأقطعها مروان؛ ووهبها مروان لعبد الملك وعبد العزيز؛ فقسماها بيننا أثلاثاً: أنا والوليد وسليمان؛ فلما ولي الوليد سألته نصيبه، فوهبه لي، وما كان لي مال أحب إليَّ منها وأنا أشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله ﷺ.

والرواية الثانية ذكرها الطبري فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي جمع بني أمية فقال لهم: إن النبي ﷺ كانت له «فدك» وكان يأكل منها، وينفق ويعود على فقراء بني هاشم، ويزوج منها أيِّمهم، وإن فاطمة رضي الله عنها سألته أن يجعلها لها فأبى، فكانت كذلك حياة رسول الله ﷺ حتى قبض، ثم ولي أبو بكر رضي الله عنه، فكانت كذلك؛ فعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ حياته، ثم مضى لسبيله، ثم ولي عمر رضي الله عنه، فعمل فيها مثل ذلك، ثم ولي عثمان فأقطعها مروان، فجعل مروان ثلثها لعبد الملك، وثلثها لعبد العزيز، فجعل عبد الملك ثلثه ثلثاً للوليد، وثلثاً لسليمان، وجعل عبد العزيز ثلثه لي، ثم ولي مروان فجعل ثلثه لي، فلم يكن لي مال أعود ولا أسد لحاجتي منها، ثم وليت أنا فرأيت أن أمراً منعه رسول الله ﷺ فاطمة ابنته أنه ليس لي بحق، وأنا أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ.

ورواية الطبري - وهي التي تنسب إقطاع «فدك» لمروان إلى عثمان - أضعف من رواية ابن عبد ربه التي تنسب الإقطاع إلى معاوية، لأن رواية الطبري تقول: ثم ولي مروان فجعل ثلثه لي، أي لحفيده عمر ابن عبد العزيز، وكانت سن عمر حين ولي جده مروان لا تزيد على أربع سنوات، فهو قد كان طفلاً لا يزال بين أحضان الأظآر والأمهات، ويبعد أن يقع هذا من مروان، وقد تكون رواية ابن عبد ربه أقرب إلى المعقول،

لأنها تنسب إقطاع مروان «فدك» إلى معاوية، وقد كانت الحرب قائمة بينه وبين الهاشميين، والحرب في نظر أهلها تسوِّغ للمحارب أن يمد يده إلى ما في يد خصمه ليشد به أزر أنصاره، وفيها أن عمر سأل الوليد نصيبه منها فوهبه له، وكان عمر في ولاية عمه الوليد يعد من فتيان بني مروان؛ على أنه يكفي لسقوط هاتين الروايتين وعدم التعويل عليهما ما فيهما من اختلاف وتعارض.

بقي مما يتصل بمروان من نوافذ الأحداث ما زعمه الثائرون من أن عثمان وهب له خمس غنائم إفريقية، وهذه أيضاً أغلوطة كاذبة. وحقيقة هذه القصة أن عثمان أمّر أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح على جيش لفتح إفريقية، فغزاها وتم له النصر، وفتحها، وغنم منها غنائم كثيرة قسمها على جنده، وأخرج الخمس من الذهب فكان خمسمائة ألف دينار، فأنفذه إلى الخليفة، وبقي من الخمس أصناف لا يستطاع نقلها إلى عاصمة الخلافة، فاشتراها مروان بمائة ألف درهم، ونقد أكثرها؛ ولما وصل إلى الخليفة موفداً ببشرى الفتح ـ وكانت قلوب المسلمين مشغولة بهذا الغزو لبعد الشقة فيه ـ وهب له عثمان ما بقي في ذمته من ثمن ما اشتراه من الخمس، وكان الذي بقي عليه شيئاً قليلاً جزاء بشارته وهذا من حق الإمام، وقد ثبت أن أبا بكر نفَّل خالد بن الوليد قلنسوة الهرمزان وكانت قيمتها مائة ألف، فأين ما مخرق به المنحرفون من هذه الحقائق الثابتة؟

والذين يطعنون على عثمان ويعيبونه لاستصفائه مروان قد جعلوا من مروان شخصية خيالية، نسج خيوطها الهوى والعصبية العمياء. والتاريخ الصحيح يضع مروان غير هذا الموضع الذي وضعه فيه المنحرفون الثائرون، وبحسبه عند أهل العدالة أنه من رجال البخاري في الجامع الصحيح، وقد علمت الأمة قاطبة حالهم من العدالة ومكانهم من الدين؛ قال العلامة ابن خلدون في المقدمة: وكذلك مروان بن الحكم وابنه عبدالملك وإن كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم من كل مقصد، يشهد لذلك ما

كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم، فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة.

ولسنا بذلك نزعم عصمة مروان عن ارتكابه أخطاء ربما كانت ذات أثر، كبير أو صغير، في الأحداث التي سببت الإنقلاب العثماني، ولكنا قصدنا إلى التنبيه على مجاوزة المعقول في شأن هذا الرجل الذي يضعه أئمتنا وعلماؤنا ومن أخذنا عنهم ديننا، بين رجال الطبقة الأولى من التابعين، وهم خير الناس بعد أصحاب رسول الله ﷺ.

الفصل السابع

التجني على عثمان - سيرورة أبي ذر إلى الرّبذة - عثمان وعمار بن ياسر.

التجني على عثمان

تقرأ الرأي من الآراء الموافقة أو المخالفة، فتحس منه حرارة الإيمان به إيماناً يملأ نفس قائله، وتشعر بأثر العقيدة يحمل إليك قوة الإستمساك والتشابك ويعوزك تفنيد المخالف منها إلى إمعان النظر في مصادره وموارده والتعرف إلى مداخله ومخارجه، وفهم مقدماته ونتائجه.

وتقرأ الرأي من الآراء فتشعر أول وهلة بالاضطراب والتحلل يواجهك في مباديه ونهاياته، فتأبى عليك نفسك أن تضيع بعض وقتك في مناقشته وبهرجة زيفه، ويغنيك ضعفه عن هلهلته، ويردك تداعيه عن موافقته، وتطمئن بأدنى النظر إلى أنه من لغو الباطل وسخف الرأي الذي لا تخشى عواقبه ولا تحذر بوادره، لولا ما يحتف به من خداع العامة وتغرير الأغرار ممن لا تؤمن عليهم مخاوفه، وتحذر فيهم مآثمه.

وقصة الفتنة العثمانية من هذا الطراز الذي ضللت فيه العقول، وركب بها متن الشهوات حتى عميت فيها البصائر وطمست الأبصار، واستجاب كثير من الناس لداعي الفتنة دون تدبر وتفكير. فعثمان رضي الله عنه في نظر الثائرين المفتونين ضعيف مستضعف، لأنه سلم زمام الأمور إلى أهله وأقربائه، واستكان لابن عمه مروان بن الحكم، وقد عرفنا ما في هذا الزعم من كذب مفترى، عثمان نفسه - في زعم هؤلاء المفتونين - شديد إلى درجة القسوة الظالمة، لأنه أدب ببعض طرائق الأدب

الذي يوجبه عليه منصبه ومكانه من المسلمين بعضَ من رأى تأديبه، ولأنه ساس بعض رعيته سياسة تدفع عن الأمة ضرراً محققاً لو تركت الأمور للمصادفات، ولم يأخذ الخليفة الراشد بحجزها قبل أن تتهدّى بالأمة إلى قرار سحيق.

ولسنا ـ لعمر الحق ـ ندري أي رجل عثمان بن عفان في نظر هؤلاء الروافض من السبائيين؟ أهو رجل قاس شديد القسوة، لأنه ضرب، وسيَّر، وأعطى ومنع، وساس وأدب؟ أم هو رجل ضعيف مستضعف، سلم واستسلم حتى ضاع وأضاع؟ هذا هو الإضطراب الذي يضع في يد الباحث مفتاح هذه الفتنة الهوجاء؛ والحقيقة أن عثمان رضي الله عنه لم يكن في شيء من هذا أو ذاك، بل كان خليفة راشداً، رأى له من الحقوق على رعيته مثل ما كان لصاحبيه الصديق والفاروق من قبله، فأبت عليه الشهوات الطامعة، والأهواء الشائعة أن يبسط على الأمة ظل هذه الحقوق، وأنى لعثمان رعية الصديق والفاروق، وقد كان عثمان من رعيتهما، وكان ابن سبأ وأضرابه من رعية عثمان؟

أدب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص فخفقه بالدرة فوق رأسه، لأنه رآه يقتحم عليه غير هائب سلطان الخلافة، فأراه عمر بخفقته أن سلطان الله لا يهاب أحداً، وأرى الناس بذلك أن له عليهم حق تأديبهم بما يرى من وسائل السياسة والتأديب، فلم يرفع أحد لذلك رأساً بنقد عمر رضي الله عنه، بل تمدح به التاريخ وعده من مفاخر عمر.

وأشخص عمر بن الخطاب عمرو بن العاص من مصر إلى المدينة وقص منه لرجل من رعيته، وأمر أبا موسى الأشعري وهو والٍ على اليمن أن يجلس لرجل من رعيته ـ كان أبو موسى قد ناله ببعض الأدب ـ ليقتص منه، وعزل عمر بعض الولاة والقواد من الأكابر وأهل السابقة والقدم، وولَّى مكانهم من ليسوا في سابقتهم وقدمهم، فلم ير أحد من الناس بأساً على عمر في ذلك، لأنه إمام يسوس رعيته بما يرى في حدود الحق والعدل.

أما عثمان بن عفان فيأبى عليه مجتمعه والمنحرفون عليه من رعيته أن يسوس الناس كما كان يسوسهم عمر بن الخطاب، سبحان الله! فَلِم كان عثمان إماماً إذاً؟

أليس من أعجب العجب أن تعد الحادثة في مفاخر رجل، وتعد أختها في مساوىء رجل؟ يحصون على عثمان حوادث زعموا أن سلطانه نال فيها بعض الأفراد من رعيته ببعض صنوف التأديب، ويكبرون ذلك، ويعدونه خروجاً يستحق عليه ما أتوا إليه وإلى الإسلام كله من قواصم؛ ويحصون لعمر حوادث رأوا أن سلطانه نال فيها بعض الولاة والقادة بالتأديب، فيكبرون ذلك لعمر ويعدونه في مناقبه الخالدات، فَلِم هذا؟ ولِمَ ذاك؟ أجل؛ لأن رعية عمر كان فيها عثمان، ورعية عثمان كان فيها السبائيون والروافض.

* * *

سيرورة أبي ذر إلى الربذة

ومن أبرز ما أخذوه على عثمان من هذه الحوادث قصة تسيير أبي ذر الغفاري إلى الرَّبَذَة، وقد بسطنا في «التمهيد» ما نسب إلى أبي ذر رضي الله عنه من مذهب في الثروات والأموال، وبيّنا أثر ذلك في المجتمع الإسلامي وتلمسنا في أقوال الأئمة من العلماء ما يليق بمكانة أبي ذر في صحبته وسابقته ودينه من هذه الآراء فلا نعيد الحديث فيه؛ وإنما نتحدث هنا بإيجاز في قصة النفي أو التسيير إلى الربذة من الوجهة التاريخية، توضيحاً لموقف عثمان رضي الله عنه في هذا الحادث الفردي الذي ما كان ليأخذ هذه الصبغة لولا ميل الأهواء.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال: «مررت بالرَّبذة فإذا أنا بأبي ذر، قلت: ما أنزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، وكان بيني وبينه في ذلك، فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إليَّ عثمان: أن أقدم

المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمرَّوا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت».

هذه أوثق الروايات وأصحها في سيرورة أبي ذر إلى الربذة، وهي على جملتها تعطي صورة واضحة عن حقيقة هذه القصة التي لعبت بها الأهواء وتزيَّد فيها المنحرفون؛ فالحديث يفيد أن خلافاً وقع بين معاوية وهو أمير الشام وبين أبي ذر في تأويل آية من كتاب الله تعالى، وأن هذا الخلاف العلمي اشتد، وأراد أبو ذر تطبيق مذهبه الإشتـراكي عملياً، فخشي معاوية، وهو الوالي والأمير، مغبة هذه الدعاية الضارة، فشكا إلى الخليفة أمر أبي ذر، والناس يعرفون من هو معاوية في حلمه وصبره على آحاد الناس، بله أبا ذر في فضله ومكانته، فما الظن بشـيء يحرك معاوية ويستفزه حتى يلجأ إلى الشكوى منه ويفزع فيه إلى الخليفة؟ فهو لا بد أن يكون شيئاً خطيراً، قدره معاوية على ضوء تفكيره وتجاربه الاجتماعية؛ ولا بد أن يكون قد مس كيان الدولة مسـاً عنيـفاً، ورأى فيه الأمير خطراً عاماً لم يستطع أن يتفادى منه بغير هذه الشكوى.

والحديث يفيد أن عثمان رضي الله عنه كان أرعى لحرمة أبي ذر وأعرف لمكانه، فهو لم يكتب إلى معاوية في شأن أبي ذر يأمره فيه بأمره، ولم يكتب إليه بإشخاص أبي ذر على مركب وعر وسـائق عنيف ـ كما زعم المنحرفون ـ بل الحديث صريح في أن عثمان رضي الله عنه بلغ الغاية في توقير أبي ذر رضي الله عنه، فهو قد كتب إلى أبي ذر مباشرة: أن اقدم إلى المدينة، ويرشح هذا ما روي عن قتادة: أن عثمان كتب إلى أبي ذر بعد شكاية معاوية «أقبل إلينا فنحن أرعى لحقك، وأحسن جواراً لك من معاوية» فقال أبو ذر: سمعاً وطاعة، فقدم على عثمان.

والحديث يفيد كذلك أن عثمان لم يُخرج أبا ذر إلى الربَذَة عقوبة ونفياً، وإنما استأذن أبو ذر الإمام الأعظم إذ كثر عليه الناس يسألونه في قدومه من الشام فخشي الفتنة، فأذن له الإمام أن يكون قريباً، فاختار

هذا المكان بنفسه، وقد قال له عثمان ـ كما رواه محمد بن سيرين ـ أقم عندي تغدو عليك اللقاح وتروح فقال: لا حاجة لي في الدنيا، فأذن له في الخروج.

والمتأمل في الحديث يشعر بالإخلاص الصادق يملأ نفس أبي ذر، إذ يرى الناس يتكاثرون عليه، يسألونه عن سبب قدومه من الشام، وهو يعلم استعداد الغوغاء وسرعة انقيادهم لشيطان الفتنة، فأبى أن يقيم بينهم.

وروي أن أبا ذر لما دخل على عثمان قال له: ما لأهل الشام يشكون ذَرَب لسانك؟ فقال: إنه لا ينبغي أن يقال: مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً، فقال: يا أبا ذر، عليَّ أن أقضي ما عليَّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد، فقال أبو ذر: لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف، ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات ثم طلب من عثمان أن يأذن له في الخروج من المدينة، فإن رسول الله ﷺ أمره بذلك إذا بلغ البناء سلعاً، فسيَّره إلى الربذة، فبنى فيها مسجداً، وأقطعه عثمان قطعة من الإبل، وأجرى عليه العطاء فأقام أبو ذر منفرداً حتى قضى.

وكان أبو ذر رضي الله عنه يختلف من الربذة إلى المدينة أخذاً بوصية عثمان، أن يتعاهد المدينة حتى لا يرتد أعرابياً؛ فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان: لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات، فقال كعب: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فرفع أبو ذر محجنه فضربه به فشجه وقال له: يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا؟ فاستوهبه عثمان فوهبه له. وقال عثمان لأبي ذر: يا أبا ذر، اتق الله واكفف يدك ولسانك، فقال له: والله لتسمعن منِّي أو لا أدخل عليك.

أين هذا مما سود به المنحرفون على عثمان صحائف التاريخ بهتاناً

وزوراً؟ ولو سلمنا ما قالوه لم يكن فيه على عثمان من عيب، فهو إمام المسلمين الخليفة الراشد وقد جعل الله في عنقه حق سياسة الأمة وتأديب الرعية.

ولو صح ما نسبوه إلى أبي ذر رضي الله عنه من مذهب في الأموال لكان من أخطر الأمور على كيان الدولة الإسلامية ونظامها الاجتماعي كما شرعه رسول الله ﷺ، ووضع للناس أصوله وقواعده بفعله وقوله وتقريره؛ فقد رأى أموال كثير من أصحابه زاكية نامية وفيرة، فما طالبهم إلا بحقها الذي فرضه الله تعالى، وما وراء ذلك إحسان، وما على المحسنين من سبيل؛ ولو صح ما نسب إلى أبي ذر لكان من أول واجبات الخليفة الأخذ على أيدي الداعين إلى هذا المذهب خشية الفتنة، ولا سيما أن أبا ذر كان رجلاً لا يخاف في سبيل مايعتقد لومة لائم، وكان حديداً شديداً صريحاً، فلو ترك أمره وأمر متبعيه لأدى ذلك إلى إسقاط هيبة الخلافة، وإذهاب حرمة المنصب من نفوس الأمة؛ ولفتح باب القيل والقال في الولاة والأمراء، وفي هذا من إفساد نظام الأمة وإشاعة الفوضى ما فيه، وليس في واجبات الإمام الأعظم واجب أسمى من حماية النظام العام للأمة، وسدّ سبل الثورات والخروج على القانون، ولو كان ذلك الخروج بضرب من التأويل، وليس من حق الفرد أن يحمل الجماعة على مذهبه: ومن حق رعاية الجماعة حمايتها من المذاهب الإجتماعية المتطرفة، وذلك ما صنعه عثمان رضي الله عنه في سياسة حكيمة حازمة.

وفي الحق أن هذه الأقصوصة كيفما صورت لا تخرج عن كونها مظهراً من مظاهر تقرير سلطان الرياسة العليا للدولة، وتوطيد دعائم الحكم، ولوناً من ألوان سياسة الأمة وحياطتها في نظامها العام بسياج من الحزم والقوة الرهيبة، وحماية للتشريع من شذوذ الأفكار وتطرف المذاهب، وخطر الآراء ونتائج الثورات الجامحة.

ولم تكن قصة أبي ذر لتلبس هذا الثوب الفضفاض الذي حاكه لها المنحرفون من نسج أغراضهم، لولا عصبية الهوى! ولو أنصف التاريخ

لكانت هذه القصة من مفاخر الخلافة العثمانية، وآية على السياسة الحازمة الحكيمة التي كانت تساس بها الأمة في هذه الخلافة الراشدة.

ومن المفارقات العجيبة أن التاريخ يعدّ هذا اللون من السياسة الحازمة من مفاخر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد روي أنه رأى أبيًّ ابن كعب - وكان يسميه سيد المسلمين - يمشي وخلفه قوم، فعلاه بالدرة وقال له: إن هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع؛ فلم يتغيَّر عليه أبيّ ولم ينكر أحد من الصحابة على عمر صنيعه، ولم يره أحد منقصة من قدر أبيّ رضي الله عنه، وقد أريناك قصته مع سعد بن أبي وقاص وخفقه بالدرة لأنه لم يهب سلطان الخلافة، وأريناك صنيعه بأبي سفيان بن حرب لما شكا إليه أهل مكة أن أبا سفيان حبس عنهم مسيل الماء.

أما عثمان رضي الله عنه إذا وقع منه بعض ما وقع من سلفه عمر لأسباب أهم وأعظم - فقد خرج في نظر المنحرفين عن جادة العدل، وحاد عن طريق الرشاد، وهذا فيصل ما بين مجتمع عمر ورعيته، ومجتمع عثمان ورعيته؛ وأين تقع هذه الهَنات التي رأى عمر نهنهة سعد وأبيّ وأبي سفيان وأضرابهم من رؤوس الصحابة وأكابر الأمة عليها - مما عزي لأبي ذر في الأموال والثروات؟ وأين يقع صنيع عثمان بأبي ذر من صنيع عمر بأصحابه؟ ولكن التاريخ يسطر ما يملي عليه المجتمع؛ ومجتمع عثمان ساخط ثائر، قد أبطرته النعمة، ينظر إلى الأمور نظرة حولاء، تجعل القليل كثيراً، والمستقيم معوجاً، ومن هنا أحصيت على عثمان هذه التوافه وجعلت أحداثاً جساماً وقع من أجلها أخطر انقلاب عرفه التاريخ.

* * *

عثمان وعمار بن ياسر

وفي هذه الهنات التي أحصوها على عثمان قصة تتلاقى مع قصة أبي ذر في تقدير بطل روايتها، وإن اختلفت عنها في موضوعها، تلك قصة عقد المنحرفون عروتها بناصية رجل من السابقين الأولين، ذلك هو عمار ابن ياسر رضي الله عنه.

روى أبو بكر بن أبي شيبة عن الأعمش قال: كتب أصحاب عثمان عيبه وما ينقم الناس عليه في صحيفة؛ فقالوا: من يذهب بها إليه؟ قال عمار: أنا أذهب بها إليه؛ فلما قرأها عثمان قال: أرغم الله أنفك؛ قال عمار: وأنف أبي بكر وعمر؛ فقام عثمان إلى عمار فوطئه حتى غشي عليه، ثم ندم عثمان، وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث؛ إما أن تعفو، وإما أن تأخذ الأرش، وإما أن تقتص؛ فقال عمار: والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله. قال ابن أبي شيبة: فذكرت هذا الحديث لحسن بن صالح فقال: ما كان على عثمان أكثر مما صنع.

هذه الرواية أمثل ما تعلق به المنحرفون في قصة عمار، وهي تدل على أن عماراً حمل إلى عثمان رسالة تعيبه، وتحصي عليه أموراً نقمها الناس منه، ولا شك أن ذلك مما يسوء عثمان ويغضبه، وعثمان إنسان يغضب مما يسوءه كما يغضب الناس، فنال من عمار ـ كما زعموا ـ بلسانه ويده، ثم ندم فبعث إلى عمار رجلين من خيرة أصحاب محمد ﷺ وقادة المسلمين ليسترضياه بكل ما يحتمله مقام الاسترضاء، فأبى عمار وأصر على أن يظل مغاضباً لعثمان حتى يلقى الله تعالى.

فماذا كان على عثمان في حق عمار رضي الله عنهما بعد ذلك؟ لم يكن عليه ـ كما قال الحسن بن صالح ـ أكثر مما صنع.

وهناك رواية أخرى كان عليها معوّل المنحرفين في قصة عمار، تقول: اجتمع من أصحاب رسول الله ﷺ خمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكتبوا أحداث عثمان وما نقموا عليه في كتاب، وقالوا لعمار: أوصل هذا الكتاب إلى عثمان ليقرأه، فلعله أن يرجع عن هذا الذي ننكره. وخوفوه بأنه إن لم يرجع خلعوه واستبدلوا به غيره، فلما قرأ عثمان الكتاب طرحه، فقال عمار: لا ترم بالكتاب وانظر فيه؛ فإنه كتاب أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لك والله ناصح، وخائف عليك؛ فقال له عثمان: كذبت يا ابن سُميَّة، وأمر غلمانه فضربوه حتى وقع لجنبه وأغمي عليه، ثم قام عثمان فوطيء بطنه ومذاكيره حتى أصابه الفتق وأغمي

عليه أربع صلوات، قضاها بعد الإفاقة، واتخذ لنفسه تُبّاناً[1] تحت ثيابه لأجل الفتق، فغضب لذلك بنو مخزوم، وقالوا: والله لئن مات عمار من هذا لنقتلن من بني أمية شيخاً عظيمًا، يعنون عثمان.

* * *

أشرنا فيما سبق إلى أن تدوين التاريخ الإسلامي بأسلوب القصص دون نقد وتمحيص يرد الأشباه إلى نظائرها والأمور إلى مصادرها - كان بلية عظمى على الحقائق في سيرة رجالات الإسلام خصوصاً في مراحل الاضطرابات والانقلابات السياسية، وقد كان لسيرة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من ذلك الحظ الأوفر، ورواية قصة عمار على النهج الملتوي بعضُ ما نال تلك السيرة النيِّرة من تحريف المنحرفين وتشويه الثائرين. وأخلاقُ عثمان في سنه وإيمانه وحيائه ولين عريكته، ودماثة طبعه وسابقته وجليل مكانه في الإسلام - أجلّ من أن تنزل به إلى هذا الدرك من التصرف مع رجل من أجلاء أصحاب النبي ﷺ، يعرف له عثمان سابقته وفضله مهما كان بينهما من اختلاف في الرأي.

أفيرضى عثمان لنفسه، وهو الذي أبى على الناس أن يقاتلوا دونه، ورضي بالموت قتلاً صابراً محتسباً اتقاء الفتنة العامة، أن يصنع بعمار ابن ياسر - وهو أعرف الناس بمكانه في الإسلام - ما زعمته هذه الرواية الباطلة؟ يأمر غلمانه بأن يضربوه حتى يغمى عليه، ثم يقوم عثمان في هذه الحال فيطأ بطنه ويصنع به ما تحكيه هذه الرواية السقيمة الفاسدة؟

أو ترضى أخلاق عثمان وحياؤه أن يعير عماراً بأنه ابن سمية، وهو الذي يعرف شرف انتساب عمار إلى أمه سمية أول شهيدة في الإسلام؟ وأي شرف أشرف لعمار من أنه ابن سمية، وهي من عرف الناس قوة إيمانها ويقينها وشرفها في الإسلام ومكانها في السابقين؟ وهل نجد في أخلاق عثمان وطبيعته ما يدنيه من هذا الأسلوب في الزجر والتأديب؟ ليت الباحثين في تاريخ رجالات الإسلام يُعنَون بنقد هذه الروايات وتبيين

---

(1) التبان: سروال صغير يستر العورة المغلظة.

زيفها، بتطبيقها على ما عرف من خصائص أولئك الأعلام! إذاً كان لهم أصدق ميزان في النقد وأبرعه في كشف دخائل الوضاعين المفترين.

وقصة عمار في حقيقتها كما يحدثنا بها سيدنا عثمان نفسه في الرواية الصحيحة أنه قال: جاء عمار وسعد إلى المسجد، وأرسلا إليَّ: أن ائتنا فإنا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها، فأرسلت إليهما: إني عنكما اليوم مشغول، فانصرفا وموعدكما يوم كذا، فانصرف سعد، وأبى عمار أن ينصرف، فأعدت إليه رسولي، فأبى، ثم أعدته إليه فأبى، فتناوله رسولي بغير أمري، والله ما أمرته، ولا رضيت بضربه، وهذه يدي لعمار فليقتص منِّي إن شاء.

وفي هذه الرواية الصحيحة أمور تكشف عن وجه الحق في موقف عثمان رضي الله عنه من قصة عمار:

الأمر الأول: أن عمار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص - بما لهما من المكانة وعليهما من واجب النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، وقد وصل إلى علمهما ما تهامس به الناس في مجالسهم - أرسلا إلى الخليفة أن يوافيهما بالمسجد ليذاكراه في أشياء تحدث بها الناس في غير رضاء عنها واطمئنان إليها، وقد أرادا من مذاكرة عثمان في هذه الأمور تعرف وجه المصلحة فيها، وتبيّن قصد الخليفة منها، وإبلاغه صدى ما يتردد على ألسنة الناس حتى يتدارك الأمر قبل أن يضطرب حبل الأمن ويستفحل الخطب؛ وهذا واجب كل مسلم، مؤكد في حق العلماء والقادة وذوي الرأي.

الأمر الثاني: أن الخليفة اعتذر إلى سعد وعمار من عدم استطاعته مقابلتهما في يومهما، وحدد لهما موعداً يوماً عينه لهما، وذلك أقل ما يتصور في حق الأفراد من عامة الناس، بله الخليفة الأعظم، فانصرف سعد، وكان انصرافه مفهوماً ومعقولاً، وأبى عمار، وكان إباؤه مخالفاً لصاحبه محل ريبة وحذر، فأعاد أمير المؤمنين إليه الرسول يؤكد إليه الإعتذار مرة وأخرى وهو يأبى إلا أن يأتيه أمير المؤمنين إلى المسجد في يومه وساعته، وهنا قد يتدخل الخيال أو يجب أن يتدخل، ليفصل ما أجملته القصة في

تصوير موقف عمار وإصراره على أن يجيء له عثمان، على رغم تكرر الإعتذار مع تحديد موعد آخر للملاقاة. ويستطاع في يسر أن يتصور ما في هذا الإصرار الذي انفرد به عمار عن صاحبه من الإحراج، ولا يخلو موقف كهذا من مقاولة ومجادلة بين عمار ورسول عثمان قد تعنف وتشتد وقد لقي فيها رسول عثمان من عمار رضي الله عنه تعنيفاً قد يتعداه إلى دائرة الخلافة وأعمالها ونظام الحكم في الأمة وسيرة الولاة والعمال والأمراء مما يتصل بالأمور التي جاء عمار وصاحبه لمذاكرة الخليفة فيها؛ وحينئذ يسهل أن يتصور استفزاز رسول عثمان بما عسى أن يكون قد لحقه من أذى أو حمية لأمير المؤمنين، فتناول عماراً بغير إذن عثمان ولا رضاه. ونحن في جهالة من هذا الرسول، من يكون؟ وماذا يكون؟ لنحكم على فعله حكمًا متصلاً بالخليفة يحمله ثقله وتبعاته، أما أن هذا الذي وقع من الرسول منكر فهو ما لا يستطيع مسلم إنكاره، ولكن ما ذنب عثمان فيه، وما حيلته؟!

الأمر الثالث: أن عثمان رضي الله عنه حلف حين عوتب أنه ما أمر رسوله بتناول عمار، وأنه ما رضي ذلك بل كرهه إذ بلغه، وليس في شرائع الله تعالى طريق لتبرئة عثمان من تبعة رسوله غير ذلك لو أنصف التاريخ واستقامت موازين العقول.

الأمر الرابع: أن أمير المؤمنين لم يقف من عمار عند هذا الحد، بل أسرع إليه بأبلغ ما يقع به التراضي في أشد الخصومات، فقال على سمع أصحاب رسول الله ﷺ: وهذه يدي لعمار فليقتص منِّي إن شاء، وفي ذلك تقدير من عثمان لعمار، لأنه كافأه بنفسه إذ جعل القصاص منه ولم يجعله من رسوله إلى عمار، وبتدبر هذه الأمور ندرك ما تصنع الروايات الزائفة في تشويه التاريخ وندرك حقيقة موقف عثمان رضي الله عنه فيما أخذوه عليه.

الفصل الثامن

موقف عثمان في مقتل الهرمزان ـ تحقيق في مقتل عمر بن الخطاب

موقف عثمان في مقتل الهرمزان

هذه قضية من أخطر ما واجه خلافة عثمان في مطلع شمسها، فقد قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب غيلة بيد غلام مجوسي، فكان مقتله قرن الشيطان في الفتنة التي أدركت المسلمين أول عهدهم بعد إطفاء جذوة الردة، وهم أعظم ما يكونون قوة واجتماع كلمة، واندفاعاً في سبيل أداء أمانة الله، وتبليغ ما استخلفوا عليه من رسالاته وشرائعه إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها؛ وقد امتد أثره حتى عادت إليه الفتنة العثمانية فكان منها حجر الزاوية في أساسها.

زعم المنحرفون أن عثمان بدأ خلافته بترك إقامة الحد قصاصاً من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان الفارسي، وجُفَيْنة الحِيرى النصراني وبُنيّة أبي لؤلؤة المجوسي قاتل عمر، وذلك تعطيل لحدود الله تعالى، وإقامتُها جماع ما ينطوي عليه منصب الإمامة العظمى.

والناس في حديث عبيد الله بن عمر والهرمزان فريقان: فريق ينظر إلى المسألة في ظاهرها كحادثة جنائية مما يقع بين الناس في حياتهم اليومية، دون بحث عن البواعث التي انتهت إلى هذه النهاية، وهؤلاء يسارعون إلى الاعتذار عن عثمان في موقفه من عبيد الله بن عمر وقد قتل نفساً مؤمنة، وأخرى معاهدة من غير حكم قضائي شرعي، فيرون أن عثمان لم يعطل

الحد البتة، وإنما أخَّر إقامته سياسة، لأنه خشي ثوران فتنة أعظم إذا هو تعجل فقتل عبيد الله بن عمر؛ وذلك أن قومه بني عدي كانوا يمنعون من قتله، ويذودون عنه، وكان بنو أمية يجنحون إلى رأيهم، وكثير من المهاجرين وقفوا هذا الموقف، حتى قال بعضهم: قُتل أمير المؤمنين بالأمس ويقتل ابنه اليوم؟ لا والله لا يكون هذا أبداً؛ ويروى أن عمرو بن العاص قال لعثمان: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان؛ إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

ورأى عثمان رضي الله عنه أن تسكين الفتنة وتهدئة النفوس أرجح مصلحة، فتعهد بإرضاء أهل الهرمزان، وقال: أنا وليهم وقد جعلتها دية في مالي.

وهذا اعتذار نقبله في المسألة كفرض احتياطي ـ كما يقولون ـ يدفع عن عثمان تهمة تعطيل الحدود الشرعية بعجز أو تهاون بحق الشريعة وواجب الخلافة ولكنه ارتكب أخف الضررين، وأخذ بأحزم الأمرين.

غير أننا لا نطمئن إلى صحة هذه الرواية، ولا إلى ما تضمنته حلاً للمسألة يحسن السكوت عنده والانتهاء إليه، ولا سيما ذلك التحايل العجيب في تعطيل نصوص الشريعة الذي تسنده الرواية إلى عمرو ابن العاص، وهو الأريب الداهية الذي لا يفوت على عقله أن وقوع الجنايات والمآثم في وقت ليس فيه على الناس سلطان يقيم الحدود وينفذ أوامر الله تعالى لا يهُدرها وينفي عنها عقوبتها إذا قام في الناس حاكم شرعي يستطيع أن يرد الأمور إلى نصابها وإلا كانت الأمة عرضة لمنتهى الفوضى والفساد.

وقد رُوي ما يدفع ذلك ويرده، ويثبت أن عثمان رضي الله عنه دفع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان ليقتص منه فعفا عنه. ذكر الطبري فيما حدث به عن ابن الهرمزان في قتل أبيه قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمرَّ فيروز ـ قاتل عمر ـ بأبي ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: أبس به، فرآه رجل، فلما

أصيب عمر قال: رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز، فأقبل عبيد الله ابن عمر فقتله؛ فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إليَّ فيه، فقلت لهم: إلى قتله؟ قالوا: نعم، وسبوا عبيد الله، فقلت: أفلكم أن تمنعوه مني؟ قالوا: لا، وسبوه، فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم.

* * *

هذه الرواية مع كونها تقطع حجة المنحرفين نحب أن نقف منها عند قول ابن الهرمزان: «كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض» لنرى أن هذا الاسترواح مرشح قوي لرأي من يذهب إلى أن قتل عمر ابن الخطاب لم يكن عملاً فردياً، بل كان عن مؤامرة وتدبير، ثم إن هذا الاسترواح لم تقف الحواجز الوراثية في أخلاق العجم وعاداتهم دون أن يكون وُصلة بين فيروز، وهو غلام صانع مملوك للمغيرة بن شعبة، وبين الهرمزان، وهو سيد من سادات العجم، وليس من المعقول أن يكون مجرد الغربة في أن ينزل الهرمزان من علياء سيادته الأعجمية إلى مستوى العبيد والصناع ليأنس بهم ويأنسوا به؛ وإسلامُ الهرمزان كان بالأمس القريب على يد عمر بن الخطاب، فلم يمض عليه من الزمن ما يكفي أن يقال إنه كفكف حدّة الفروق بين السيد والمسود، إن صح أن هذا الإسلام كان بريئاً صافياً.

ثم ما هذا السلاح الغريب عن بلاد العرب الذي يحمله فيروز في عاصمة الخلافة ويسأله عنه الهرمزان، فيجيبه بهذا الجواب العابث ويسكت عليه الهرمزان؟! هذه كلها أمور تدعو إلى الشك في شأن هذا الإستراوح، وفي أسبابه ومقاصده.

وفي هذه الرواية ـ إذا صحت ـ ناحية سياسية لا تبعد أن تكون مقصودة لعثمان رضي الله عنه، ذلك أنه مكن ابن الهرمزان وهو ولي دم أبيه من قاتله، وهو يعلم ميول الناس وعواطفهم نحوه وسخطهم على قتل

عمر بن الخطاب، فهم لا يدعونه يقتل، وستكون المحاولة ناجحة، فيعفو صاحب الحق وولي الدم، وتطمئن النفوس وتهدأ الخواطر.

* * *

تحقيق في مقتل عمر بن الخطاب

أما المحققون من الباحثين فيرون أن قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عن تدبير سابق وائتمار مدبر؛ اشترك فيه العجم واليهود، وهم أشد الناس بغضاً لعمر، وحقداً على الإسلام والمسلمين في ذاته، لأنه قهر العجم ودوخ بلادهم وأجلى اليهود عن مهد الإسلام، وكشف عن دسائسهم، وقد ترجح هذا الرأي من وجوه:-

الأول: شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فإنه قال غداة مقتل عمر: رأيت عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجَون، فلما ثاروا سقط منهم الخنجر الذي ضرب به عمر، وفي رواية أن عبد الرحمن رآهم يدخلون في مكان يتشاورون، وبينهم خنجر له رأسان، مقبضه في وسطه، فقتل عمر في صبيحة تلك الليلة، فلما بلغ عثمان قولُ عبد الرحمن استدعاه وسأله، فقال عبد الرحمن: انظروا إلى السكين، فإن كانت ذات طرفين فلا أرى القوم إلا قد اجتمعوا على قتله، فنظروا إليها فوجدوها كما وصف عبد الرحمن.

الثاني: حديث كعب بن ماتع المعروف بكعب الأحبار - وهو يهودي محدث الإسلام - مع عمر بن الخطاب غداة توعده أبو لؤلؤة بقوله: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب؛ وكان عمر قال له: بلغني أنك تقول: لو شئت أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت، فقال أبو لؤلؤة: نعم، ففطن عمر إلى ما في قوله من وعيد، فقال: لقد توعدني العبد آنفاً، فلما كان من الغد جاء كعب الأحبار إلى منزل عمر فقال له: يا أمير المؤمنين، أعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله التوراة، قال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال كعب: اللهم لا، ولكن أجد صفتك

وحليتك، وأنه قد فني عمرك، وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً، فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها، فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة فطعن!

هذا الكلام ـ كما يرى كل من له مسكة من عقل ودراية في علم ـ مدخول وغير معقول، وهو كالصريح في أن كعباً كان يعرف ما يدور في الخفاء ويدبر من الكيد لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولماذا لم يكن هذا التنبؤ قبل ذلك بشهر أو شهرين، أو أسبوع أو أسبوعين؟ ولماذا كان في الغد من وعيد أبي لؤلؤة لعمر؟ ولماذا اختص كعب بن ماتع بهذه النبوءة عن التوراة، والتوراة ذائعة بين الناس، وفي المسلمين يهود وغيرهم من قرائها وحفاظها وعلمائها، وفيهم من هو أعلم وأوثق وأسبق إيماناً من كعب؟!

أما أن الشبهة في هذا الحديث تكاد تكون يقيناً، وكاد المريب أن يقول خذوني؛ ولو أنا أحسنا الظن بإسلام كعب المحدث بعد تلبثه على يهوديته حياة رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكر وبعض خلافة عمر حتى دخل في الإسلام على يديه، لقلنا إن كعباً كان على علم تام بالمؤامرة، فلم تواته الشجاعة في أن يكون صريحاً بإخباره، ولكن أراد أن ينبه أمير المؤمنين لما يراد به في هذه الصورة الملففة في بجاد التنبؤ عن التوراة، وخشي على نفسه من التصريح أن يناله سوء من المتآمرين أو من يتصل بهم، أما إن كانت يهودية كعب لا تزال تحيا في قلبه، كما حييت في قلب ابن السوداء من بعده، وتسترا بالإسلام، فيكون إخباره عن المؤامرة بهذا الأسلوب الملتوي فرقاً من الأخذ والقتل إذا انكشف الأمر، وقد يكون ذلك إمعاناً في المكر وإحكام التدبير، لأنه قد لا يغيب عن تدبيرهم الخبيث أن عمر إذا عهد إلى شخص معين كما كان يطلب إليه كعب تختلف الأمة وتتفرق كلمتها، وفي غمرة هذا الاختلاف والتفرق يحدثون ما مكروا فتصبح الأمة وهي أشغل بما هي فيه عن النظر في الجناية وتحقيقها، وقد

يتسلل المتآمرون أو بعضهم إلى إحدى الطائفتين فيكونون معها ويستوجبون حمايتها لهم ويصيبون من المسلمين فوق ما كانوا يدبرون، وكان هذا الدور بأكمله هو مدار نبوءة كعب وبطولته في هذه الرواية.

ثم ليقل لنا الكعبيون: ما هذا التحديد الدقيق الذي ينص على زمن وفاة رجل من الناس مهما عظم شأنه في كتاب منزل من عند الله هدى ونوراً؟ ولماذا خص بذلك عمر بن الخطاب دون سائر المؤمنين ممن مضى وممن لحق؟ ولماذا لم ينص في التوراة على وفاة الصديق وهو أجل مكاناً في الإسلام من عمر؟ لا، بل لماذا لم يقل هذا في حق رسول الله ﷺ، وقد ثبت أن التوراة بشرت به نبياً ورسولاً؟ ولماذا لم يقل في هذا حق موسى عليه السلام، وهو الذي كلمه الله تكليماً وأنزل عليه التوراة؟!!

ومما يوري زند الشبهة في حديث كعب الأحبار أن تنبؤاته التوريَّة لم تظهر إلا في مواضع نكيء فيها جرح الإسلام وكيد بها المسلمون، فقد روي أن عثمان بن عفان لما جمع الأمراء بالموسم ليستشيرهم في حال الناس وفيما يُذاع عنه وعنهم، ونفر من مكة إلى المدينة ـ أشخص معه معاوية، فرجز به حاديه فقال:

قد علمت ضوامر المطيّ   وضمَّرات عوَّج القسيّ
أن الأمير بعده عليّ   وفي الزبير خلف رضيّ

وطلحة الحامي لها وليّ

وكان كعب يسير خلف عثمان، فقال للحادي: كذبت، صاحب الشهباء بعده، وأشار إلى معاوية، فسأله معاوية عن الذي يقول، فقال: نعم، أنت الأمير بعده، ولكنها لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي.

الثالث: روي أن أباهريرة علم بهذا الائتمار والتدبير المبيت فأنذر به عمر فلم يعبأ به، كما لم يعبأ من قبل بوعيد أبي لؤلؤة، لما يعلمه من نفسه أنه قائم على الرعية بالحق والعدل، وكانت سنة الراشدين ألا يأخذوا أحداً بشبهة أو ظن خصوصاً فيما يتعلق بأشخاصهم، فقد أبى عثمان قتل

الثائرين عليه، وأبى علي قتل ابن ملجم، وقد قيل له فيه قبل أن يحدث ما أحدث.

الرابع: روي أن عيينة بن حصن الفزاري ـ وكان من المؤلفة قلوبهم الذين اشتد عليهم عقب عمر في وطئه بعد أن ظهر الإسلام وقويت شوكته ـ قال لعمر: احترس أو أخرج العجم من المدينة، فإني لا آمن أن يطعنك رجل منهم في هذا الموضع، ووضع يده في الموضع الذي طعنه فيه اللعين أبو لؤلؤة.

وهذا أسلوب في الإنباء خرج في غير مخرج حديث كعب الأحبار، وكأن وجه الفصل بين الحديثين هو فرق ما بين الرجلين؛ فأحدهما فيه دهاء قومه ومكرهم وعقل علمائهم فزوى القضية عن أسلوب الصراحة إلى أسلوب التنبؤ والكهانة اعتماداً على سابق عهده ومشهور مكانه في قومه وأهل ملته، وأما ثانيهما فأعرابي فيه جفوة البادية وصراحتها، فألقى بالحديث في أسلوب الناصح المحذر، وهو أعلم أنه نصح فات إبانه وتحذير لا يفيد، وقد يكون للعصبية العربية أثر في تحريك عيينة إلى الإدلاء بهذا التحذير.

ومما يؤيد قضية التآمر على اغتيال عمر أن الهرمزان نكث عهد المسلمين قبل أخذه أسيراً غير مرة، واحتال للخلاص من القتل وأسلم، والله أعلم بإسلامه؛ روي أنه بعد أن انهزم بهزيمة قومه وجنده عاهد المسلمين ودخل في ذمتهم، ثم نكث عهده، ثم عاهد فخاس بالعهد، فلما ظفروا به آخر الأمر وعلم ألا مفر له طلب الأمان على أن ينزل على حكم عمر، فسيَّروه إلى المدينة موثقاً، فلما بلغها وأجلس بين يدي عمر قال له: ما عذرك؟ وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك؛ قال عمر: لا تخف ذلك، فاستسقى الهرمزان ماء وأظهر الجزع، وقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء، فقال عمر: لابأس عليك حتى تشربه، فكفأ الهرمزان الإناء، وقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به، فقال عمر: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم، فأسلم الهرمزان مكانه.

وهذا إسلام كما يراه البصراء لا يغني عن صاحبه في السلامة من النفاق شيئاً، وقد يعضد هذا أن الهرمزان لم يجهر بكلمة الإسلام إلا حينما رأى الموت يكنفه من جوانبه، ويحيط به من أقطاره، ونفِدت حيله وخبائثه، وأيقن ألا منفذ له إلا من طريق النفاق الخبيث.

هذه شواهد ودلائل تمسك بأصابع الهرمزان الفارسي، وجفينة النصراني، وآخرين الله يعلمهم، منغمسة مع الخبيث أبي لؤلؤة في دم أمير المؤمنين فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتنادي بأن الأمر كيد ماكر دبر للإسلام في ذات أقوى رجالاته بطشاً بالمنافقين، وإلى هذا ذهب كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين؛ قال الأستاذ حسين والي رحمه الله: وفي كلام بعض المؤرخين أن قتل عمر لم يكن إلا عن ائتمار بين أولئك الدخلاء كما شهد عبد الرحمن ابن أبي بكر، ووقف على هذا الائتمار أبو هريرة وأنذر به عمر قبل مقتله بثلاثة أيام.

وقال الأستاذان الفاضلان صاحبا كتاب «سيرة عمر» في تعليقة فاحصة: «أما التوراة فهي بين أيدي الناس اليوم معروفة مقروءة، وما فيها شيء مما قال كعب، وليس يعقل أن يكون في التوراة تاريخ وفاة عمر رضي الله عنه وتحديدها، والتوراة كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه ليبين أحكام الدين وأصل الشريعة، لا للإخبار عن وفاة رجل لم يكن قد خلق؛ فمن الصعب جداً قبول دعوى كعب أن هذا الخبر موجود في التوراة، ولا بد إذاً من إدارة المسألة على وجه آخر، والسؤال عن كعب من أين علم أن عمر سيموت بعد ثلاثة أيام؟ وكيف عرف عيينة بن حصن موضع الطعنة؟ وكيف تجرأ أبو لؤلؤة وهو غريب لا قيمة له على هذا الأمر الهائل، وهدد به أمير المؤمنين بقوله: لأصنعن لك رحى يتحدث بها العرب؟ أكان ذلك لأنه لم ينصفه من المغيرة؟ كلا، وإنما كانت جريمة سياسية ومؤامرة كبرى، لو جرى فيها تحقيق قضائي لظهر أن في هذه الجريمة شركاء هم الهرمزان وجفينة، ومتهمين فرعيين هما كعب الأحبار وعيينة بن حصن؛ أما جفينة والهرمزان، فقد شاهدهما عبد الرحمن بن أبي

بكر ـ وهو نزيه ليس له غرض ـ يتناجيان هما وأبو لؤلؤة، فلما رأوه قاموا فسقط من بينهم خنجر له رأسان، ظهر أنه الخنجر الذي قتل به أمير المؤمنين، وكان الثلاثة من أعداء الإسلام، وخصوم العربية، أما الهرمزان فقد خسر ملكه، وأضاع بلاده، وعاش في المدينة، فكان من الطبيعي أن يحنق على الإسلام أشد الحنق، وأما أبو لؤلؤة فكان خبيثاً يحمل في صدره أشد الضغن على العربية والإسلام، وكان إذا رأى السبى الصغار مسح رؤوسهم وبكى وقال: أكل عمر كبدي، وكل ذلك كان قبل رفع شكواه على المغيرة، وكان جفينة نصرانياً خبيثاً يجتمع بهما ويشاركهما آراءهما».

أفإذا قام عبيد الله بن عمر بن الخطاب وغضب لقتل أبيه خليفة المسلمين ـ بيد مجوسي أثيم، وتدبير دخيل في الإسلام نكّاث للعهود، وممالأة نصراني خبيث وجرثومة من جراثيم النفاق، وسواهم من اليهود وجفاة الأعراب ومنافقي العرب ـ طُلب إلى الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه أن يكون أول عمله في خلافته قتل عبيد الله بن عمر دون تثبت وتحقيق؟ فإذا أبى عثمان أن يجري على هذه السياسة الخرقاء قال المنحرفون: إنه عطل حدود الله تعالى، وهل في حدود الله تعالى وشريعته أن يُقتل ولي دم قَتل من ثبت عنده أنه مالأ وأعان على قتل أبيه خليفة المسلمين؟ لا، بل الذي يعرفه الفقه الإسلامي أن من أعان على القتل عمداً، وكان لإعانته مدخل في التنفيذ أبيح قتله، والهرمزان وجفينة ثبت بشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر وأبي هريرة أنهما أعانا ومالآ على قتل عمر، وعبد الرحمن وأبو هريرة مجزوم بعدالتهما ونزاهتهما وبعدهما عن الشبهة، ومظنة الغرض.

إذا كان المنحرفون على عثمان قد رضوا من أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه ألا يحكم في قتلة عثمان رضي الله عنه ـ وهو من هو ـ بحكم قبل التثبت والتحقيق، أفلا يرضون من عثمان ببعض هذا في عبيد الله ابن عمر قاتل الهرمزان وجفينة ـ وهما ما هما ـ وقد ثبت عند عبيد الله أنهما اشتركا في تدبير قتل أبيه؟ هذا تحكم فوق طاقة العقل إدراك سره، ومهما

يكن من شيء فإن موقف عثمان في هذا الحادث الذي فاجأه أول عهده بالخلافة كان أسلم موقف وأحكمه في شرعة الحق والإنصاف، ومنهج السياسة وحسن التدبير.

الفصل التاسع

بين عثمان وعلي

هذا الفصل لم يكن القلم فيه بليل الريق، طيِّع المقادة، ولكنه كان وقافاً كثير التلفت، كثير الحذر، وأنا أشهد الحق أني عذرت قلمي، وعذرت نفسي، فإن عذرني الناس فنعما هي، وإن أبوا فما أحب أن أرضيهم بسخط الله تعالى، وسخط البحث؛ وإن من حق البحث على الباحث أن يترفق به في المضايق، وأن يتئد معه في الخطو عند المزالق، وأن يتثبت عند اشتجار الآراء، واختلاف المذاهب وتضارب الروايات؛ ولم يكن هناك فصل من فصول هذا الكتاب تباعدت به الإتجاهات، واضطربت فيه الروايات مثل هذا الفصل، فكان موقفي فيه أن أقرأ أولاً وثانياً وثالثاً، ثم أستصفي مما قرأت ما يتفق مع حياة الإمامين: الخاصة أولاً والعامة ثانياً، وقد تأكد عندي أن أعدل ميزان لوزن الرجال وتقدير أعمالهم، ومعرفة الصحيح من الزائف فيما ينسب إليهم، وكتابة سيرهم كتابة تقربها من الحق والإنصاف ـ إنما هو دراسة أخلاقهم الشخصية، وتعرف أحوالهم في حياتهم حتى يمكن الباحث أن يصنع من هذه الدراسة «صنجة» يزن بها كل ما يصادفه في طريق البحث من رأي أو مذهب أو رواية.

والدارس لحياة الإمامين: عثمان وعلي، يرى أنهما من قريش في أعز بيتيها، وأنهما من أسبق الناس إسلاماً، وأنهما ألصق برسول الله ﷺ نسباً وصهراً، وأنهما ألزم له صحبة وعشرة، وأنهما أقرب إلى قلبه مودة ومحبة،

وأنهما أحرص على التأدب بآدابه والأخذ بسيرته، وأنهما من الفقه في الدين على درجتهما في الفضل من سائر المؤمنين، وأنهما في نظر الأمة على مكانهما من الشيخين أبي بكر وعمر، وأنه لم يعرف عنهما نبوٌّ في حالة أو كلمة، ولا حفظت عليهما سقطة أو هَنة.

قد تكون هناك فوارق في حياة الإمامين فيما يصلهما بالناس، ويصل الناس بهما مما يرجع إلى طبيعتيهما: فعثمان مطبوع على اللين والدماثة مما قد يدعوه إلى بعض المداراة، وعليٌّ مجبول على البطولة والشجاعة وهما يأبيان على المتخلق بهما إلا الصراحة، ولكن هذه الفوارق بين شخصية الإمامين لا تصل البتة إلى حد أن تخرج بهما عن خصائصهما الأخرى.

على هذا الأساس درست حياة الإمامين فيما يختص بموقف كل منهما من صاحبه زمن الخلافة العثمانية، فلم أستطع أن أقبل هذه المحاورات القاسية التي تطفح بها كتب التاريخ معزوة إلى الإمامين فيما جرى بينهما من مقاولات؛ ولم أستطع أن أقبل تلك الرسائل التي يزعم بعض الرواة أنها مشت بينهما بهذا الأسلوب الذي يتأبى عليه كل التأبي أدب الإمامين النفسي والتعبيري؛ ولم أستطع أن أقبل ذلك الاتهام الشنيع الذي تزعم القصص والحكايات أن كل واحد من الإمامين نسبه إلى صاحبه.

ومفتاح المسألة أن التاريخ الصحيح قد عرف أن لعلي رضي الله عنه شيعة هلك بعض طوائفها بحبه، وهؤلاء كذبوا عليه وكذبوا له، وعرف التاريخ أن لعثمان رضي الله عنه شيعة من قومه وأهل بيته أحاطوا به في خلافته، وطلبوا الدنيا بالتحزب والعصبية له، وهؤلاء كذبوا عليه وكذبوا له، ومن هنا وهناك كان وضع تلك المحاورات، واختلاق تلك الرسائل، وافتراء هذه التهم!

ليس معنى هذا أن علياً لم يغضب قط على عثمان، وأن عثمان لم يجد في نفسه قط على عليّ، فذاك فوق طاقة البشر، أو دون منزلة الأناسي، فعثمان خليفة المسلمين بيده مقاليد الدولة الإسلامية كلها، وحوله كثير ممن

تحلبت أشداقهم للدنيا، فنوَّل وحرم، فرضي من نال، وسخط من حرم؛ وليس هو بمعصوم ولكنه مجتهد.

وعلي رضي الله عنه أعظم المسلمين في عهد عثمان، إليه يئلون، وإلى كنفه يلجأون، وبساحته يلوذون، وبجاهه يستجيرون، فإذا نفر إليه من الرعية متظلم كان أحق الناس برفع مظلمته إلى الخليفة، وإذا عاتب عثمانَ في شيء من شكاية الرعية عاتبه في أدب علوي يليق بمقام علي وفضله؛ وقد يغضب لله فيشتد، ولكنه غضب المؤمن المخلص، وشدة الناصح الأمين. وروى البخاري في صحيحه عن ابن الحنفية (محمد ابن علي بن أبي طالب) قال: «لو كان عليّ رضي الله عنه ذاكراً عثمان رضي الله عنه، ذكره يوم جاء ناس فشكوا سعاة عثمان، فقال لي عليّ اذهب إلى عثمان فاخبره أنها[1] صدقة رسول الله ﷺ، فمر سعاتك يعملون بها، فأتيته بها، فقال: أغنها عنا، فأتيت بها علياً فأخبرته، فقال: ضعها حيث أخذتها» والمتأمل في هذا الحديث يدرك أن ابن الحنفية إنما قال ذلك رداً وتكذيباً على من افترى وزعم أن علياً ذكر عثمان بما لا يليق، ويدرك منه أدب الإمامين في تخاطبهما ومراسلاتهما.

وإذا تلوّم عثمان من موقف عليّ معه في شيء من الأشياء، فذاك لأنه يرى مكانه بين الناس، ويعرف له حقه في الإسلام وفضله على سائر المؤمنين، فيحب أن يراه إلى جانبه ليستند إليه.

وإذا كان لا بد من صورة مما يمكن أن يكون قد جرى بين الإمامين من المعاتبة والتناصح فإليك ما ساقه الطبري فيما يرويه قال: في سنة أربع وثلاثين هجرية اجتمع الناس بالمدينة ـ بعدما تكاتبوا ـ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكلموه في عثمان رضي الله عنه، فدخل علي على عثمان فقال له: «إن الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك؟ وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه؛ إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء

(١) الضمير يعود على صحيفة كانت عند علي فيها بيان أحكام الصدقة.

فنبلغكه، وما خصصنا بشيء دونك، وقد رأيتَ وسمعتَ، وصحبت رسول الله ﷺ، ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب أولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى شيء؛ فالله الله في نفسك؛ فإنك والله ما تبصّر من عمي، ولا تعلّم من جهل، وإن الطريق لواضح بيِّن، وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي وهَدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة؛ فوالله إن كلاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَل وضُل به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة؛ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم» وإني أحذرك الله، وأحذرك سطوته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول؛ فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها عليها، ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً».

فقال عثمان: «قد والله علمت لتقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك، ولا أسلمتك، ولا عبت عليك، ولا جئتُ منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة، وآويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا علي! هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم أن عمر ولاه؟ قال: نعم، قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟» قال علي: سأخبرك، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه، إن بلغه منه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل، ضعفت، ورفقت على أقربائك؛ قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم؛ قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته، فقال علي: أنشدك الله؟ هل تعلم أن معاوية

كان أخوف من عمر، من «يَرْفأ» غلامُ عمر منه؟ قال: نعم، قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك؛ وأنت لا تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغير على معاوية. ثم خرج علي من عند عثمان، وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر فقال:

«أما بعد» فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة: عيابون طعانون، يُرونكم ما تحبون، ويسرون لكم ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال النعام، يتبعون أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نغصاً، ولا يردون إلا عكرا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذرت عليهم المكاسب، ألا فقد والله عبتم عليّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم، وأوطأت لكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليَّ؛ أما والله لأنا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً، وأقمن إن قلت: هلم، أُتي إليَّ، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم أنطق به، فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه دون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه، فَضَل فَضْل من مال، فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد؟ فلم كنت إماماً؟

وروى أبو العباس المبرد في الكامل عن قَنْبر مولى علي بن أبي طالب أنه قال: دخلت مع علي بن أبي طالب على عثمان بن عفان رضي الله عنهما، فأحبا الخلوة، فأومأ إليّ عليّ بالتنحّي، فتنحيت غير بعيد؛ فجعل عثمان يعاتب علياً، وعلي مطرق؛ فأقبل عليه عثمان، فقال: ما بالك لا تقول؟ فقال إن قلتُ لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب. قال أبو العباس: تأويل ذلك، إن قلت اعتددت عليك بمثل ما اعتددت به علي، فلذعك عتابي، وعقدي ألا أفعل ـ وإن كنت عاتباً ـ إلا ما تحب.

ولما اشتد الأمر على عثمان فزع إلى عليّ فكتب إليه: أما بعد، فإنه قد جاوز الماء الزبى، وبلغ الحزام الطُّبيين، وتجاوز الأمر بي قدره، وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وذكر ابن عبد ربه في العقد: أن عثمان أتى علياً يعوده في مرضه، ومروان معه، فقال عثمان: أما والله لولا ما أرى منك ما كنت أتكلم بما أريد أن أتكلم به؛ والله ما أدري أي يوميك أحب إلي؟ أيوم حياتك أم يوم موتك؟ أما والله لئن بقيتَ لا أعدم شامتاً يتخذك عضداً، ولئن متَّ لأفجعن بك، فحظي منك حظ الوالد المشفق من الولد العاق، إن عاش عقه، وإن مات فجعه! فليتك جعلت لنا من أمرك علمًا نقف عليه ونعرفه، إما صديق مسالم، أو عدو محارب، ولم تجعلني كالمختنق بين السماء والأرض، ولا يرقى بيد، ولا يهبط برجل، أما والله لئن قتلتك لا أصيب منك خلفاً، ولئن قتلتني لا تصيب مني خلفاً، وما أحب أن أبقى بعدك!

فلما سكت عثمان ابتدر مروان فتكلم بكلمة لم تجر في مجرى كلام الإمامين، فزجره عثمان فأسكته، فقال عليٌّ كرم الله وجهه: إني والله في شغل عن جوابكما ولكني أقول كما قال أبو يوسف «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وكان عليّ رضي الله عنه يرى أن مروان بن الحكم في جماعة من شباب بني أمية يكتنفون عثمان رضي الله عنه، ويشيرون عليه في أمور الدولة، فيسمع لهم ويقدمهم ويثق بهم، وكان هؤلاء محسودين من نظرائهم من شباب قريش وغيرهم من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم على هذه المنزلة في مناصب الدولة، فنشأ بين أولئك وهؤلاء شيء من التنافس والتغالب يشبه بعض الشبه ما كان بين بيوتهم قبل الإسلام، وقد كان لذلك أثره القوي في استشراء الفتنة واشتداد العاصفة.

وكان موقف علي رضي الله عنه من أصعب المواقف وأدقها، يرى هذا التغالب ويرى آثاره الوبيلة، ويرى ويسمع ما يقوم به السبائيون، وما

يذاع عن الأقطار الإسلامية فيقف حائراً، لا يدري ما يصنع، يكلم عثمان فيسمع منه، ويجيبه عثمان إلى ما يريد، ولكنه يرى نار الفتنة تزداد اشتعالاً، ويرى عمال عثمان وحاشيته في مقامهم منه، وكان كثيراً ما تصور كلماته حيرته وشديد ألمه فيقول: «عياذ الله! يا للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي قال: تركني وقرابتي وحقي، وإن تكلمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيِّقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبته لرسول الله ﷺ».

والذين يسارعون إلى الخطيئة فيتهمون علياً بخذلان عثمان رضي الله عنهما وعدم نصرته يجهلون أو يتجاهلون قيمة الرأي العام في الثورات الجامحة، ذلك الرأي الذي لا يبالي في سبيل الوصول إلى أهدافه الثورية بالأشخاص مهما عظمت مكانتهم في النفوس، وقد عرفنا أن هذا الرأي العام الثائر هو الذي هدد علياً وتوعده فيما بعد، بل أكرهه على أن ينزل على ما لا يحب، ويرضى بما كان يسخط، فهؤلاء الخوارج الذين كانوا من جند علي في حرب صفين رأوا أصحاب معاوية يرفعون المصاحف فقالوا له: القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف، لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان؛ فنزل الإمام على إرادتهم ورد الأشتر وجنده، وكان الظفر والنصر في جولة بين يديه.

هؤلاء الثائرون الذين يهددون علياً هذا التهديد الفاجر لا يؤمن موقفهم منه في الفتنة العثمانية لو تعرض لهم بغير النصيحة والتسكين، وقد بذل أقصى ما يستطيع من النصح والإصلاح، فلم يبلغ من الناس ما يريد.

ولعل مما يقرب تصوير موقف علي وعثمان من هذه الأحداث ما يرويه ابن عبد ربه في العقد عن معبد الخزاعي قال: لقيت علياً بعد الجمل، فقلت له: إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غداً إن شاء الله. قال: سل عما بدا لك، قلت: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟ قال: إن عثمان كان

إماماً، وإنه نهى عن القتال، وقال: من سلّ سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا؛ قال: فأي منزلة وسعت عثمان إذ استسلم حتى قتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: «لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين» قلت: فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل؟ قال: إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا، قال الله ﴿ وَلَمَنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فقاتلنا نحن من ظلمنا، وصبر عثمان، وذلك من عزم الأمور.

وأصدق كلمة تذكر في هذا المقام ما روي عن محمد بن سيرين قال: «ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس» وذلك أمر مركوز في الطباع.

الفصل العاشر

حكم الهوى ـ جمع القرآن أعظم مفاخر عثمان ـ الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان ـ صحف الصديق ومصحف عثمان ـ استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان ـ الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان ـ موقف ابن مسعود من مصحف عثمان ـ رأي العلماء في موقف ابن مسعود ـ موقف عثمان من ابن مسعود ـ تجديد الحرم ـ إتمام الصلاة في منى وعرفات.

حكم الهوى

إذا غلبت الأهواء على مجتمع من المجتمعات، واستحكمت في تفكيره العصبية المذهبية، واستحوذت على نوازعه الأغراض السياسية، وقادته الثورات الجمهورية، واستولت على زمامه العقليات العامة، وسيطرت على مقادته الإنقلابات الاجتماعية ـ فقد بطل لديه حكم العقل المتزن، ووهنت في قلوب أفراده وطوائفه العقائد الدينية، وفقدت قيمها الموازين الخُلقية، وضعف الوازع النفسي، سواء أكان مرده تقدير جلال الله تعالى، أم كان مرده القلق الوجداني وتأنيب الضمير، كما يقولون، وانقلبت محاسن الأمور إلى أسواء، واضطربت نظرات الناس إلى الحياة، والتبست الحقائق بالأباطيل، ولوّنت الوقائع بألوان الأساطير، وعمِّي التاريخ، وانزوى أنصار الحق في حَجرات الحياة يهجعون في ظل السكينة الكظيمة حتى يثور الناس إلى رشدهم، وتستفيق من سكرتها عقولهم، ويستعدوا لسماع صوت الحق، وقبول هديه.

هنالك تستيقظ حواس التاريخ، ويتنبه إلى ما حُمِّل من أثقال الماضي المضطرب، فينظر إليها نظر الحائر الدهش! وأنى له أن يتخلص من تلك الأثقال التي حُمِّل أوزارها، وقد سودت من صفحاتها معظمها؟! لكن الحق وهو أعظم مظاهر الجلال الإلهي، لا يمكن أن تخفي أشعته سحائبُ الباطل

مهما تراكمت. وإذا كان التاريخ قد أثقل بأوزار الباطل فإنه قد حمل بين معاطفه لمعاً من الحقائق تكفل للباحث البعيد عن المؤثرات الزمنية أو المذهبية أو الإجتماعية السلامة من التورط فيما تورط فيه من خضعوا لتلك المؤثرات في عصورها، أو من خدعوا بالرواية عنهم من القصاصين ورواة السير وحوادث التاريخ عمن هب ودب، ومشى مع الناس؛ وعندئذ قد يتاح له الوقوف على شيء من الوقائع الصحيحة. وقد كان للتاريخ الإسلامي في مرحلة الفتنة العثمانية وما أعقبها من أحداث أوفى نصيب من ذلك كله، انتهى به إلى هذه الصورة الدامية الباكية الحزينة المدونة في كتب التاريخ وقد يجد الباحث بين أطوائها قبساً من نور الحق وبلج الهداية ودلائل الحقيقة، يهتدي بها الساري في ليل هذا التاريخ الدامس، حتى يخرج إلى الأفق وفي يده قطع من حوادث، وأشلاء من أحداث، وألوان من شخصيات، تتقارب وتتواصل، فتؤلف وقائع كاملة وشخصيات قائمة، إذا تعرّف إليها بما نصب لنفسه من أعلام في طرائق البحث وجد فيها حوادثه التي يريد، وشخصياته التي يبحث عنها.

* * *

جمع القرآن أعظم مفاخر عثمان

شرعتنا في كتابة ما كتبنا من سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه أن نتلمس الحقائق في مكامنها، ونستخرجها من طوايا الروايات المتكاثرة المختلفة على نفسها. حتى أتينا على أمهات الشبه وأصول المآخذ التي تشبث بها المنحرفون، وكشفنا بقدر استطاعتنا عن وجه الحق فيها. ولم يكن يدور بخلدنا أن يعمد أولئك الخارجون إلى فرائد عثمان في التاريخ الإسلامي، وإلى أحسن محاسن رجالات الإسلام وأفضل أعمال الراشدين، وأبقى أثر إسلامي وأنفعه وأعوده على الأمة بالخير والبركة في حاضرها وماضيها ومستقبلها، فينظموها في سلك المعايب والمآخذ، ولكنها الأهواء إذا عمَّت أعمت، وإذا سادت أفسدت! وأي عقل مستقيم يفهم أن جمع القرآن الكريم، وتوحيد مصاحفه، واجتماع الأمة كلها في مشارق الأرض

ومغاربها على نص موحّد لدستورها المسيطر على مقومات حياتها ـ عيب من العيوب التي تعد على أمير المؤمنين عثمان، ويكون دعامة لشر انقلاب عرفه المسلمون؟ إي وربي، إنه لكذلك صنع المنحرفون أعداء الإسلام، وكان أسلم ما قالوه في هذه القصة العجيبة: أن عثمان أساء فأحرق مصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبيّ بن كعب، وجمع الأمة على مصحف زيد بن ثابت.

وقصة جمع القرآن وتوحيد المصاحف تحتاج إلى شيء من البسط والبيان، لتبدو كما أرادها الله تعالى أعظم منقبة في سيرة عثمان رضي الله عنه؛ وإذا كان أبو بكر الصديق أول مجدد لأمر الإسلام بأعماله الفذة ومواقفه الخالدة في أحداث الردة، فإن عثمان أول مصلح في الإسلام، قام بأعظم عمل قلد به الأمة الإسلامية أجل المنن التي لا تزال له في عنق كل مسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بجمعه القرآن الكريم، وتوحيد المصاحف، واجتماع كلمة الأمة في أقطار الأرض على نص موحّد لدستورها المهيمن على أنحاء حياتها ما تعاور عليها الليل والنهار، وكرت بها السنون والأحقاب.

* * *

الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك: «أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأَذْرَبيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان

للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً: إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم؛ ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

ويؤخذ من هذا الحديث الصحيح أمران:

الأول: أن السبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعاً مرتباً في صحف أبي بكر الصديق، إنما هو اختلاف قراء المسلمين في القراءة اختلافاً أوشك أن يؤدي بهم إلى أخطر فتنة في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الإجتماعي والسياسي والخلقي، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتي خير من قراءتك، فأفزع ذلك حذيفة، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف فيستشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره ويعظم خطبه، فيمس نص القرآن، وتحرّف عن مواضعها كلمه وآياته، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها في كتابها، حتى أصبحت نسخ كتابيهم ـ التوراة والإنجيل ـ متعددة متضاربة، يرد بعضها بعضاً، وينقض بعضها بعضاً؛ وقد تمسك كل فريق بما في يده، وجهد بعد تطاول الزمن أن يؤيده بالتحريف والتأويل بالباطل والزيادة فيه والنقص منه، تبعاً لأهوائهم وأغراضهم الفاسدة، حتى انتشر الأمر على خلائفهم فلم يقدروا على تدارك ما فات أسلافهم، وأصبح الباطل في أيديهم أصلاً يرجعون إليه.

ثانيهما: أن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقاً تاماً على أن ما في تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبي ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ وأن تلك الصحف ظلت في

رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يول عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنما جعل الأمر شورى في الرهط المصطفين بالرضا من رسول الله ﷺ ـ أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصحف، وعنها نقل مصحفه (الرسمي) وأنه أمر أربعة من أشهر قراء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن ووعياً لحروفه وأداء لقراءاته وفهمًا لإعرابه ولغاته: ثلاثة قرشيين، وواحداً أنصارياً، هو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق، وفي بعض الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبيّ بن كعب، وآخرون من قريش والأنصار.

أما السبب الذي جعل تلك الصحف تنتقل إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها فهو ما صرح به العيني وابن حجر في شرحيهما صحيح البخاري بعبارة متقاربة؛ قال ابن حجر: وإنما كان ذلك عند حفصة لأنها كانت وصية عمر، فاستمر ما كان عنده عندها حتى طلبه منها من له طلب ذلك. وهي عبارة ظاهرة في أن هذا حق أعطاه عمر بن الخطاب وهو خليفة المسلمين ابنته أم المؤمنين حفصة حتى يتم إقامة خليفة بعد الشورى، وعندما تمت بيعة عثمان بالخلافة، واستقر الأمر وجاءت الحاجة إلى الصحف طلبها من حفصة بمقتضى منصبه، ثم ردها إليها لأن الصفة الرسمية التي كانت لها انتقلت منها إلى المصحف الذي تم نسخه عنها فاجتمعت عليه الأمة. وكان من نظر عثمان ألا يجعل لغير المصحف الموحد لقراءة القرآن وأحرفه وجوداً رسمياً، قطعاً لدابر الإختلاف، فلم يشأ أن يحتفظ بالصحف عنده حتى لا يتسرب إلى أوهام من عسى أن يقع عليها من الولاة الوافدين من الأقطار وغيرهم على دار الخلافة ـ أن لها صفة المصحف الرسمي الذي انتهى إليه الإجتماع من الأمة، ووزعت نسخه على الأمصار الإسلامية، ولئلا يعود النزاع والاختلاف في القراءة كما كان، فتضيع الحكمة من هذا الجمع العثماني. قال ابن الجوزي: وإنما كتب

عثمان من الصحف مصاحف وسيّرها إلى الأمصار، ولم يفعل ذلك الصديق رضي الله عنه، لأن غرض أبي بكر كان جمع القرآن بجميع حروفه ووجوهه التي نزل بها، وهي على لغة قريش وغيرها، وكان غرض عثمان تجريد لغة قريش من تلك القراءات.

وإنما لم يحرق عثمان رضي الله عنه الصحف كما أحرق غيرها من مصاحف الأفراد، لأن تلك الصحف كانت لها صفة رسمية وانعقد عليها الإجماع، وهي أصل المصحف العثماني الذي انتقلت إليه منها الصفة الرسمية؛ فكان من الخير أن يتلبث بها حتى ذيوع هذا المصحف بين عامة المسلمين وخاصتهم، ويأخذ مكانه في مدارساتهم وتعلمهم وتعليمهم وحفظهم وإتقانهم، لتقوم الحجة بتلك الصحف على من تحدثه نفسه بشق عصا الطاعة ورجع الأمة إلى الإختلاف. جاء في كلام بدر الدين العيني: فإن قيل: فما قصد عثمان بإحضار الصحف، وقد كان زيد ومن أضيف إليه حفظوه؟ قيل: الغرض بذلك سد باب المقالة وأن يزعم زاعم أن في الصحف قرآناً لم يكتب، ولئلا يرى إنسان فيما كتبوه شيئاً مما لم يقرأ به فينكره، فالصحف شاهدة بجميع ما كتبوه.

ولِذلك عندما انتهى هذا الدور بمرور عهد الخلافة العثمانية، وعهد خلافة علي كرم الله وجهه، وقام بالأمر معاوية رحمه الله تعالى، طلب مروان بن الحكم ـ وكان والياً على المدينة من قِبَل معاوية ـ هذه الصحف فغسلها. قال ابن شهاب الزهري ـ كما رواه ابن حجر ـ: أخبرني سالم ابن عبد الله بن عمر قال: كان مروان يرسل إلى حفصة، يعني حين كان أمير المدينة من جهة معاوية، يسألها الصحف التي كتب منها القرآن، فتأبى أن تعطيه، فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه تلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر، فأمر بها مروان فشققت، وقال: إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب.

* * *

صحف الصديق ومصحف عثمان

روى البخاري في الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال «أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن؛ وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر؛ قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه؛ فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فتتبعت القرآن، أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما».

هذه الصحف التي أمر الصديق زيد بن ثابت بجمعها، وانعقد عليها إجماع الأمة القاطع من غير شذوذ ولا نكير، هي التي اعتمد عليها عثمان في جمعه المصحف الإمام، كما هو صريح حديث حذيفة المتقدم؛ فلم يجمع عثمان الناس على مصحف زيد بن ثابت، ولا مصحف فرد من الأفراد كائناً من كان، وإنما جمع الأمة على مصحف انعقد عليه الإجماع الذي لم يتطرق إليه أدنى شبهة أو خلاف، وفي الأمة إذ ذاك ابن مسعود وسواه من عشرات الصحابة بل مئاتهم ممن كانوا يحفظون القرآن كاملاً مرتباً كما عرضه رسول الله ﷺ آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام، ولم يسمع في صحف الصديق إنكار لشيء منها أو خلاف في

أحرفها، وليس لزيد بن ثابت فيها إلا مهمة النقل من العسب واللخاف وصدور الرجال، تحت رعاية أفضل الأمة وأعلمها بكتاب الله بعد رسوله ﷺ، أبي بكر الصديق، وتحت رقابة وزيره القوي الأمين فاروق الإسلام عمر بن الخطاب، وعلى سمع من لا تأخذه في الحق خشية أحد، القيِّم على كتاب الله علمًا وحفظاً، رضيع النبوة وربيبها، عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ ومن وراء هؤلاء جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وهم أربى من أربعة عشر ألفاً ومائة ألف، كلهم عدول أطهار، لا يخافون في الحق لومة لائم، إلى سائر الأمة ممن دخل في الإسلام بعد عهد رسول الله ﷺ على يد أصحابه، فتلمذوا لهم وأخذوا عنهم دينهم.

وليس يخفى أن وجود زيد بن ثابت على رأس القائمين بنسخ صحف الصديق ونقلها إلى المصحف الإمام في عهد عثمان ـ وهو الذي كان قد تولى الجمع في عهد الصديق ـ دليل قوي على أن عثمان لم يصنع شيئاً سوى نقل ما أجمعت عليه الأمة في عهد الخليفة الأول، مقتصراً ـ إذا كان خلاف في القراءات والأحرف التي أنزل بها القرآن ـ على لغة قريش، قطعاً لعوامل الاختلاف في وجوه القراءات محتجاً بأنه نزل بلسانهم، ولم ينكر عليه أحد.

* * *

استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان

رأينا من حديث حذيفة كيف أن المسلمين كادوا يفتنون في دينهم بالاختلاف في دستورهم المنزل من عند الله تعالى؛ وأن بعضهم رمى بعضاً بما هو شبيه بالكفر من أجل الأحرف التي كان يقرأ بها كل قبيل على ما نقل متواتراً عن رسول الله ﷺ، وأن ذلك أفزع حذيفة فَخاف على المسلمين أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، فترتفع الثقة بأصل الدين، وطلب من أمير المؤمنين عثمان أن ينهض بهذا العبء الجسيم، ويدرك الأمة قبل أن تهلك، فقدر أمير المؤمنين خطر ما سيقدم عليه، فلم يشأ أن ينفرد فيه برأي اعتماداً على سلطان الخلافة

الذي لا يدفع، ولكنه لجأ إلى سنة الإسلام في الشورى، فجمع المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيان الأمة، وأعلام الأئمة، وعلماء الصحابة، وفي طليعتهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو من لا يشك هؤلاء المنحرفون في قوة يقينه وشدة شكيمته في الدين، فكيف بأصل أصوله، ودستور نظامه وشريعته، كتاب الله الحكيم؟ وقد عرف عنه التاريخ أنه لو احتوشته السيوف من كل جانب ما رضي دون ظلال الحق مقيلاً.

عرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه؛ فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن بالذي يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين.

روى ابن أبي داود في كتاب المصاحف عن سوْيد بن غَفَلة قال: والله لا أحدثكم إلا شيئاً سمعته من علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ سمعته يقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا له خيراً - في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً، فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً؛ قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت، قال: فقيل: أي الناس أفصح؟ وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرؤهم زيد بن ثابت، فقال: ليكتب أحدهما ويمل الآخر، ففعلا، وجمع الناس على مصحف، قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت الذي فعل.

وقد روي أن عثمان علل رأيه بجمع الناس على قراءة بقوله: فإنكم

إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً. وذكر السيوطي في الإتقان أن ابن أَشْته أخرج من طريق أبي قِلابة قال: حدثني رجل من بني عامر يقال له أنس بن مالك قال: اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً، يا أصحاب محمد، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً؛ فاجتمعوا فكتبوا، فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة، فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً؛ قال محمد ابن سيرين: فظننت أنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله.

قال القرطبي في التفسير: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءة المشهورة عن النبي ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقا.

* * *

الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان

ذكرنا فيما سلف أن عمل عثمان في القرآن لم يكن سوى جمع قراءاته وتوحيدها، منعاً للاختلاف بين المسلمين، وأنه اعتمد في ذلك على عمل أبي بكر الصديق الذي تم بإجماع قاطع لا احتمال فيه ولا شذوذ، وكان القيم على ذلك زيد بن ثابت الأنصاري، وهو نفسه الذي كان على رأس القائمين بالجمع العثماني. وعلى هذا المحور دار كلام حذاق الأمة. قال الطبري: إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير؛ وقال العيني في شرح البخاري: ولم يصنع عثمان في القرآن شيئاً، وإنما أخذ الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها، وأمر زيد ابن ثابت في اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فكتب منها مصاحف

وسيرها إلى الأمصار، لأن حذيفة أخبره بالاختلاف في ذلك، فلما توفيت حفصة أخذ مروان بن الحكم الصحف فغسلها، وقال: أخشى أن يخالف بعض القرآن بعضاً، وفي لفظ: أخاف أن يكون فيه شيء يخالف ما نسخ عثمان.

وفي عمل مروان بن الحكم وغسله الصحف بعد وفاة أم المؤمنين حفصة لفتة من لفتات العقل الوثاب، يرشد إليها ذلك التعليل الفاحص الذي يشعر بقيمة هذا العمل الخطير من عمل عثمان رضي الله عنه، وبقاءُ الصحف الأولى عند حفصة إلى عهد معاوية وولاية مروان على المدينة ـ وقد جازت فيما تخطت من عهود الخلافة عهد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ـ رافع لكل شبهة تختلج في صدور مَرْضى القلوب.

ومن ذلك يتضح أن عثمان كان في هذا العمل الجليل الخالد ينظر بنور الله تعالى إلى مستقبل الإسلام البعيد، فهو لم يعتمد على حفظه وإتقانه وحفظ جماعات من المشهود لهم بالتجويد من أعلام الصحابة الذين لا يتعلق عليهم أحد من الناس بهفوة، وقد كانوا على أبلغ أنواع الحرص في حفظ كتاب الله تعالى في صدورهم، لم يعتمد عثمان على شيء من ذلك بل جعل العمدة في عمله صحف الإجماع القاطع، وكان من الموافقات الإلهية المؤيدة لعثمان رضي الله عنه أن الذي كان على رأس القائمين بالعمل في مصحف توحيد القراءات على عهد عثمان هو نفسه الذي نهض بالعمل في الجمع المطلق على يد الصديق والفاروق، ذلك العيلم الفيصل زيد بن ثابت الأنصاري، وهو الفحل لا يقدع أنفه، أقرأ الناس للقرآن، الذي رأى لفهمه أسرار الشريعة وفقهه في الدين، وعلمه بكتاب الله تعالى ـ ألا يجادل عن قراءته وأحرفه التي أخذها عن رسول الله ﷺ حينما قال عثمان له وللرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من عربية القرآن فاكتبوه بلغة قريش، لأنه نزل بلسانهم، وإنما وقف زيد هذا الموقف الكريم تأييداً لسياسة توحيد نص الدستور العام لأمة الإسلام.

قال ابن التين: الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ، وجمعُ عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة، حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد.

وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق، وقد قال عليٌّ كرم الله وجهه: لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان.

وقال القرطبي: فإن قيل: فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف. ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها

إليك؟ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءة، لتفرق الصحابة في البُلدان، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه.

هذا كلام صريح من أئمة الدين وأعلام الإسلام في فهم قيمة العمل العظيم الذي قام به عثمان رضي الله عنه، فإنه حفظ على الأمة وحدتها الدينية بتوحيده نص دستورها كما أنزله الله تعالى على نبيها ﷺ واستقر عليه الأمر في آخر عرضة، وبذلك يظهر جلياً الفرق بين عمل أبي بكر الصديق وعمل عثمان، فأبو بكر قصد إلى جمع القرآن مرتباً في آياته وسوره حسب آخر عرضة عرض فيها القرآن رسول الله ﷺ على أمين الوحي جبريل عليه السلام، بالوجوه واللغات التي تلقاها من شهدوا هذه العرضة من الصحابة، وفي طليعتهم كاتب وحي القرآن زيد بن ثابت، وجعله بين لوحين خشية أن يذهب منه شيء بذهاب حَمَلته وحفاظه على ما يدل عليه حديث البخاري في وقعة اليمامة وهو صريح في أن السبب الحامل على جمع الصديق إنما هو تفشي القتل في قراء القرآن، وأن عمر ابن الخطاب خشي أن يزداد القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن بذهابهم، ولعل هذا وجه من نسب جمع القرآن إلى عمر - فيما حكاه السيوطي في الإتقان - لأن أول جمع مرتب كان باقتراحه وسعيه ومشورته على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

أما عثمان فإنه قصد إلى أخذ الأمة في قراءتها بمصحف واحد، توحيداً لنص الكتاب الذي هو أصل الدين والشريعة، ودفعاً لغائلة الفتنة بينها، وصوناً لعقيدتها عن سوء مغبة الاختلاف في وجوه القراءات مما قد يؤدي إلى شُبَه في التأويل، ويجرّ إلى نحو ما وقع عند اليهود والنصارى من التحريف والتبديل.

* * *

والذي تحرر عند البحث واطمأنت إليه النفس أخذاً من أقوال العلماء: أن صحف الصديق التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع

المسلمين، لم تكن جامعة للأحرف السبعة التي وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرف منها، هو الـذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقر عليه الأمر في آخر حياة رسول الله ﷺ، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن وتمازج الناس وتوحدت لغاتهم؛ قال الإمام الطحاوي: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ـ وسّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفـاظه، فلم يسعهم حينئـذ أن يقرأوا بخلافها. قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد؛ وقال الطبري: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم ومرخصاً لهم فيه، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد ـ أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً وهم معصومون من الضلالة.

وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع ونقل عنهـا المصحف الإمام ـ جامع لقراءات القراء السبعة وغيرها، مما يقرأ به الناس ونقل متواتراً عن رسول الله ﷺ، لأن الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات. قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف.

وأقرب الآراء إلى الفهم ـ عند ظننا ـ في معنى الأحرف إنما هو الرأي القائل بأنها هي أفصح لغات العرب وأشهرها، وهي مبثوثة في القرآن

كله، وإليه ذهب القاسم بن سلام وابن عطية في جماعة من الأجلاء، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال مما ذكره السيوطي في الإتقان في معنى الأحرف.

ومن هنا يظهر لنا أن سبب اختلاف القراء الذي أفزع حذيفة ابن اليمان وكان سبب جمع عثمان الناس على مصحف واحد ـ إنما هو ما كان عند كل قبيل من أهل الشام والعراق من قراءات وأحرف تلقاها قراؤهم قبل العرضة الأخيرة فكانوا يقرأون عليها، فإذا سمع أحدهم صاحبه يقرأ على قراءة وحرف بخلاف حرفه وقراءته نازعه، حتى جمعهم عثمان على صحف الصديق التي حررت بإجماع المسلمين على العرضة الأخيرة، وترك ما سواها.

* * *

موقف ابن مسعود من مصحف عثمان

بقي في هذا البحث شبهة ارتفعت قديماً إلى أدمغة المنحرفين، فأطالوا رشاءها وتزيد فيها آخرُهم على أولهم، وهي في الواقع شبهة لا تقوم على أساس من العلم ولا تعتمد على نظر من العقل، ذلك أن المنحرفين نقلوا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه أنكر أشد الإنكار على عثمان أن يجمع الناس على مصحف واحد، وأن يحرق ما سواه؛ أخرج الترمذي عن ابن شهاب «أن عبد الله بن مسعود كره لزيد ابن ثابت نسخ المصاحف وقال: يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل؟ والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر! يريد زيد بن ثابت» وأخرج ابن أبي داود عن ابن مسعود: «لقد أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان» وروى الترمذي: أن عبد الله بن مسعود خطب في أهل العراق فقال: «يا أهل العراق، اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها، فإن الله عزّ وجل يقول ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ فالقوا الله بالمصاحف» وفي بعض الروايات أن ابن مسعود قال: «لو ملكت كما ملكوا لصنعت

بمصحفهم كما صنعوا بمصحفي».

أمرُ هذه الروايات ـ التي لم يغب عنها المنحرفون ـ مغرق في الغرابة والعجب، كأمر العقول التي تحملها أدمغة أولئك المنحرفين، لأن هذا النكير الذي زعموه ـ كان ـ من ابن مسعود لم يظهر له أثر في الوجود إلا بعد أن لعبت وساوس الفتنة بالأفكار، وعبثت الأهواء بالقلوب، فتبلبلت العقول، وغلب الغوغاء على أهل الرأي، فقادوا إليهم الفتنة الشوهاء بخطام الهوى والإفساد؛ وإلا فليقل لنا أولئك المفتونون أين كان ابن مسعود يوم الجمع الأول في خلافة الصديق؟ وأين كان في خلافة عمر والصحف التي جمعها زيد بن ثابت وعزل هو عنها انتقلت إلى عمر بعد أبي بكر؟ هل سمع الناس هذه الصيحة التي نسبوها إلى هذا الصحابي الجليل طَوال عهد الخليفتين الصديق والفاروق، والزمن مديد وللحق مكان في النفوس؟

انصب هذا النكير المعزو إلى ابن مسعود على عزله عن نسخ المصاحف وتوليتها زيد بن ثابت، واحتج لذلك بأنه كان رجلاً مسلمًا وزيد ابن ثابت غيب في ضمير الوجود، وأنه تلقى من في رسول الله ﷺ سبعين سورة من القرآن وزيد صبي من الصبيان.

وأحب قبل مناقشة هذه الحجة أن أنبه القارىء الفطن على أن زيد ابن ثابت تولى جمع القرآن في خلافة أبي بكر بأمره واقتراح عمر وإلحاحهما، والصحابة كثرة متوافرة العدد، وفيهم المئون من حفاظ القرآن، والخليفة الأول ووزيره القوي الأمين عمر بن الخطاب، وجميع من شهد الجمع من المهاجرين والأنصار كانوا يرون عبد الله بن مسعود يروح ويغدو بين المسلمين، واستقر أمرهم على إسناد هذا العبء الخطير إلى زيد بن ثابت، فلم يرتفع صوت بالإنكار على هذا الإختيار الموفق الرشيد، ورشح الخليفة الأعظم زيداً لهذا المنصب الجليل بشهادته العظمى، وذكر له من الصفات ما يميزه عن غيره في مهمته؛ قال الحافظ بن حجر في شرح البخاري عند قول أبي بكر لزيد: «إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب

الوحي لرسول الله ﷺ» ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك: كونه شاباً، فيكون أنشط لما يطلب منه، وكونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له، وهذه الصفات التي اجتمعت فيه قد توجد في غيره، لكن مفرقة. وكأنما سكت الحافظ عن ذكر صفتي العقل وعدم الاتهام، لأن الخصوصية في تينك أظهر.

قام زيد بن ثابت رضي الله عنه بمهمته خير قيام، بعد أن حاول أشد المحاولة التملص منها، فلم يزد ذلك الخليفة ووزيره إلا إصراراً وإلحاحاً وتصميماً على اختياره دون العدول عنه إلى غيره، وكانا يرعيانه رعاية إرشاد، والأمة من ورائهم، وهي أحرص على دستورها، تفديه بالمهج والأرواح. فهل عرف التاريخ أن أحداً من الناس ـ سواء أكان هو عبد الله بن مسعود أم غيره ـ ارتفع له صوت بالإنكار على اختيار أبي بكر وعمر لزيد جامعاً للقرآن في الصحف الأولى، وفي الأمة من أفذاذ التاريخ علماً وفضلاً وجهراً بالحق العدد الوفير؟ ولو كان الأمر مما يتوجه إليه الإنكار لكان وقت الجمع الأول في خلافة الصديق ووزارة عمر أصلح الأوقات للإنكار، ولكان عبد الله بن مسعود وأقرانه من حفظة القرآن أجدر الناس برفع الصوت بهذا الإنكار في ذلك الوقت الصالح للنظر والقبول، ولكنا لم نعثر في طوايا ما راجعناه للبحث من أصول، ولا فيما قرأنا مما كتبه الباحثون ـ من القدماء والمحدثين ـ على ما يفيد وقوع شيء من الإنكار إطلاقاً، فالبحث مطمئن أشد الأطمئنان إلى أن هذه الصيحة لم تظهر إلا بعد أن تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة، وبعد أن عزل ابن مسعود عن الكوفة وتولاها خالصة الوليد بن عقبة؛ بل إنها لم تظهر إلا بعد استفحال الشر وظهور قرن الشيطان في آخر العهد العثماني، والبحث يشك أشد الشك في صدور هذا من ابن مسعود، لأنه في عقله وعلمه وفضله ومكانه في الإسلام أفضل من أن يصدر منه هذا الذي زعموه عليه؛ وليست المسألة مسألة عزل ابن مسعود عن نسخ المصاحف وتوليتها زيداً، لأن عبد الله ـ كما تقول الرواية ـ كان رجلاً مسلماً وزيداً كان غيباً في ظهر أبيه لم ينفرج عنه الوجود، أو أن عبد الله كان قد شافه النبي ﷺ بسبعين سورة،

وزيداً كان صبياً من الصبيان؛ لأن هذه الخصائص كانت لها يوم الجمع الأول بأمر الصديق واقتراح عمر رضي الله عنهما، والتاريخ يجهل كل الجهل إنكاراً وقع من أحد يومئذ، ولكن المسألة عاصفة من عواصف الفتنة العمياء التي أثارها المجتمع المضطرب على إمامه العادل وخليفته الراشد الرحيم، وعثمان رضي الله عنه فـي ثقته بزيد مستن سنة الشيخين من قبله، والشيخان قد اختارا زيداً على سمع الأمة وبصرها، فلم يسمعا فيه همساً، والأمة التي أنكرت على الصديق أول الأمر إمارة أسامة بن زيد على جيش أعده رسول الله ﷺ وعقد لأسامة لواء قيادته، لحداثة سن أسامة، فردّها حزم الصديق ـ لا يمكن أن تسكت عن الإنكار على اختيار رجل وسد إليه جمع دستورها الذي عليه قوام حياتها لو رأت فيه أدنى شبهة أو رأت غيره أقوم بهذا الأمر منه، وقد سبق بعض الروايات أن عثمان سأل من شهده من المهاجرين والأنصار فقال: أي الناس أقرأ؟ فقيل: زيد ابن ثابت، ثم إن عثمان زاد على الشيخين فضم إلى زيد رجالاً من أفصح الناس وأقرئهم.

هذه الروايات عن ابن مسعود لا بد أن تكون معلولة لا تقوم بها حجة، ولو سلمنا صدور ما تحكيه منه فلا نرى وجهاً لتخصيص هذا النكير بعثمان رضي الله عنه، ويمكن أن يكون قولاً صدر عن فورة غضبية لم يُقم عليها ابن مسعود إلى النهاية، لجلالة قدره وفضله؛ على أنا إذا رجعنا إلى مناقشة الحجة في ذاتها لا نجدها تقوم على وجه من المنطق المستقيم مما يحملنا على الشك فيها، وذلك يعتضد من وجهين:ـ

أولاً: إن أبا بكر حينما اختار زيداً رشحه بأوصاف تتصل بمهمته أشد الاتصال، وهذه الصفات أعلنها أبو بكر على الأمة، فلم ينازع أحد زيداً فيها مجتمعة، وهذا وجه وجيه في تقديم زيد على غيره ممن هو أقدم في الإسلام سابقة وأكثر فضلاً، ولذلك قال ابن حجر: «إنها مقتضية خصوصيته بذلك».

ثانياً: إن الاعتراض في العبارة المنسوبة إلى ابن مسعود منصب على

أن زيداً لم يكن وجد حينما كان ابن مسعود رجلاً مسلمًا، وأنه أخذ من رسول الله ﷺ سبعين سورة مشافهة، وزيد لم يزل صبياً من الصبيان، ولا ندري أي شيء هذا في باب الاحتجاج؟ وما ذنب زيد في ذلك، وأيها يعوقه عن النبوغ والعبقرية، وقد ولد زيد من صلب رجل كافر، كما ولد سادة الصحابة وفضلاؤهم وفيهم ابن مسعود نفسه من أصلاب رجال كافرين، ولكن زيداً كغيره منهم شبّ وأسلم ونبل حتى كان ابن عباس ـ وهو من هو ـ يعظمه جداً ويقبل يده، ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. ونبغ زيد حتى كتب وحي القرآن لرسول الله ﷺ، وحتى حفظ القرآن كله في حياة رسول الله ﷺ، وعبد الله بن مسعود لم يحفظ سوى بضع وسبعين سورة، ثم كمل حفظ القرآن بعد وفاة رسول الله، على ما ذهب إليه فريق عظيم من أهل العلم.

* * *

رأي العلماء في موقف ابن مسعود

والعلماء في موقف ابن مسعود من المصحف الإمام الذي أجمعت الأمة عليه فريقان: فريق ينكر صدور مثل ذلك عنه، ويرى أنه كُذِب عليه في هذه المسألة كما كذب عليه نفسه، وكما كذب على غيره في غيرها من مسائل العلم والدين؛ والذين كذبوا على رسول الله ﷺ لا يبعد عليهم أن يكذبوا على ابن مسعود وغيره من آحاد الأمة، وأن عبد الله بن مسعود لم يكن منه في هذه القضية إلا ما كان من جمهرة المسلمين من التسليم والرضا، والاعتراف بأن عمل عثمان في جمع القرآن وتوحيد قراءاته خير ما وفق له المسلمون الأولون من الحرص على كتاب الله تعالى، والعمل على تحقيق وعده بحفظه وصونه في قوله جل ثناؤه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ قال العلامة الآلوسي في تفسيره «وما نقل عن ابن مسعود أنه قال لما أحرق مصحفه: لو ملكت كما ملكوا لصنعت بمصحفهم كما صنعوا بمصحفي ـ كذب، كسوء معاملة عثمان معه، التي يزعمها الشيعة حين أخذ المصحف منه».

وذهب هذا المذهب في الإنكار بعض الأجلاء فيما نسب إليه رضي الله عنه من إنكار قرآنية المعوذتين والفاتحة؛ قال النووي في شرح المهذب: «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئاً منهما كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح» ونقل السيوطي في الإتقان عن ابن حزم أنه قال: «هذا كذب على ابن مسعود موضوع، وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زرّ عنه وفيها المعوذتان والفاتحة» وقال الإمام فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره: «والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل» وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه، إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها لا جحداً لكونها قرآناً، لأنه كانت السنة عنده ألا يكتب في المصحف إلا ما أمر النبي ﷺ بإثباته فيه، ولم يجده كتب ذلك، ولا سمعه أمر به» وقال ابن قتيبة: «وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان».

وفريق آخر يرى أن ذلك قد كان منه رضي الله عنه، ويعتذر له. قال أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ونقله القرطبي في التفسير: «لم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبدالله بن مسعود في جمع القرآن ـ وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق وأعظم فضائل ـ إلا لأن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وعاه كله، ورسول الله ﷺ حيّ، والذي حفظ منه عبد الله نيف وسبعون سورة، ثم تعلم الباقي بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حي أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعناً على عبدالله ابن مسعود، لأن زيداً كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجباً لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب وما بدا من عبد الله ابن مسعود من نكير ذلك فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به،

ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف، فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله ابن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ».

وسلك ابن حجر في الفتح مسلك التسليم بأن ذلك قد كان من ابن مسعود، واعتذر لعثمان رضي الله عنه فقال: «والعذر لعثمان في ذلك أنه فعله بالمدينة، وعبد الله بالكوفة ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر، وأيضاً فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي، فكانت له أولية ليست لغيره» وقد أخرج الترمذي في حديث ابن مسعود عن ابن شهاب قال: «بلغني أنه كره ذلك من مقالة عبد الله بن مسعود رجال من أفاضل الصحابة».

* * *

موقف عثمان من ابن مسعود

أنهينا الكلام على مشكلة جمع القرآن في مصحف واحد ليكون إماماً للمسلمين في أقطار الأرض، وبسطنا موقف عبد الله بن مسعود من هذا الجمع؛ ولكن المنحرفين لم يكتفوا في قسط عبد الله بن مسعود من هذه الأحداث الجسيمة بهذه الحادثة، ولا بحادثة عزله عن الكوفة حتى لاحقوه فعصبوا به حوادث أخر، وكأن عزل عبد الله عن الكوفة أصاب من أصحابه ومريديه وممن كانوا حوله من حاشية الإمارة، وممن يحيطون بأصحاب السلطان في كل عصر ومن تعلق بهم من مسلمة الفتح وأعراب البوادي ـ فوق ما يصيبه عزل أمير أو وال عن ولايته ممن كانوا ينتفعون بتلك الإمارة وهؤلاء الذين يتخذون الولاة والحكام مغنمًا يفيدون من ورائهم، لا يبالون في سبيل مصلحتهم وتحقيق أطماعهم أعمرت الدنيا أم خربت؟ أأحسنوا إلى أصحابهم من الحكام وذوي المناصب أم أساؤوا؟ وقد

يكون الوالي الذي اتخذه أتباعه ذريعة إلى الكسب من أي طريق كان صالحاً مصلحاً، ولكن حيل هؤلاء النفعيين أدق من أن تمسك بها يد القانون، فإذا اجتثت آمالهم من أعراقها بعزل هذا الوالي، لسبب من الأسباب التي يراها صاحب السلطان الأعلى في الدولة، تطبيقاً لسياسة الإصلاح التي اختطها لنفسه ـ قامت قيامة هؤلاء غضباً لا للحق، ولكن لأنفسهم ومطامعهم وراحوا يدبرون المكايد بما يوحي إليهم الجو الاجتماعي في البيئة التي يعيشون فيها، وقد عرفنا حالة الجو الاجتماعي للأمة الإسلامية في عهد عثمان رضي الله عنه، فإنه كان جواً صالحاً لبذور الفتن، وفي ثناياه كثير من لقاحها، فرمى المنحرفون في أجوازه بما معهم من سهام.

وابن مسعود صحابي جليل، فكيف يعزل بالوليد بن عقبة، وليست له صحبة ولا سابقة؟ وكيف يحرق عثمان مصحفه ويعتمد على مصحف زيد بن ثابت؟ وكيف، وكيف؟ فلينفّس عبد الله عن نفسه قليلاً، بل ليتزيد الناس فيما يقال، ولتسرع الإذاعة السوداء إلى عثمان تنقل إليه أن ابن مسعود ينقده نقداً شديداً قاسياً، وعثمان رجل من البشر، لا بد أن تتأثر نفسه مما يبلغه، فماذا صنع؟ كان من حقه بمقتضى منصبه أن يمد يده ولسانه إلى كل متحدث في منصب الإمامة العظمى بما يراه من طرائق الأدب والزجر، صوناً لمقام الخلافة وسلطان الله فيها، ولو كان هذا المتحدث من الأعلام مثل عبد الله بن مسعود، لأن مسلمًا مهما بلغ مكانه فهو دون مقام الخليفة في هذا المقام، ولسنا نزعم للخلفاء الراشدين العصمة عن الغلط أو الخطأ، بله غيرهم من الملوك والأمراء والولاة؛ ولكن لإصلاح أغلاط ذوي السلطان في الدولة، والإنكار عليهم فيما عسى أن يكونوا أتوه من مخالفات ليس في أيديهم حجة عليها، وتنبيههم على خطرها، والنصح لهم بتداركها ورتق فتقها؛ لكل ذلك طرائق مهدتها الشريعة الإسلامية، ولم تكن إثارة الفتن، ولا احتمال إثارتها بتحريك الغوغاء وفتح أبواب الشغب والفوضى والمجاهرة بالمعايب؛ وإذاعة السوء عن الرعاة وتحقيرهم أمام رعيتهم ـ من تلك الطرائق في كثير أو قليل.

قد يجوز أن عثمان هجر عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وقطع عنه عطاءه، لأنه رأى في ذلك لوناً من ألوان التأديب، سوغه ما صدر من ابن مسعود في نقد أعمال عثمان وولاته والتشنيع عليهم وذكر معايبهم في ملأ الناس. روى الديار بكري في كتابه تاريخ الخميس: أن ابن مسعود لما عزله عثمان عن الكوفة، جمع الناس في مسجد الكوفة وذكر لهم أحداث عثمان، ثم قال: أيها الناس، لتأمُرن بالمعروف، ولتنهَون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم. وبلغه نفي أبي ذر إلى الربذة فقال في خطبة له بمحفِل من أهل الكوفة: هل سمعتم قول الله تعالى: ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ وعرّض بذلك لعثمان.

وليس عبد الله بن مسعود بأعظم قدراً من سعد بن أبي وقاص وأبيّ ابن كعب وأضرابهما ممن قد نالهم عمر ببعض التأديب، وليس عثمان بأقل حقاً في حقوق الخلافة وموجبات سلطانها من عمر، أفلا يكون شأن عثمان مع ابن مسعود كشأن عمر مع أصحابه وليس ما عزي إلى أصحاب عمر فأدبهم عليه مما يوضع في قَرَن مع ما عزي إلى ابن مسعود في حق عثمان وخلافته؟ بلى، لو أنصف التاريخ واعتدلت موازين الحكم عند الناس.

وقد ثبت أن عثمان ندم على ما أتى إلى أخيه ابن مسعود، فمشى إليه حتى جاءه في منزله واعتذر إليه وسأله أن يستغفر الله له، فأبى عبد الله وأعرض عن عثمان ولج في المغاضبة حتى زعم بعض الرواة أنه قال: اللهم إنك عظيم العفو كثير التجاوز، فلا تتجاوز عن عثمان حتى تقيد لي منه؛ فلم يمنع ذلك عثمان من معاودته ليترضاه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، هذا عطاؤك فخذه، فقال ابن مسعود: وما أتيتني به إذ كان ينفعني، وجئتني به عند الموت، لا أقبله؛ فمضى عثمان إلى أم المؤمنين السيدة أم حبيبة، فسألها أن تطلب من ابن مسعود ليرضى عنه، فكلمته أم المؤمنين فلم يفعل ثم أتاه عثمان بعد ذلك فقال له: يا أبا عبد الرحمن ألا تقول كما قال يوسف لإخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ فما أجابه بشيء.

فإما أن يصحح المنحرفون هذا إلى جانب ما زعموه كان من عثمان إلى ابن مسعود؛ وإما أن يردوا القصة كلها، وعندئذ يكون موقف عثمان في غاية الإخلاص والصفاء؛ وماذا كان على عثمان أن يصنع أكثر من هذا؟ ذهب إليه مرة ومرة، وعرض عليه عطاءه، وسأله أن يستغفر له، وذكّره بما كان بين يوسف وإخوته فانتهى إلى ما قصه القرآن الكريم من العفو والغفران، ثم استشفع إليه بأعظم من يمكن أن يكون من الشفعاء، إحدى أمهات المؤمنين، لا نظن أحداً يزعم أن في شرائع الله تعالى، وشرائع المروءة والإخاء ما يقضي على عثمان وهو خليفة المسلمين أن يذهب إلى أبعد مما ذهب، وقد أدى إلى ابن مسعود فوق ما يحسن أن يؤدى في مقام المصالحة والاسترضاء.

ونحن لا نستطيع أن نجاري المنحرفين فيما نقلوه عن ابن مسعود من التأبي والاستمرار على المغاضبة، بل نجزم بأن ابن مسعود أطهر قلباً من أن يأبى على عثمان مصالحته والرضا عنه، وقد روي هذا في المسألة فيجب أن يقبل، لأنه اللائق بأصحاب رسول الله ﷺ وطهارة نفوسهم وسلامة صدورهم؛ قال سلمة بن سعيد: دخلت على ابن مسعود في مرضه الذي توفي فيه، وعنده قوم يذكرون عثمان، فقال لهم: مهلاً، فإنكم إن قتلتموه لا تصيبوا مثله.

* * *

تجديد الحرم

بقي من توافه الأمور التي عدها المنحرفون من العظائم، وأرادوا بها التكثير على عثمان رضي الله عنه، أنه أراد في سنة ست وعشرين أن يجدد الحرم المكي، ويزيد في المسجد الحرام لكثرة المسلمين وازدياد عددهم باتساع الفتوحات والدخول في دين الله، فابتاع من قوم ما يملكون من أرض أو دور بجوار المسجد ليضمها إليه، فرضي قوم، وأبى آخرون، فلم يثنه ذلك، واستعمل حقه في القيام على سلطان الله تعالى، وهدم على من أبى، كما هدم على من رضي، ولكنه لم يظلم أحداً، بل وضع لهم أثمان

ما أخذ منهم من أرض أو دار في بيت مال المسلمين، وكان هذا هو مقتضى المصلحة العامة التي جرى عليها الحاكمون مع المحكومين في الأزمان والعصور، وبها جاءت الشرائع السماوية، وقضت القوانين الوضعية؛ فلم يرضَ الذين أبوا، فصاحوا به وشغبوا عليه، فأمر بهم فحبسوا، وقال لهم: أتدرون ما جرأكم عليَّ؟ ما جرأكم عليَّ إلا حلمي، وقد فعل مثل هذا بكم عمر، فلم تصيحوا به.

ثم كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد فأطلقهم، فإلى أي تعليق تحتاج هذه الحادثة ـ على تفاهتها بين الأحداث ـ وهي تحمل الرد عليها بين سطورها؟

* * *

إتمام عثمان الصلاة في منى وعرفات

وحادثة أخرى أشد إضحاكاً من هؤلاء المنحرفين الذين لم يقصدوا بهذا الحشد من الحوادث إلا تكثيرها على نحو ما يحلو لهم، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الطبري: أول ما تكلم الناس في عثمان ظاهراً أنه صلى بالناس بمنى في ولايته ركعتين، حتى إذا كانت السنة السادسة أتمها، فعاب ذلك غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، وتكلم في ذلك من يريد أن يكثر عليه. فعثمان رضي الله عنه ـ وهو ثالث الخلفاء الراشدين الذين هم أعلم وأجل أصحاب النبي ﷺ ـ ليس له في نظر المنحرفين، أن يجتهد في مسائل الدين التي لم ينصّ على أحكامها، ولا ندري وأيم الحق لمن شرع الله الإجتهاد إذا لم يكن من حق عثمان وأضرابه من أئمة الهدى؟

قال المنحرفون: أتم عثمان الصلاة في منى وعرفات، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يقصرونها، وعثمان نفسه قد قصرها في صدر خلافته، فهو بإتمامه الصلاة في هذين الموطنين قد خالف فعل رسول الله ﷺ، وفعل الشيخين، وفعل نفسه أول خلافته.

هذا هو منطق المنحرفين في فهم الدين والاجتهاد في أحكامه، فهل

سأل المنحرفون أنفسهم، هل كانت جميع أفعال رسول الله ﷺ منصرفة للوجوب؟ لم يقل أحد من علماء الإسلام وفقهائه من لدن الصحابة فمن دونهم ذلك، نعم قصر رسول الله ﷺ الصلاة في منى وعرفات، فهل اقترن فعله بما دل على وجوب قصر الصلاة من نص أو غيره؟ لا يستطيع أحد أن يدعي أن ذلك قد كان؛ وإلا فكيف وسع جمهورَ الفقهاء في سائر أمصار الإسلام ممن يعتد بهم القولُ بعدم وجوب قصر الصلاة للمسافر؟ وكيف وسعهم القول بأن قصر الصلاة في السفر رخصة، وأن الإتمام عزيمة، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه؟ فإذا كان عثمان رضي الله عنه لم يأخذ برخصة قصر الصلاة، فقد أخذ بالعزيمة.

هذا كله إذا أرخينا العنان ونزلنا إلى مستوى المنحرفين ونظرنا إلى المسألة مجردة عما احتف بها من أمور توضح موقف عثمان رضي الله عنه، وتبين أنه إنما صنع ما صنع من إتمام الصلاة في منى وعرفات، شفقة على ضعفاء المسلمين أن يفتنوا في دينهم؛ فقد روي أنه أبدى لفعله سبباً معقولاً حينما سأله عبد الرحمن بن عوف عنه وعما دعاه إليه، فلما أطلعه عثمان على وجهة نظره، أخذ عبد الرحمن بقوله وأتم الصلاة بأصحابه، وكذلك صنع عبد الله بن مسعود وغيره من جمهور الصحابة، فتابعوه، ولم يخالفوه، لأنه إمام راشد تجب متابعته فيما لم يخرج عن حدود الشريعة المطهرة، ولو كان فيما جاء به عثمان أدنى شبهة لمخالفة نص شرعي ما أمكن مطلقاً جمهور الصحابة أن يتابعوه.

روى الطبري: أن عثمان صلى بالناس بمنى أربعاً، فأتى آت إلى عبد الرحمن بن عوف فقال له: هل لك في أخيك، قد صلى بالناس أربعاً؟ فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين، ثم خرج حتى دخل على عثمان؛ فقال: ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله ﷺ ركعتين؟ قال: بلى؛ قال: أفلم تصل مع أبي بكر ركعتين؟ قال: بلى، أفلم تصل مع عمر ركعتين؟ قال: بلى، ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى. قال عثمان: فاسمع مني يا أبا محمد، إني أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي إن الصلاة للمقيم ركعتان

وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلاً فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس، وأخرى قد اتخذت بها زوجة، ولي بالطائف مال، فربما اطلعته وأقمت فيه بعد الصدَر.

فقال عبد الرحمن: ما من هذا شيء لك فيه عذر، أما قولك: اتخذت أهلاً، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت، وتقدم بها إذا شئت، إنما تسكن بسكناك، وأما قولك: ولي بالطائف مال، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال؛ وأنت لست من أهل الطائف، وأما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون: هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم، فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمر؛ فضرب الإسلام بجرانه فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين، فقال عثمان: هذا رأي رأيته.

فخرج عبد الرحمن فلقي ابن مسعود، فقال: أبا محمد، غيرُ ما يُعْلم؟ قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم، فقال ابن مسعود: الخلاف شر، قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي أربعاً، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول، يعني نصلي معه أربعاً.

والذي أبداه عثمان في تحاوره مع عبد الرحمن بن عوف، واحتج به لرأيه معقولُ المعنى، ولو تأمل فيه نظّار في أسرار الدين وحِكم الشريعة لرأى أن إتمام الصلاة الذي انتهى إليه رأي عثمان أرجح حينئذ من قصرها؛ وقد حدث من الأمور ما لم يكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فخاف عثمان أن يُفتن الناس في صلاتهم، ولا سيما جفاة الأعراب في مضاربهم، ومن بعدت بلادهم في أطراف الأرض، وقد لا يتصل بهم من أهل العلم من يعلمهم ويرشدهم فأراد عثمان بما صنع حسم هذا الشر المخوف على كثير من ضعفاء المسلمين.

وقد بالغ عثمان رضي الله عنه في إبعاد الشبهة عن نفسه، فقال:

إنه اتخذ بمكة أهلاً، وله بالطائف مال ربما نظر إليه وأقام فيه بعد انتهاء الموسم، فيكون حينئذ مقيمًا، ففرضه الإتمام، وذلك منه رضي الله عنه من دقيق النظر في الدين، وفهم أسراره وحِكمه.

وقد وقع من عمر بن الخطاب في هذا الباب أبلغ مما وقع من عثمان، فسئل عنه واحتج له وأقر له به الناس راضين أو ساخطين، والمرجع في العهدين ما عرفته من بطش عمر وحلم عثمان. روى الطبري عن عمران بن سوادة قال: صليت الصبح مع عمر فقرأ سبحان وسورة معها، ثم انصرف وقمت معه فقال: أحاجة؟ قلت: حاجة، قال: فالحق، فلحقت؛ فلما دخل أذن لي، فإذا هو على سرير ليس فوقه شيء، فقلت: نصيحة، فقال: مرحباً بالناصح غدواً وعشياً، قلت: عابت أمتك منك أربعاً، فوضع رأس درّته في ذقنه، ووضع أسفلها على فخذه، ثم قال: هات، قلت: ذكروا أنك حرمت العمرة في أشهر الحج، ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر رضي الله عنه، وهي حلال؛ قال هي حلال، لو أنهم اعتمروا في أشهر الحج رأوها مجزية من حجهم، فكانت قائبة قُوب[1] عامها، فقرع[2] حجهم، وهو بهاء من بهاء الله، وقد أصبت؛ قلت: وذكروا أنك حرمت متعة النساء وقد كانت رخصة من الله، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث؛ قال: إن رسول الله ﷺ أحلها في زمان ضرورة، ثم رجع الناس إلى السعة، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عمل بها، ولا عاد إليها، فالآن من شاء نكح بقبضة وفارق عن ثلاث بطلاق، وقد أصبتَ؛ قلت: وأعتقت الأمة إن وضعت ذا بطنها بغير عتاقة سيدها؟ قال: ألحقت حرمة بحرمة وما أردت إلا الخير، وأستغفر الله؛ قلت: وتشكو منك نهر الرعية، وعنف السياق؛ فشرع الدرّة ثم مسحها حتى أتى على آخرها، ثم قال: أنا زميل محمد، فوالله إني لأُرتع فأُشبع،

(١) القائبة: البيضة، والقوب: الفرخ، والمعنى أن الفرخ إذا فارق بيضته لم يعد إليها، وكذا إذا اعتمروا في أشهر الحج لم يعودوا إلى مكة، فهو مثل ضربه لخلاء مكة من المعتمرين سائر السنة.

(٢) قال في اللسان: وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه: قرع حجكم أي خلت أيام الحج.

وأسقى فأروى، وأنهز اللفوت[1]، وأزجر العروض[2]، وأذب قدري، وأسوق خطوي، وأضم العنود، وألحق القطوف[3] وأكثر الزجر، وأقل الضرب، وأشهر العصا، وأدفع باليد، لولا ذلك لأعذرت.

فليتأمل أهل الإنصاف ليعلموا أن هذا الذي وقع من عمر رضي الله عنه أخطر في موضعه وأبلغ في الإجتهاد من الذي وقع من عثمان رضي الله عنه، ولكن رعية عمر كان فيها عثمان وأمثاله في الفضل والديانة، ورعية عثمان كان فيها عبد الله بن سبأ وأضرابه في الخبث والنفاق، فسخطت من عثمان ما لم ترفع رأساً بأعظم منه إذ صدر من عمر، وكلاهما إمام مجتهد، وخليفة راشد.

(١) النهز: الدفع، واللفوت: كثير اللفت أي التلفت.
(٢) العروض: من معانيه الناقة التي لم ترض ، والمعنى فيه هنا على التشبيه.
(٣) القطوف: البطيء.

الفصل الحادي عشر

منهج عثمان السياسي في خلافته ـ معسكرات الإسلام في عهد عثمان ـ معسكر الكوفة وأعماله ـ معسكر البصرة وأعماله ـ معسكر الشام وأعماله ـ عثمان أول من أجاز الغزو البحري ـ الأسطول الإسلامي في الفتح والجهاد ـ معسكر مصر وأعماله.

منهج عثمان السياسي في خلافته

هذا فصل لم نقصد به إلى تحقيق حادثة من الحوادث، أو تمحيص رواية من الروايات؛ وإنما قصدنا فيه إلى سرد جملة من الفتوحات والغزوات التي تمت في عهد عثمان دون استقصاء، لتكون حلقة مكملة لعقد السيرة العثمانية، وقد رأينا أكثر المصادر التاريخية يتفق على المعنى الذي إليه قصدنا وإن اختلفت في تشكيل الحوادث وبسطها فذاك خلاف لا يمس جوهر الموضوع.

استقبل عثمان رضي الله عنه بخلافته سنة أربع وعشرين، فأقرّ عمال عمر، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاملاً، أخذاً بوصية عمر، ثم كتب إليهم جميعاً كتاباً واحداً قال فيه: أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء؛ ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

ثم خص عمال الخراج ووزراء المال فكتب إليهم: أما بعد، فإن الله

خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا بالحق، خذوا الحق، واعطوا الحق به، والأمانةَ، الأمانةَ، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء والوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم.

وكتب إلى القواد وأمراء الأجناد في الثغور: أما بعد؛ فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون؟ فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه.

وكتب إلى عامة الأمة في أقطار الإسلام يأمرهم بالاقتداء والاتباع، ويحذرهم التكلف والابتداع؛ لئلا يزيغوا عن صراط الله ومحجته فقال: أما بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا.

وإذا تأملنا في هذه الكتب التي هي بمنزلة برنامج للسياسة التي اعتمد عثمان السير عليها، وأخذ الأمة بها تجلى لنا منها أمور:

الأمر الأول: أن عثمان رضي الله عنه اجتهد في كتابه إلى عامة الأمراء أن يؤكد لهم أن واجب الأئمة والخلفاء أن يكونوا رعاة، يسوسون الناس بالعدل والرحمة، وأن ذلك هو نهج صدر هذه الأمة، وأنه يخشى أن تتغير الحال، فبين للأمراء السياسة التي يسوسون بها الأمة، وهي أخذ بالعدل، وإعطاء بالحق، ووفاء بالعهد.

الأمر الثاني: أنه خص وزراء المال الذين يجبونه من أفراد الأمة لينفق في مصالحها العامة، فبين لهم أن الله لا يقبل إلا الحق، والحق قائم على الأمانة والوفاء، ثم ميز صنفين من الرعية، هما ضعيفاها: اليتيم والمعاهد، فحض على التجافي عن ظلمها، لأن الله هو المتولي حمايتها.

الأمر الثالث: أن عثمان رضي الله عنه تقدم إلى قادة الجيوش وأمراء الحرب بإفهامهم العبء الملقى على عاتقهم بما لهم من مكانة في النفوس، وبما عليهم من حماية ثغور الإسلام والذود عنها، وأنه يتخذ سياسة عمر بن الخطاب معهم سياسة له، لأنه كان على علم بها يوم وضعها عمر، وأنه تقدم إليهم محذراً مغبة التغيير والتبديل لئلا يغير الله ما بهم، وأنه ذكرهم بأنه على علم بواجبه يؤديه ويقوم عليه ليتلاقى عمل الرعية وعمل الراعي في الشعور بالواجب والقيام به، ويشعر كل فرد أنه يعمل لأمته كما يعمل لنفسه.

الأمر الرابع: أنه رغب عامة الأمة في الاتباع، وترك التكلف والابتداع، وأنه حذرهم تغير الحال إذا اجتمعت لهم ثلاث خلال: تكاملُ النعم، الذي يُبطر النفوس ويدفعها إلى الترف، ويصدها عن الاجتهاد والعمل، ويصرفها إلى الفراغ والكسل، حتى تفتر حيويتها وتخور عزائمها؛ وبلوغُ أولادهم من السبايا، وقد لمست الأمة في تاريخها أثر هؤلاء في المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية والإجتماعية والدينية؛ وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وإنما يريد عثمان بذلك ما في طبائع الأعراب من الجفوة وغلظ الأكباد، فلا تبلغ هداية القرآن مكان الخير من أفئدتهم؛ وكذلك يريد ما في الأعاجم من أخلاق موروثة، وعقائد متأصلة، وعادات قديمة تباعد بينهم وبين سنن القرآن في الهداية، وقد ظهر أثر الأعراب في فرقة الخوارج الذين كانت كثرتهم من أولئك الجفاة، فهم كانوا أقرأ الناس للقرآن، وأبعدهم عن هدايته، ثم ظهر فيمن عداهم أثر الأعاجم فيما ابتدعوه من مذاهب وتكلفوه من آراء كانت شراً على المسلمين في عقائدهم ومنهم أكثر الفرق الضالة التي لعبت في تاريخ الإسلام أخطر دور، وقلما وجد الباحث رأس فرقة إلا أعجمياً.

معسكرات الإسلام في عهد عثمان

كانت معسكرات الإسلام ومسالحه في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى؛ فمعسكر العراق الكوفة والبصرة وكانا يقفان في وجه بلاد

الفرس لحمايتها من الانتقاض، وكانت قد فتح أكثرها في عهد عمر ابن الخطاب، ويعملان على فتح ما بقي منها على الشرك ولم يدخل في حظيرة الإسلام. وتوحَّد معسكر الشام في دمشق بعد أن خلص الشام كله لمعاوية ابن أبي سفيان، وكانت عمل معسكر الشام غزو الروم ودعوتهم إلى الإسلام. أما معكسر مصر فكان مركزه الفسطاط، وكانت وجهته حماية البلاد من غارات الرومان وغزو إفريقية لنشر الدعوة بين أممها؛ ومن هذه العواصم كانت تعبأ الحملات للجهاد وإعلاء كلمة الله تعالى.

* * *

معسكر الكوفة وأعماله

كانت مغازي أهل الكوفة الرّي وأذربيجان وكان يرابط بهما عشرة آلاف مقاتل: ستة آلاف بأذربيجان، وأربعة آلاف بالرّي، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل، يغزو كل عام منهم عشرة آلاف، فيصيب الرجل غزوة كل أربعة أعوام؛ ولما أخلص عثمان رضي الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتقض أهل أذربيجان، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر، وثاروا على واليهم عتبة بن فرقد، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم، فجهز لهم قائده سلمان بن ربيعة الباهلي، وبعثه مقدمة أمامه في طائفة من الجند، ثم سار الوليد بعده في جماعة الناس، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة، فأجابهم الوليد وأخذ طاعتهم، وبث فيمن حولهم السرايا وشن عليهم الغارات؛ فبعث عبد الله بن شُبيل الأحمسي في أربعة آلاف إلى أهل موقان والببر والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم وسبى، ولكنهم تحرزوا منه فلم يفل حدهم، ثم جهز سلمان الباهلي في اثني عشر ألفاً إلى إرمينية فأخضعها وعاد منها مليء اليدين بالغنائم، وانصرف الوليد بعد ذلك عائداً إلى الكوفة، فلم يكد يصل إليها حتى جاءه كتاب من عثمان يقول فيه: أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم

إخوانهم من أهل الكوفة؛ فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف ـ إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي، والسلام.

فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسناً، رد عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين؛ وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين عشرة آلاف وثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي. فأسرع الناس فانتدبوا، فلم تمض ثلاثة أيام حتى خرج ثمانية آلاف رجل من مقاتلة أهل الكوفة ودخلوا مع إخوانهم أهل الشام أرض الروم، وكان على أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري، فالتقى المسلمون بالروم واقتتلوا قتالاً شديداً انتصر فيه المسلمون وانهزم الروم وفتح كثير من حصونهم وفي جهاد الوليد وغزوه يقول بعض الرواة: رأيت الشعبي جلس إلى محمد بن عمرو ابن الوليد بن عقبة، وهو خليفة محمد بن عبد الملك، فذكر محمد غزو مسلمة، فقال الشعبي: كيف لو أدركتم الوليد، غزوه وإمارته، إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا، ما قصر ولا انتقض عليه أحد حتى عزل من عمله.

وقيل إن مدد أهل الكوفة لأهل الشام كان في عهد ولاية سعيد ابن العاص على الكوفة. وفي هذه الغزوة اختلف أهل الكوفة مع أهل الشام على الإمارة العامة للجيشين، فقال كل فريق قائدنا هو الأمير، فقال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال الكوفيون إذاً والله نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم، وفي ذلك يقول أوس ابن مِغراء:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا   وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته   ليالي نرمى كل ثغر ونُنْكل

ولما عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولّى مكانه سعيد ابن العاص، شمرّ سعيد للجهاد، وخرج غازياً بنفسه على رأس جيش عظيم قاصداً خراسان، وكان معه في جيشه حذيفة بن اليمان، والحسن والحسين السبطان، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو ابن العاص، وعبدالله بن الزبير في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان عبدالله بن عامر أمير البصرة، قد انبعث منها يريد ما أراد سعيد من خراسان، فسبق سعيداً إليها، ونزل سعيد «قُومس» وهي على صلح حذيفة في عهد عمر بن الخطاب ثم أتى جرجان فصالحها ومضى منها إلى «طميسة» من بلاد طبرستان في تخوم جرجان، فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى بالمسلمين صلاة الخوف، وقال لحذيفة: كيف صلى رسول الله ﷺ؟ فأخبره حذيفة، فصلاها وهم يقتتلون، ويومئذ ضرب سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصروهم حتى سألوا سعيداً الأمان على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً، ثم عاد سعيد إلى الكوفة فمدحه كعب بن جعيل بقوله:

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه   وإذ هبطوا من دَسْتبى ثم أبهر[1]
تعلم سعيد الخير أن مطيتي   إذا هبطت أشفقت من أن تُعقرا
كأنك يوم الشِّعب ليث خفيَّة   تحرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذي ما ساس قبلك واحد   ثمانين ألفاً دارعين وحسّرا

* * *

معسكر البصرة وأعماله

أما حظ البصرة في جهاد وجهها من أهل فارس ومن صاقبهم فلم يكن أقل من حظ الكوفة، وقد كانت البصرة تحت إمرة أبي موسى

---

(١) جيلان، ودستبى وأبهر: أسماء بلاد في إقليم فارس.

الأشعري حيناً من خلافة عمر بن الخطاب، وحيناً من خلافة عثمان، فلما اختلف عليه أهلها، وهو خارج بهم لقتال أهل أيْذَجَ والأكراد لانتقاضهم، عزله عنها عثمان وولى مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ في فتوة الشباب، وقوة الفتوة، لم تزد سنه على خمس وعشرين سنة، وفيه قال أبو موسى لأهل الكوفة: يأتيكم غلام خرّاج ولاج، كريم الجدات والخالات والعمات، يجمع له الجندان. وقد جمع له عثمان جند أبي موسى الأشعري، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين، وكانت فارس قد جاشت وانتقضت بأميرها عبيد الله ابن معمر، فاجتمعوا له باصطخر، والتقوا معه على بابها، فهزم ابن معمر وقتل، وبلغ خبره عبد الله بن عامر، فاستنفر الناس فنفروا معه، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص الثقفي؛ فالتقى الجمعان بأصطخر، فقتل ابن عامر منهم مقتلة عظيمة، وفتح اصطخر عنوة، ثم فارقهم إلى من حولهم، فعادوا إلى الانتقاض والثورة، فعاد إليهم، وأوقع بهم وقعة تكافىء غدرهم ووطئهم وطأة لم يزالوا منها في ذلّ، وكتب بذلك إلى عثمان.

وكانت خراسان قد انتقضت بعد موت عمر، فلما فرغ ابن عامر من اصطخر وما جاورها سار إليها حتى وقف على بابيها «الطُبسين» فتلقاه أهلها بالصلح، ومن خراسان توجه إلى «قهستان» فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم، فطلبوا منه الصلح فأجابهم، ومضى إلى نَيسابور، فسارعت إلى صلحه، ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، ومرو الروذ، فنصره الله وهزم المشركين، ومنها سار إلى الطالقان وبلخ فصالحه أهلها، وتوقف على باب خوارزم لامتناعها.

ثم بلغ ابن عامر أن جموعاً من الفرس عسكروا بالجوزجان يريدون قتال المسلمين، ويحرضون من دخل في الصلح من أهل البلاد على نقضه، فوجه إليهم الأقرع بن حابس التميمي في جند من قومه بني تميم، وأوصاهم بقوله: يا بني تميم تحابوا، وتباذلوا تصلح أموركم، وابلؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم، يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم. فسار الأقرع بجنده حتى لقي المشركين فقاتلهم وظفر بهم.

وفي خلافة عثمان وإمارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وحيداً شريداً؛ وقد اختلفت الروايات في مقتله، فابن إسحاق يقول: هرب يزدجرد من كرمان في جماعة يسيرة إلى مَرْو فسأل مرزبانها مالاً فمنعه، فخافوا على أنفسهم فأرسلوا إلى الترك يستنصرونهم عليه فأتوه فبيتوه فقتلوا أصحابه وهرب يزدجرد حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحاء على شط المَرْغاب فأوى إليه ليلاً فلما نام قتله.

وفي رواية هشام بن محمد الكلبي: أن هرب يزد جرد كان بعد وقعة نهاوند، وهي آخر وقعاتهم حتى سقط إلى أرض أصبهان، وبها رجل يقال له «مطيار» من دهاقينها، وهو المنتدب لقتال العرب حين نكلت الأعاجم عنها، فدعاهم إلى نفسه، فقال: إن وليت أموركم وسرت بكم إليهم فما تجعلون لي؟ فقالوا: نقرّ لك بفضلك، فسار بهم، فأصاب من العرب شيئاً يسيراً، فحظي به عندهم، ونال به أفضل الدرجات فيهم، فلما نزل يزد جرد أصبهان أتاه مطيار ذات يوم زائراً فحجبه بوابه، وقال له: قف حتى أستأذن لك عليه؛ فوثب مطيار على البواب فشجه حمية وأنفة لحجبه إياه، ودخل البواب على يزدجرد مدمى، فلما نظر إليه أفظعه ذلك، وركب من ساعته مرتحلاً عن أصبهان حتى نزل بقوم من أهل مرو، فأرادوا قتله طمعاً في سلبه فاسترحمهم وقال لهم: سرحوني إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلي من الملوك! فلم يرضوا بقوله وقتلوه. وبقتل يزدجرد صفا الملك بعده للعرب ودخلت عامة بلاد فارس في حظيرة الإسلام واستظلت بلوائه الخفاق.

* * *

معسكر الشام وأعماله

كان الشام في خلافة عمر بن الخطاب ولايات، على كل ولاية أمير، فكان معاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق، وكان أخوه يزيد بن أبي سفيان على الأردن؛ فلما مات يزيد ضم عمر عمله إلى أخيه معاوية ونعاه إلى أبي سفيان! فقال له أبو سفيان: من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟

فقال: معاوية، فقال: وصلتك رحم، فاجتمعت لمعاوية دمشق والأردن، ومات عمر بن الخطاب ومعاوية عليهما، وكان على حمص عمير بن سعد الأنصاري، وعلى فلسطين علقمة بن مجزّز. فلما استخلف عثمان رضي الله عنه طُعن عمير بن سعد أمير حمص فأضنى، فاستعفى عثمانَ واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له وضم عمالته إلى معاوية، ثم مات علقمة ابن مجزز أمير فلسطين فضم عمله أيضاً إلى معاوية، فاجتمع الشام كله لمعاوية لسنتين من خلافة عثمان.

ولما تم أمر الشام كله لمعاوية تجهز لغزو الروم، فسار في جموع المسلمين حتى بلغ عمورية، ووجد الحصون التي بين طرسوس وأنطاكية خالية، فجعل عندها جنداً من أهل الشام والجزيرة، وأغزى يزيد بن الحر العبسي الصائفة، ثم أمره عثمان أن يبعث حبيب بن مسلمة إلى إرمينية، فحاصر في طريقه «قاليقلا» حتى طلب أهلها الصلح على الجلاء لمن أراد، والجزية لمن أقام، ثم بلغ حبيباً أن الموريان بطْريق أرميناقس تجهز لحربه في ثمانين ألفاً، فأرسل إلى معاوية يستمده، فكتب معاوية بذلك إلى عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بالكوفة فأمده الوليد بحملة سلمان الباهلي التي سبق ذكرها؛ وكان حبيب بن مسلمة صاحب كيد فأجمع على أن يبيت الموريان، فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية، يذكر ذلك، فقالت له: أين موعدك غداً؟ فقال: سرادق الموريان أو الجنة، ثم بيتهم، فقتل من أشرف له، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته، ثم أوغل حبيب من جانب وسلمان من جانب حتى افتتحوا بلاداً وحصوناً كثيرة.

* * *

عثمان أول من أجاز الغزو البحري

كان معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام يلح على عمر بن الخطاب في غزو البحر، ويصف له قرب الروم من حمص ويقول: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ

بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرّق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق.

فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبداً، وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء منِّي، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك. ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى من الروم ما رأى، فطمع في بلادهم وفي فتحها، فلما تولى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث وألح به على عثمان، فلم يزل يرغبه في الغزو البحري حتى أذن له فيه، وقال له: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، بل خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه.

* * *

الأسطول الإسلامي في الفتح والجهاد

استجاب معاوية لأمر الخليفة، فدعا الناس إلى الغزو، فلم يكره عليه أحداً، ولم يختر له أحداً، وقد كان جند الشام أطوع جند لأميرهم، وأسرعهم لتحقيق رغائبه، فانتدبوا لما ندبهم إليه؛ وعقد لواء البحر لعبد الله بن قيس الحارثي، فكان أول قائد بحري في الإسلام، وكما عقد الله تعالى النصر بناصية خالد بن الوليد في البر جعل الظفر حليف ابن قيس في البحر، فقد غزا الأسطول الإسلامي تحت قيادته خمسين غزاة بين صائفة وشاتية، فلم يهزم في واحدة منها، ولم يغرق من جنده أحد، وكان أحدب قائد على جنده، وكانوا عنده أعز جند على قائدهم، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فيهم، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعة فانتهى إلى المرقى من أرض الروم،

وعليه سؤّال يعترّون بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤّال إلى قريتها، فقالت لرجال قومها: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى، قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت لهم: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد، فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وحده، ونجا الملاح حتى أتى أصحابه، فنهضوا لقتال الروم وعليهم سفيان بن عوف الأزدي وأصيب في المسلمين يومئذ؛ وقيل لتلك المرأة بعدُ: بأي شيء عرفته؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار.

وفي سنة ثمان وعشرين هجرية غزا معاوية قبرس، وكان معه من كبار الصحابة أبو ذرّ، وأبو الدرداء، وعبادة بن الصامت، وكانت مع عبادة زوجه أم حرام بنت ملحان، وقد تحققت بذلك معجزة لرسول الله ﷺ في إخباره لأم حرام بغزوها في البحر مع المسلمين. روى الشيخان عن أنس ابن مالك: إن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ؛ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج[1] هذا البحر، ملوكاً على الأسرة، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، كما قال في المرة الأولى، قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنتِ من الأولين.

وقد أمد ابن أبي سرح أمير مصر معاوية بن أبي سفيان بنفسه في هذه الغزوة، على رأس جيش من جند مصر؛ فاشترك الأسطول المصري

---

(١) من معاني الثبج وسط الشيء ومعظمه

مع الأسطول الشامي في فخر هذه الغزوة واجتمعا عليها، وصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف كل سنة يؤدونها إلى المسلمين ويؤدون مثلها للروم، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على ألا يغزوهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يُعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم، وألا يتزوجوا في عدو المسلمين من الروم إلا بإذنهم، وأن يكون تنصيب بطريرقهم عليهم منهم من حق إمام المسلمين.

ولما أخذ المسلمون في الإنصراف عنهم بما غنموا وسبوا رؤي أبو الدرداء رضي الله عنه يبكي! فقال له جبير بن نفير: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل فيه الكفر وأهله؟ قال جبير: فضرب بيده على منكبي وقال: ثكلتك أمك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينا هي أمة ظاهرة، قاهرة للناس، لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى، فسلط عليهم السباء، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة!

* * *

وفي سنة إحدى وثلاثين أراد قسطنطين بن هرقل أن يثأر لقومه من المسلمين بعدما أوقعوا بهم في إفريقية وقتلوا منهم مقتلة عظيمة؛ فخرج في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام، ومعهم أسطول بحري ضخم، يتألف من خمسمائة مركب مجهز أتم تجهيز، وخرج إليهم المسلمون، وعلى الناس معاوية بن أبي سفيان، ومعهم أسطولهم بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والتقى الجمعان في البحر، وأمن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك بين صواريها، واقتتل الفريقان قتالاً لم ير مثله قط، روى الطبري عن مالك بن أوس ابن الحدثان قال: كنت معهم فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا وسكنت الريح عنا، فقلنا: الأمن بيننا وبينكم؟ قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم، ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم، وإن شئتم

فالبحر؛ قالوا الماء، فدنونا منهم، فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشد القتال، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن، يتواجأون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل، تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه عمن حضر هذه الموقعة أنه قال: رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج، وإن عليه لمثل الظَّرِب[1] العظيم من جثث الرجال، وإن الدم الغالب على الماء، ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروه في موطن قط. ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وانهزم القسطنطين مدبراً، فما انكشف إلا لما أصابه من القتل والجراح، وفي هذه الغزوة التي عرفت بغزوة «ذات الصواري» أظهر محمد بن أبي حذيفة النكير على عثمان وعماله، فقد روي أنه كان أول ما سمع من محمد بن أبي حذيفة حين ركب الناس البحر لما صلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح بالناس العصر كبر محمد تكبيراً، رفع به صوته حتى فرغ الإمام عبد الله بن سعد، فلما انصرف سأل ما هذا؟ فقيل له: هذا محمد بن أبي حذيفة يكبر، فدعاه عبد الله بن سعد، فقال له: ما هذه البدعة؟ وما هذا الحدث؟ فقال له: ما هذه بدعة ولا حدث، وما بالتكبير بأس، قال: لا تعودن، فأسكت ابن أبي حذيفة، فلما صلى ابن سعد بالناس المغرب كبر ابن أبي حذيفة تكبيراً أرفع من الأول، فأرسل إليه: إنك غلام أحمق! أما والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوك، فقال ابن أبي حذيفة: والله ما لك إلى ذلك سبيل، ولو هممت به ما قدرت عليه، فقال له عبد الله: فكيف خير لك، والله لا تركب معنا، قال: فأركب مع المسلمين، قال: اركب حيث شئت؛ فركب ابن أبي حذيفة في مركب وحده ما معه إلا القبط، حتى بلغوا ذات الصواري فلقوا جموع الروم وعليهم القسطنطين

(١) الظرب : الجبل المنبسط

ابن هرقل، وبات الروم يضربون بالنواقيس، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله حتى أصبحوا؛ فصف ابن أبي سرح المسلمين على نواحي السفن وأمرهم بقراءة القرآن وحضهم على الصبر، ووثب الروم على صفوف المسلمين في سفنهم حتى نقضوها وكانوا يقاتلون على غير صفوف وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة لم ينجح منهم إلا الشريد.

وجعل ابن أبي حذيفة يقول للرجل من المسلمين يلقاه: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً، فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول ابن أبي حذيفة: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا حتى أفسد الناس، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به. وقد سبقت الإشارة إلى بعض البواعث على خروج محمد بن أبي حذيفة على عثمان، وما أحدث من أعمال كانت ذات أثر في إشعال نار الثورة!

* * *

معسكر مصر وأعماله

كان عمرو بن العاص والياً على مصر من قبل عمر بن الخطاب، فلما ولي عثمان بن عفان أقر عمراً على إمارة مصر سنتين من خلافته لاستقامة أمور الناس عليه، وكان عثمان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة أو استعفاء من غير شكاة، وفي أواخر ولاية عمرو انتقضت الإسكندرية عليه بتحريض من رومان القسطنطينية الذين كاتبوهم ودعوهم إلى نقض الصلح بينهم وبين المسلمين، فنقضوه، واستعدوا لقتالهم، ومن ورائهم القسطنطينيون، فسار إليهم عمرو في جموع المسلمين، والتقى الجمعان بين مصر والإسكندرية، فاقتتلوا وانهزمت جيوش الروم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى ردوهم على أعقابهم خاسرين، وعادت الإسكندرية إلى حضن الإسلام وسلطان المسلمين.

ثم وجه عمرو بن العاص وجهه شطر إفريقية للغزو والجهاد، فجهز إليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان من جنده بمصر، فسار عبد الله حتى بلغ أطراف إفريقية، ففتح وغنم، وعاد إلى مصر ونفسه تحدثه بفتح

إفريقية فتحاً يثبت بها الإسلام، ورأى أن خرجته هذه إنما أفادته استطلاع أحوالها، وتعرف مداخلها، فاستأذن أمير المؤمنين في غزو إفريقية، ورغبه في فتحها، فأذن له وشجعه، وقال له: إن فتح الله عزّ وجل عليك غداً إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً، ثم جهز في طريقه عبدالله بن نافع بن عبدالقيس؛ وعبدالله بن نافع بن الحصين الفهريين على جيشين، وأمرهما بالإجتماع عليه، فخرجوا جميعاً حتى أوغلوا في سواحل إفريقية، ولقوا جموعها فاقتتلوا، واستبسل المسلمون حتى فتح الله عليهم سهولها وجبالها، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، وحسنت طاعتهم، وقسم ابن أبي سرح ما أفاء الله على المسلمين بين الجند، وأخذ لنفسه خمس الخمس نفلاً تحقيقاً لوعد أمير المؤمنين، وبعث بأربعة أخماسه مع ابن وثيمة النصري إلى دار الخلافة، وضرب فسطاطاً على موضع القيروان، ولكن الجند لم يرضهم أن يأخذ أميرهم لنفسه خمس الخمس نفلاً، فوفَّدوا وفداً إلى عثمان؛ فشكوا إليه ابن أبي سرح فيما أخذ لنفسه، فقال لهم عثمان: أنا نفلته، وقد أمرت له بذلك، وذاك إليكم الآن، فإن رضيتم فقد جاز، وإن سخطتم فهو ردّ؛ قالوا: فإنا نسخطه فهو ردّ، وكتب عثمان إلى ابن أبي سرح بردِّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزله عنا، فإنا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع؛ فكتب إليه: أن استخلف على إفريقية رجلاً ممن ترضى ويرضون، وأقسم الخمس الذي كنت نفلتك في سبيل الله، فانهم قد سخطوا النفل.

* * *

استجاب ابن أبي سرح لأمر أمير المؤمنين ففعل ما أشار به عليه، وعاد إلى مصر، فولاه عثمان خراجها، وأبقى لعمرو بن العاص إمارة الحرب، فالتوت بهما الأمور واختلفا، فشكا كل واحد منهما صاحبه، فقال ابن أبي سرح: إن عمراً كسر عليَّ الخراج، وقال عمرو: إن عبدالله ابن سعد كسر عليَّ حيلة الحرب، فخشي عثمان مغبة الاختلاف وخاف الفتنة، ورأى أن الإمارة لا تصلح على الشركة فصرف عمراً عن مصر، وأخلصها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأغضب ذلك عمرو بن العاص، واجتهد

ابن أبي سرح في تكثير ما يبعث به إلى دار الخلافة من الأموال؛ فقال عثمان لعمـرو بن العاص: هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك؟ فقال عمرو: إن فصالها هلكت.

كان عبد الله بن سعد من أعلم الناس بإفريقية وأرغبهم في جهادها وأطمعهم في فتحها كلها، فلما خلصت له إمارة مصر وقيادة جندها استشار عثمان في غزو إفريقية غزواً عاماً وطلب منه الاستكثار من الجند، فجهز له عثمان الجيوش من عاصمة الخلافة، وفيهم كثير من المهاجرين والأنصار، وجعلهم مدداً لجند مصر؛ فسار ابن أبي سرح بهذه الجيوش الجرارة إلى إفريقية، وكان عليها ملك من قبل الروم يقال له «جرجير» فلما بلغه نبأ الجيـوش الإسلامية تجهز لهم والتقى بهم، فراسله أمير الجيوش عبد الله ابن سعد بن أبي سرح يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فأبى واقتتل الفريقان، وكانت المعارك تدور بينهم كل يوم إلى الظهر، ثم يتحاجزون إلى صبح اليوم الثاني، وطال الأمر على المسلمين، وأبطأ الخبر على أمير المؤمنـين، فأمدهم بجيش من قريش والأنصار بقيادة عبد الله بن الزبير، فسار حتى انتهى إلى ابن أبي سرح وجنده، فرأى ما هم فيه من قتال أول النهار، ومحاجزة عند منتصفه، فأشار على ابن أبي سرح أن يقسم جنود الإسلام إلى قسمين: قسم يقاتل إلى الظهر، وقسم يخلفه فيقاتل سائر اليوم حتى يهن المشركون فـأخذ ابن أبي سـرح بمشورتـه واستحسن رأيه، فلما أراد المشركون المحاجزة عند الظهيرة لم يمكنهم المسلمون، وحملوا عليهم حملة قوية، ركبوا بها أكتافهم حتى كشفوهم فانهزموا، وقتل ملكهم جرجير بيد عبد الله بن الزبير، وتم للمسلمين الفتح، ودخل أهل إفريقية في دين الله، فكانوا من أحسن الناس إسلاماً وطاعة.

ثم بث ابن أبي سرح السرايا حتى بلغت قفصة وافتتحتها، وأسرع ببشرى الفتح إلى دار الخلافة فأوفد بها عبـدالله بن الزبير، فلما قدم على أمير المؤمنين أخبره مشافهة، وقص عليه كيف كانت الوقعة، فأعجب عثمان ما سمع منه، وفرح فرحاً شديداً، وقال له: أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني أهيب لك مني لهم؛ فقام عثمان

في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر، فقام وخطب الناس، وكان أول خطيب خطب إلى جانب المنبر، فقال:

« الحمد لله الذي ألف بين قلوبنا، وجعلنا متحابين بعد البغضة، الذي لا تجحد نعماؤه، ولا يزول ملكه، له الحمد كما حمد نفسه، وكما هو أهله، انتخب محمدا ﷺ فاختاره بعلمه، وائتمنه على وحيه، واختار له من الناس أعواناً، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته، فآمنوا به وعزروه ووقروه، وجاهدوا في الله حق جهاده؛ فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح، وبقي منهم من بقي، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

أيها الناس، رحمكم الله، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم، فكنا مع والٍ حافظ، حفظ وصية أمير المؤمنين، كان يسير بنا الأبردين[1] ويخفض بنا في الظهائر، ويتخذ الليل جملاً، ويعجل الرحلة من المنزل الجدب، ويطيل اللبث في المنزل الخصب، فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى عدونا، فنزلنا منهم حيث يسمعون صهيلَ الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح، فأقمنا أياماً نُجم كراعنا[2]، ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه، فأبعدوا منه، فسألناهم الجزية عن صَغار أو الصلح، فكانت هذه أبعد؛ فلما يئس منهم قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك، وصبر الفريقان، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة، واستشهد الله فيهم رجالاً من المسلمين، فبتنا وباتوا، وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم؛ فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس،

(١) الأبردان: الغداة والعشى

(٢) الكراع: جماعة الخيل، وأجم الفرس: ترك ركوبه من التعب

فزحف بعضنا إلى بعض فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره، فأصبنا غنائم كثيرة وفيئاً واسعاً، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف، فصفق عليها[1] مروان بن الحكم، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم، وأغناهم النفل، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد، وأذل الشرك، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين».

ثم سكت عبد الله، فنهض أبوه الزبير، فقبل بين عينيه، وتلا: ﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ ثم قال: يا بني ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت.

كان أمير الغزو عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أخذ بعد انتهاء القتال في حصر الغنائم والسبي وتقسيمها على الجند، وتعجل بإرسال البشرى بالفتح والنصر إلى أمير المؤمنين لاشتغال نفوس المسلمين بأمر هذه الغزوة وبعد الشقة فيها، ولما استقر الأمر وصفا الموقف وتم تقسيم الغنائم، أرسل بالأخماس وتفصيل الحال مع مروان بن الحكم، فقدم مروان على أمير المؤمنين بما معه وسلمه له، وكانت قد بقيت من الغنائم أشياء لا يستطاع نقلها وتقسيمها، فاشتراها مروان بموافقة أمير الغزو وجنده ورضائهم، ونقد أكثر الثمن، وبقيت في ذمته بقية منه، وأعلم بذلك أمير المؤمنين فأقره، وترك تلك البقية نفلاً جزاء بشارته بهذا الفتح العظيم الذي أدخل على قلوب المسلمين السرور والفرح بنعمة الله تعالى ونصره.

ثم عاد ابن ابي سرح إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، وولى عليها أحد أمراء الأجناد عبد الله بن نافع بن عبد القيس الفهري بأمر عثمان رضي الله عنه.

---

(١) أغلق عليها.

خاتمة الكتاب

وبعد؛ فها هي ذي سيرة عثمان بن عفان في صورتها النيِّرة تمثل حياته: وليداً وشاباً في أعز أرومة عربية نسباً وثراء.

ورجلاً يسرع إلى الإسلام مع أول نداء، وهو أتم ما يكون رجولية واكتفاء بنفسه عن الناس.

ومسلمًا يعتز به الإسلام فيعزه، وينتصر به فينصره، آثر دينه وعقيدته على وطنه وأهله وماله.

وصهراً لرسول الله ﷺ على بنتيه رقية وأم كلثوم مما لم يعرف لأحد غيره من سائر المسلمين.

ومجاهداً بروحه وماله، فلم يُعرف عنه أنه تخلف عن موقف جهاد أو غزوة غزاها رسول الله ﷺ إلا واحدة؛ كان تخلفه عنها بأمر النبي ﷺ، لتمريض زوجه بنت رسول الله ﷺ وأنفق من ماله في سبيل الله وتأييد دعوة الإسلام ما لم ينفق مثله مسلم قط.

ووزيراً وأميناً للصديق والفاروق خليفتي رسول الله على الأمة من بعده.

وخليفة على المسلمين بعد عمر بن الخطاب، فكان ثالث الراشدين عدلاً وحلمًا ورحمة، وكان أحب الناس في الناس لتعطفه، وصفاء سريرته، ودماثة طبعه، وقوة صبره، ورأفته برعيته، وغامر عطاياه، وبره وإحسانه إلى كل من يلوذ به من المؤمنين.

صورناه فيها كما صنعه الله تعالى، وكما رأيناه في مرآة التاريخ مجلوّة من صدأ الأغاليط، وباطل الروايات، وأساطير الأقاصيص.

وتلك هي عظائم الحوادث والأحداث التي دارت على محورها الانقلابات السياسية في التاريخ الإسلامي منذ قتل عمر بن الخطاب وانتخب للخلافة عثمان بن عفان؛ فغيرت على الأمة الإسلامية وجهتها السامية، بسطناها في وضوح، متلمسين الحجة في أطواء الوقائع التاريخية، وبين المشخصات الثابتة لرجالات الإسلام في ذلك العهد.

وفي الحق أن هذه الانقلابات العاصفة كانت زعيمة بأن تطيح أقوى ما يملك البشر من ذخائر السماء أو الأرض، ولولا المقومات الأصلية في طبيعة الإسلام، ديناً، وشريعة، ونظاماً اجتماعياً، لكانت تلك الأحداث القواصم، وما نشأ عنها من مثيلاتها في مراحل الحياة، قد جعلت منه أثراً من آثار الماضي، لا حقيقة من حقائق الخلود.

وهذا الثبات العجيب، والرسوخ الوطيد أمام صدمات النوازل، وزلزلة العواصف أعظم معجزات الإسلام الاجتماعية، لأنه لا يستطيع أحد أن يرد ذلك إلى عوامل خارجة عن خصائصه المقومة لطبيعته؛ ويستطيع كل أحد أن يجد في منحدرات التاريخ، وفيما يجري على مشهد منا في مسرح السياسة الدولية المعاصرة، التي تسيطر على أوضاع العالم الإنساني - كثيراً من عوامل الهدم والإفناء تحيط بالإسلام والمسلمين، وليس بينها عامل واحد من عوامل الحماية والتحصين؛ وحسبنا أن ننظر إلى «خريطة» العالم فنرى أن القوى المادية بأضخم معانيها وأوسع مدلولاتها، يسيطر عليها غيرُ المسلمين، وليس للمسلمين منها - حتى التي جعلها الله بين أيديهم وفي بلادهم - إلا ما للأيتام من مآدب غير الكرام؛ ومع ذلك ظل الإسلام في طبيعته هو الدين الخالد الذي لم تتأثر أوضاعه الذاتية بشيء مما مر به من الأحداث؛ فهل يستطيع علماء الاجتماع؛ ودارسو تاريخ الأديان وطبائعها الذاتية أن يجدوا لذلك تعليلاً صحيحاً غير هذه المقومات الأصيلة في طبيعة الإسلام؟!

وهنا معنى آخر ينبثق من هذه المقوِّمات الذاتية لهذا الدين، قد يكون أعمق في دلالته على الحيوية الكامنة فيه؛ ذلك هو روح الإيقاظ والتنبيه الذي تنبعث به الجماعات المسلمة إلى التفكير فالعمل؛ وهو إيقاظ يستند إلى العقل والوجدان معاً، وهما من أهم العناصر في مقوِّمات الإسلام؛ وروحُ الإيقاظ هو الذي يسري في الأمة الإسلامية اليوم فيلهمها اطراح المثالية الجوفاء، وتعللات العاجزين، ويطلب إليها في إلحاح مرير أن تكون ـ كما كان أسلافها ـ واقعية، تعد للقوة قوة، وتضع في يد الحق سيفاً يفتح به الطريق لنفسه بين أدغال الحياة.

* * *

ولا أكتم القارىء أني لقيت في هذا البحث كثيراً من لذة التعب في استخراج الحقائق من بين أشواك الأساطير وتلفيقات المنحرفين، وأكاذيب المنافقين؛ وحكايات الممخرقين؛ واختلاقات المأجورين؛ وكم من الوقائع لم يذكر؛ وكم مما ذكر لم يقع؛ والتاريخ فيما بينهما ظالم ومظلوم، والحاضر خير شاهد.

وكان أشد ما لقيت على نفسي هو طريقة تدوين التاريخ في العصور المتقدمة؛ تلك الطريقة التي تعتمد على تلقف الحوادث من أفواه الرواة دون تمحيص، وهؤلاء الرواة تحتف بهم أحوال سياسية، واجتماعية، ومذهبية، وأدبية، وفكرية، وعنصرية، قد تزعزع الثقة بهم في رواياتهم؛ ما لم تجد تلك الروايات صيارفة مهرة، ونقاداً حذقة يميزون الجيد من الرديء، ويصفون الحق من بهرج الباطل؛ مثل ما وفق الله تعالى له الأمة الإسلامية في نقل حديث رسول الله ﷺ عن طريق رواة أخذوا على أنفسهم نقد الرجال والبحث عنهم والإحاطة بأحوالهم؛ فلا يروي المصطفَون لنقل السنة المطهرة إلا عمن رجح في ميزان العدالة بين الرواة.

وتدوينُ التاريخ بعيد كل البعد عن هذه النظريات الفاحصة في أحوال الرواة، وقيمة الرواية في موضوعها من جهة العقل والعلم، بل لا يبعد عن الصواب من يقول إن العصر الذي دونت فيه أقدم مصادر

التاريخ الإسلامي المتداولة في أيدي الناس، لا يبرأ من الغرض المائل عن جانب الحق في طريق إثبات الوقائع، ولا سيما هذه المرحلة التي اعتبرتها السياسة مبدأ للسلطان الأموي، وقد كان هذا السلطان بغيضاً أشد البغض إلى خلائفهم على ملك الإسلام من العباسيين، وفي ظل العباسيين وظل سلطانهم دوِّن ما أدركنا من مصادر التاريخ الإسلامي.

ومهما أحسنا الظن بالقائمين على الرواية والتدوين، فإن شيئاً فوق طاقتهم من المؤثرات السياسية والاجتماعية لا بد أن يتدخل من قريب أو بعيد، لأن عاملي الرهبة القاهرة والرغبة المغرية كانا يسودان الحياة في تلك العصور، ومن هنا تعددت الروايات المتضاربة في الحادثة الواحدة وعن الشخص الواحد، وقد أريناك منها شواهد في التمهيد.

وفي هذا المجال تتجلى مهمة الباحث في الموازنة والاستنباط حتى يستخلص من هذه الروايات معالم الحق، ويستطيع أن يرسم له صورة إن لم تكن هي الحقيقة كلها فهي أقرب ما تكون إليها، وبحسب البحث في هذا المقام أن يصل إلى مثل هذه النتيجة.

ومما زاد في صعوبة البحث تلك الطريقة التي يسلكها بعض المعاصرين من الباحثين في التاريخ الإسلامي، وهم يرون أنهم ينهجون في بحوثهم النهج العلمي القائم على النقد والتحليل، وكأن المظهر الأعلى لذلك النهج عندهم صرفُ النقد إلى ذكر المعايب والمساوىء في صراحة عريانة، وجرأة طائشة، ولا سيما فيما يختص بدراسة سيرة رجالات اطمأنت الأمة الإسلامية إلى فضلهم ومكانهم في الإسلام، ولم تقل إنهم معصومون من الأخطاء.

ولسنا ننكر أن النقد الفاحص عن كشف المحاسن والمعايب بدلائلها وشواهدها ـ في أسلوب حاذق كريم ـ أجدى على الدراسات التاريخية، لأنها تُقصد للعبرة والتأسي؛ ونحن إذا عذرنا بعض المستشرقين الذين يخطئون في بدائه من التاريخ الإسلامي، فلا نجدنا ننشط إلى قبول عذر من باحثينا كتاب العربية والإسلام في مجاراة أولئك الباحثين من الأجانب، وتلقف

آرائهم من غير بحث وتمحيص؛ ويجب أن نرفض هذه القداسات التي يراها بعضنا لهم، وعلينا أن نعيد النظر في طريقة الإفادة من بحوثهم في تاريخنا ولغتنا وآدابنا على ضوء بلوغنا الرشد الفكري، وإحياء مجدنا العلمي.

«والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»

فهرس

الصفحة